
دعوة الحق
الإسلامية وشؤون الثقافة والفكر
عيد مبارك سعيد
وعمر مديد
أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني المنصور بالله وهو في
طريقه لأداء صلاة الجمعة بمسجد مولاي عبد العزيز بمدينة العيون

إعـــــلان

في إطار العمل الإسلامي الذي تضطلع به وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، لخدمة التراث الإسلامي عموما، وما يتصل منه بالتراث المالكي على الخصوص والهادف إلى إخراج نفائسه ونشرها على أوسع نطاق.

يسعدها أن تعلن عن اعتزامها تحقيق وإخراج الكتابين التاليين :

- تهذيب المسالك إلى نصرة مذهب الإمام مالك :ليوسف الفندلاوي.

- الدر المنظم في الاحتفال بمولد الرسول المعظم :للعزفي.

لذا، فعلى السادة العلماء والأساتذة والباحثين وكل من له رغبة في تحقيق أي من الكتابين المشار إليهما أن يتقدم بطلب في الموضوع إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (قسم الدراسات الإسلامية أو مصلحة إحياء التراث الإسلامي) مع إثبات اسمه الكامل وعنوانه ورقم الهاتف إن أمكن.

مطبعة فضاله . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3



شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
الرباط. المملكة المغربية



أسسها:
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 601.85

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات: في المملكة المغربية: 70 درهماً
في العالم: 80 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

فهرس العدد 250



أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وهو يؤدي صلاة الجمعة في مسجد مولاى عبد العزيز بالعيون.

تهنئة وتبريك

• يصدر هذا العدد من مجلة "دعوة الحق" والمغرب من الصحراء إلى البوغاز، مزدهر الأكناف سنيّ الأعطاف يرفل في مهرجان من العز مستبشرا فرحا واغتباطا بالذكرى السادسة والخمسين لميلاد عاهله المعظم، وعاقد لواء

الملة والأمة والدين على النصر المبين، أمير المومنين

جلالة الملك الحسن الثاني

المنصور بجنود من الرحمن والمحفوظ بالسبع المثاني والقرآن

وتغتنم وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية هذه المناسبة الغالية السنية، لترفع آيات التبريك والتهاني، وزكيات اليمن والأماني، الى مبدع المسيرات، وحامي الحرمات، وقائد المغرب على نهج الكرامات والفتوحات، ومحجة الآلاء والخيرات. صاحب الجلالة الحسن الثاني حفظه الله وأمد في عمره

وهي إذ تتقدم إلى السدة العالية بالله بأحر العواطف وأسماها، وبأنبل المشاعر وأسناها، مباركة مهنئة، لتضرع إلى الله جل ثناؤه أن يعيد على جلالته المنيفة وعلى أسرته الشريفة، ذكرى هذا العيد بأكمل المسرات وأزهى النعم النيرات، وأن يقر عين جلالته بولي عهده المبجل صاحب السمو الملكي الأمير سيدي محمد، وبصنوه الأمير السعيد مولاي رشيد، وبسائر الأميرات الجليلات المصونات. وأن يحقق سبحانه وتعالى على يدي جلالته بثاقب فكره وعبقري نظره، وشفوف قلبه، ما لشعبه الوفي من عريض الآمال، وما لأمته الإسلامية من وافر الرجاء في تحرير القدس واسترجاع فلسطين، وفي استنجاز كل مستنجح ومأمول في العزة والرخاء واطراد التمكين، إنه نعم السميع ونعم المجيب.

عيد العمل والوفاء

من أبرز السجايا الكريمة التي تطبع هوية العرش العلوي المجيد في التاريخ منذ ما كان مقلدا من العناية الالهية ومن رضى الأمة واختيارها الطوعي، بأمانة القيادة والسير بالرعية في معارج البطولة والامجاد والفتوحات الجهادية، وفي مدارج البناء الحضاري الواسع والتنمية الشاملة، وفي مناهج التحرر والوحدة وحفظ الكيان وصون السيادة وتثبيت المشروعية.. من أهم تلك السجايا، ان العرش العلوي يشكل في التاريخ المغربي، بفتوحاته واشراقاته الباهرة مدرسة قائمة الذات، قوية الاركان، متينة البنيان، ثابتة الدعائم، راسخة في الاصول والجذور، حية في الوجود والحضور، على جميع المستويات وفي كل الحقول.

هذه الهوية المتميزة والمنفردة بين انماط الحكم، واساليب القيادة، وأشكال السياسة في العالم كله، بقيم الشرعية والمشروعية، ليست في الواقع هوية منعزلة عن التاريخ والحياة والقضايا الحضارية، ذات الشأن الكبير منها وذات الشأن الصغير على السواء، وليست هوية منفصلة عن ضمير الامة وفكرها، وملة الرعية وعقيدتها، ومشاعر الشعب وعواطفه، بل هي دائما تلك الهوية المنبثقة عن هذا الضمير، النابعة من قلوب الرعية وصدورها، المستمسكة والمدافعة عن حياض الدين، وحوزة التراب وقداسة الاختيارات المذهبية للمغرب والمغاربة، وهي بعد هذا وذاك، الهوية المنصهرة في بوثقتها : قيم الشعب ومبادؤه، ومثل الامة وفضائلها، وأمجاد المغاربة ومفاخرهم ومآثرهم الشامخة في التاريخ والحياة، وأنعم بها من هوية تعكس وجود الامة في صفاء معدنها، وشفوف اصالتها.

وانطلاقا من هذه الهوية الراسخة، نلمس عبقرية العرش العلوي، ونلمس مع هذه العبقرية الفذة في أشمل الميادين وأرحبها في التاريخ والحياة، التمثل الصادق لملوكه الابرار الميامين، منذ المؤسس الاول مولاي على الشريف قدس الله روحه، الى أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، المثل العالية والمبادىء السامية والفضائل الثابتة للمغرب والمغاربة عبر التاريخ.

هذا التمثل الواضح لهذه الاصول المتغلغلة في وجدان المغرب، أرضا وامة وسيادة وحضارة، وهوية مذهبية مشعة ونافذة، ينعكس بأوضح ملامحه ومجاليه في الشخصية الفذة لجلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله وأمد في عمره.

فالمتأمل المتفحص في عطاءات وابداعات شخصية جلالة الملك الحسن الثاني في شتى الميادين وفي مختلف ضروب النشاط الفكري والاشعاع السياسي، والتوهج الاخلاقي والحيوية الاصولية، وفي سائر ما ينتظم شخصيته العظيمة من معالم تشمل كل أوجه الحركة والنشاط والعمل الدؤوب الذي يبذله جلالته باستمرار.. ان هذا المتأمل يجد في هذه الشخصية المتميزة، كل الخصال والملامح وكل السجايا والقسمات الفردية والجماعية، والذاتية والجوانية، التي لا تتوافر الا في عظائم الرجال المخلصين الذين وسمهم الله سبحانه وتعالى بسمات الخير والفضل، والنبوغ والسمو، والعلم والثبات على الحق، فضلا عن سمات الرأي الثاقب، والعقل الكامل والتفكير الراجح، والخلق المتين، والنفس الراضية المرضية..

ولئن كان قد وضع ميزان للشخصيات توزن به وتقاس، فانه يمكن القول بدون جزاف، أن شخصية جلالة الملك الحسن الثاني بأي الموازين والمعايير شخصية عالمية من طراز رفيع، بل انها بالاصالة والعراقة اللتين تنطبع بهما شخصية جلالته الفذة تمثل نمطا فريدا ونموذجا نادر الوجود للشخصيات التي تظل لفترات تاريخية غير محدودة، حية في التاريخ والزمن، وباقية فيهما الى أمد غير محدود.

ذلك لان التأثير الواسع على شتى الواجهات وفي جميع أرضيات العمل البشري الذي يمارسه جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، يضع العاهل المفدى في مقام متميز بالاصالة، والرسوخ والاشعاع والصلابة في الحق، والفضيلة، والخير، بين شخصيات العالم قاطبة.

وليس من السهل، ولا من الميسور، أن يتوفر هذا المقام لاحد من القادة البارزين والزعماء الافذاذ والرؤساء الاعلام في عصرنا، ما لم يكن قد تمثل، كما هو الشأن في شخصية جلالة الملك الحسن الثاني، روح أمته ووطنه، تمثلا عميقا وصادقا غاية الصدق، وما لم يكن قد صهر في ضميره اليقظ المتفكر الروح العربية والاسلامية، والروح الافريقية والروح الانسانية، بمعنى مشمول بقيم التسامح والتواصل والتفاهم والتعايش.

ولنذهبن الى القول، بدون جزاف كذلك، ان شخصية جلالة الملك الحسن الثاني على طرازها الرفيع هذا، وفي طريقتها المثلى هذه، لم يأت اكتسابها لهذه الطبائع العالية في اصوليتها، ولمحمود الخصال فيها، وذكي الخلال منها، اكتسابا عفويا، كما هو الحال بالنسبة للعديد من شخصيات القيادة والسياسة التي وجدت في الظروف، معوانا لها على الابراز، بل على العكس من ذلك، جاء اكتسابها ذاك عن تجربة ونضال وتمرس، وطول احتمال وفرط تحمل، متدرجة فيه من مرحلة اليفاعة والشباب وغضارته، الى مرحلة الرجولة والنضج بحكمته وعلو شأنه.

ومن نافلة القول، التأكيد على ان جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله، في كل هذه المراحل من عمره الحافل بجلائل الاعمال، الزاخر بمحمود الفعال ومبرور التضحيات الجسام، هو ابن لعصره وزمانه، بكل أبعاد العصر الوطنية والقومية والاسلامية، وبكل أبعاد الزمن الانسانية والعالمية والبشرية.

لقد احتكت شخصية جلالة الملك الحسن الثاني منذ الصغر، بجميع هذه الابعاد، وتفاعلت معها، وانصهرت فيها، فتمثلت قيمها ومبادئها، وخاضت تجاربها بالنضال وقوة المراس، واقتحمت ملامحها بنفس قوي من الايمان بالمبدأ والثبات عليه، ومن الصدق والحرارة في التمسك بالحق والدفاع عنه، الى حد التضحية بالغالي والنفيس لاستخلاص المشروعية واستنقاذها من خصومها وأعدائها.

ويوم كانت قضية استقلال المغرب تجتاز مراحلها الصعبة في أواخر الاربعينات وأوائل الخمسينات، كانت شخصية الأمير الشاب مولاي الحسن، خير معوان لوالده المنعم جلالة المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه في تذليل العقبات، وانارة الطريق، واستيضاح الاهداف البعيدة، واستشفاف آفاقها.

ولئن كان المحك الأول لشخصية جلالة الملك الحسن الثاني، محكا وطنيا خالصا، فان السبل والمناهج القومية والاسلامية والافريقية سرعان ما تفتحت أمامها فيما رافق وواكب أطوار الحياة الشاقة من تجارب مريرة، ونضالات عصية، وكفاحات أليمة مضنية، ومواجهات حاسمة تطلبت من شخصية جلالة الملك الحسن الثاني، أقصى درجات التحدي والقدرة والصمود والثبات، فكانت هذه الشخصية بايمانها وصلابتها وأصالتها، في مستوى التجربة، والتاريخ والتحدي، والاختيار.

وما كاد المغرب سنة 1955 يسترجع استقلاله، حتى بدأت شخصية جلالة الملك الحسن الثاني، تحتك وتتفاعل بطريقة متأثرة ومؤثرة مع ما يختلج وما يضطرب في المجال العربي والاسلامي والافريقي والدولي، من أفكار وقضايا، واحداث وصراعات، ومطامح وتوجهات، وآمال ونضالات.

وسرعان ما برزت شخصية جلالة الملك الحسن الثاني، كمثال على الشخصيات التاريخية التي تترك بصماتها الأصيلة على وجه الاحداث والقضايا والشواغل العالمية مهما كان مصدرها وكيفما كان اتجاهها وطابعها.

ومن ثم، انطبعت الآثار العميقة لشخصية جلالة الملك الحسن الثاني في الاطار الوطني، كشخصية عظيمة، تكافح كفاحا لا هوادة فيه من أجل تنمية المغرب، واسعاد المواطن، والارتقاء بالشعب، وكشخصية لا يفتر جهدها، ولا تنثني إرادتها، عن السعي بدأب من أجل استكمال الوحدة الترابية للوطن، وضمان الوسائل الفعالة والمشروعة للدفاع عنها، ومن أجل تأمين مستقبل كريم ومتحرر لكل أجيال المغرب في تاريخها الراهن.

الى جانب ذلك، برزت شخصية جلالة الملك الحسن الثاني في الدائرة العربية والاسلامية كشخصية زعيم من طراز رفيع، حيث أضفت مجهودات هذه الشخصية وتضحياتها على القضايا الاسلامية، وعلى توجهات العالم الاسلامي، طابع الجدية والفعالية والاشعاع المستمر، من أجل ان تنال الامة الاسلامية حقوقها السليبة وتسترجع كرامتها المهدورة، وتستعيد دورها ومكانتها في المجتمع الدولي، كأمة فاعلة ذات رصيد حضاري مرموق، وذات طاقات حية وقادرة على مباشرة مسؤولياتها في اقرار السلم العالمي وحفظ توازنه.

أما على مستوى الاطار الافريقي، فان شخصية جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، ظلت ولازالت، لمدى يناهز ربع قرن كامل، تمارس وتبذل تضحية جسيمة لمصلحة تحرر وازدهار ووحدة الشعوب الافريقية قاطبة.

ذلك ان حضور جلالة الملك الحسن الثاني في لقاء الدار البيضاء التأسيسي لمنظمة الوحدة الافريقية وفيما أعقبه من مؤتمرات ولقاءات افريقية، سواء عقدت على أرض المغرب او على أرض افريقيا او خارج افريقيا، هذا الحضور الروحي والمعنوي والمادي لجلالة الملك الحسن الثاني، لا يزال الى اليوم مرتبطا بما عاشته افريقيا من تحولات

عميقة، وبما شهدته من نقلات حيوية في نوعية القضايا والمشاكل والتحديات التي تواجهها القارة وشعوبها، والمبدأ الثابت الذي يحكم اسهام شخصية جلالة الملك الحسن الثاني في الاطار الافريقي، يتمثل دائما في الدفاع عن المصداقية الافريقية ومشروعيتها وفي حمايتها من الاخطار والسلبيات والنواقص التي تعوق تقدم وسير افريقيا.

وفي كل هذه المجالات والحقول، سواء كانت تستقطب فعاليات العمل الوطني او العربي والاسلامي او الافريقي، تتألق فيها شخصية جلالة الملك الحسن الثاني القائد المؤمن، والزعيم الفذ، والرائد المخلص الشديد الاخلاص لقضايا الشعوب وآمالها المشروعة في العيش والتعايش، الامر الذي اكسب شخصية جلالة الملك الحسن الثاني منذ تقلده مسؤوليات وطنه وشعبه، منزلة مرموقة بين شخصيات عالمنا المعاصر، وأضفى عليها في هذا النطاق بالذات، وزنا دوليا يحظى على الدوام في أرجاء المعمور، بحسن التقدير، وجميل الاكبار، ومحمود الثناء على المنهجية المثلى التي تسلكها شخصية جلالة الملك الحسن الثاني حيال القضايا الشائكة، والمشاكل المستعصية، والاحداث المتعاقبة على مسرح عالمنا.

ونخلص من ذلك الى ان الركائز التي تقوم عليها شخصية جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله، هي ذاتها الركائز التي تنبني عليها شخصيات الرجال العظماء الذين يؤثرون في التاريخ وحوادثه، وينظرون اليه ببصيرة نافذة ثاقبة قادرة على استشفاف مكنونه بالتفكير الدائم، والحدس الصوفي، والقريحة المبدعة والذهن الوقاد والخيال المتوهج بنور اليقين وقبس الايمان.

ومن النادر في التاريخ، طريفه وتالده، أن نطالع في شخصية من شخصياته هذه الملامح والقسمات جملة واحدة، ذلك ان هذه الشخصيات جميعها، تنفرد بتألقها في موهبة من المواهب، ولكن شخصية جلالة الملك الحسن الثاني، تضاهيها جميعا باشتمالها على مواهب وملكات لا يمكن ارجاعها الا الى مصدر العناية الربانية التي رعت في الماضي، ولا تزال ترعى الى اليوم، الملوك الميامين والغر المحجلين والسلاطين الاطهار والابرار، ملوك الدولة العلوية الشريفة، وواسطة العقد فيهم أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني أمد الله في عمره.

وها هي الأمة جمعاء موحدة سيادة بلادها ووطنها وترابها من البوغاز الى الصحراء، تحتفل بالذكرى السادسة والخمسين لميلاد عاهلها وراعيها المفدى جلالة الملك الحسن

الثاني ومخلدة بنفس المناسبة اعياد الشباب في مهرجانات حافلة بضروب الفرح والجذل والنصر، وزاخرة بألوان شتى من التعلق والوفاء والولاء، مشمولا فيها جلالته حفظه الله بقلوب الأمة خافقة له، وبمشاعرها مهتزة لعيده الميمون، وبعواطفها الصادقة له حارة متدفقة بنبض المحبة الخالصة والمودة القلبية المحضة لعرشها المجاهد، رمز استمرارية الأمة وعنوان سيادتها وكيانها، وطغراء اشعاعها وتألقها، ودعامة نهجها في الحياة والسلوك والعمل والتعامل وفق الاختيارات المذهبية التي استقر عليها واستوى واستقام وجدان المغاربة منذ أربعة عشر قرنا : في وحدة الدين، ووحدة اللغة ووحدة السيادة ووحدة الانتماء.

من شخصية جلالة الملك الحسن الثاني أعزه الله، تستمد الأمة قوتها على الصمود الحضاري في هذه الحقبة من التاريخ، حيث التحديات أكثر، والاختيارات والمعاكسات أشرس وأعنف، ويستنير أبناؤها بالقيم العالية والمثل السامية والفضائل المحمودة النبيلة التي تشبعت بها وتشربتها شخصية جلالة الملك الحسن الثاني حيث أصبحت هي ذاتها مصدرا يلهم الشعوب الحق والبصيرة والحكمة، ويلهمها الكرامة والصبر والعزة، ويوحي اليها بالافكار الموجهة صوب الخير والعدالة والمشروعية .

وصدقت احدى الشخصيات الفكرية الذائعة الصيت في العالم كله حين قالت في حق جلالة الملك الحسن الثاني : ((ان شخصية ملك المغرب بخصاله وسجاياه، لمنبع تتفجر منه أصفى وأسلس الافكار وأنبلها وأفصحها عبارة وتبيانا، انها شخصية فذة توحي لمستمعيه أو محاوريه او مخاطبيه، بأنهم حقا أسيرو الجاذبية الروحية والفكرية لهذا العاهل المتعدد المواهب الذي تعتبر موهبته الأولى هي حبه لشعبه وحب شعبه له)).



كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الاسلامية في مهرجان جائزة الحسن الثاني لحفظ القرآن الكريم للشباب الذين تقل أعمارهم عن عشرين سنة



الطفل عبد الكريم الفائز بجائزة الملك الحسن الثاني لحفظ القرآن الكريم يقدمه السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية إلى الحاضرين

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين
وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

حضرات السادة :

جعل الله القرآن شفاء لما في الصدور، ومعجزة لنبيه سيدنا محمد ﷺ على مر الدهور تحدى به بلغاء العرب وفصحاءها بنصه الكامل، وبعشر سور من مثله، وبسورة منه، وبآية واحدة من آياته، فلم يستطع أحد أن يأتي بمثله. ولا يفهم هذا إلا من درس هذه اللغة وذاق أسرارها، وقارن بين أساليب العرب في الكلام وبين هذا الأسلوب الفريد المعجز الذي يطبع القرآن ويميزه عن غيره تمييزا يحس به الذوق السليم، والطبع المستقيم، قبل أن يؤكده التحليل والتعليل. ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾.

وجاء القرآن بما يهدي الإنسان إلى معرفة ربه وتوحيده، وإلى معرفة نفسه وسر وجوده وإلى معرفة الكون وحكمة خلقه، وبما يصلح أحوال الإنسان في حاله ومآله، ويسمو به إلى عوالم التكامل بين روحه ومادته، ويرشده إلى التناسق والانسجام الذي أبدعه الله في الكون، والترابط بين البدايات والغايات، والوضوح في معنى هذا الكل الذي هو جزء منه والأمانة التي ألقاها عليه حين استخلفه في الأرض، والتكاليف الشرعية التي أناطها به.

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.

ولقد وصف رسول الله ﷺ هذا القرآن، وذكر أنه الحل الوحيد لمشاكلنا والمخرج الفريد من الفتن فقال : «ألا إنها ستكون فتة» فقيل : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يخلق على كثرة الرد. هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : «إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا» من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم» رواه الترمذي.

ولهذه المعاني السامية، والمقاصد العالية، والفوائد الثمينة الغالية، كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يحفظونه في الصدور، ويعكفون على تدارسه وتدبر آياته، وملء الأوقات والأنفاس بقراءته وترتيله.

ثم جاء جيلنا فواجهته رياح الفتن المادية، وأعاصير النحلالات العصرية، وكاد أن يستسلم لها ويعرض عن ذكر ربه، لولا أن تنادت أصوات المخلصين من بقية السلف الصالح في هذه الأمة تصيح به ليعتصم بحبل الله المتين، ويتمسك بكتابه المبين.

وبذلت جهود مشكورة في هذا السبيل، كانت ثمرتها ما يوجد في بلادنا إلى الآن من كتاتيب قرآنية، ومدارس للقراءات والتجويد، منتشرة هنا وهناك، وكان محمد الخامس رضوان الله عليه من أوائل المنادين بالعناية بحفظ كتاب الله وترتيله وتجويده.

وضرب رحمه الله المثل للأمة بأبنائه، وعلى رأسهم ولي عهده الأمير مولاي الحسن ففتح لهم كتابا قرآنيا وسهر على تحفيظهم كتاب الله، واحتفل في ذلك اليوم رضى الله عنه احتفالا بهيجا ما زال يذكره الحاضرون يومئذ والسامعون، وتوالت الجهود على يد خلفه ووارث سره صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله، ولم يكتف بالتأكيد والإلحاح على تعليم القرآن للناشئة، بل جعل السلك القرآنية دائمة دائبة تواكب نشاطه وحركته، وينفق عليها حفظه الله من ماله الخاص بكرمه المعهود، تشجيعا للقراء ورعاية لهم.

ونحن إذ نقيم اليوم هذا الحفل المبارك، فإنما نريد تأكيد العزم على مواصلة الخطى والاستمرار في نفس النهج، حتى تأتي هذه السياسة الرشيدة التي رسمها لنا ملوكنا وأسلافنا أكلها كل حين بإذن ربها.

ونحن إذ نؤكد على ضرورة تشجيع الكتاتيب القرآنية والعمل على نشرها وتعميمها نرى من الضروري خلق أسباب أخرى لتشجيع أطفالنا وشبابنا على حفظ كتاب الله العزيز.

ومن ذلك هذه الجائزة الكبرى التي وافق صاحب الجلالة حفظه الله على إطلاق إسمه الكريم عليها «جائزة الحسن الثاني لحفظ القرآن الكريم» والتي جعلناها خاصة بالحفظ، ولم ندخل فيها التجويد خلافا لما جرى به العمل حتى الآن.

وجعلناها قاصرة على الشباب الذين تقل أعمارهم عن عشرين سنة، تشجيعا للشباب وهي جائزة سنوية، المبلغ الإجمالي المخصص لها هو مائة ألف درهم.

وقد وجدت هذه الجائزة من إقبال الشباب ما يثلج الصدر، ويطمئن النفس، وإن تأهيل أكثر من أربعين مرشحا إلى مرحلة التصفية لدليل قاطع على هذا الإقبال.

ونغتنمها مناسبة لنهيب بالمؤسسات والهيئات والخواص، أن تكون لهم مبادرات لتشجيع شبابنا على حفظ كتاب الله حتى تتكامل الجهود، ويقوم كل بواجبه في هذا الباب، ونحن على استعداد لتزويدهم بالأطر المتخصصة للتحكيم والتعاون معهم في هذا السبيل.

☆ ☆ ☆

أيها السادة :

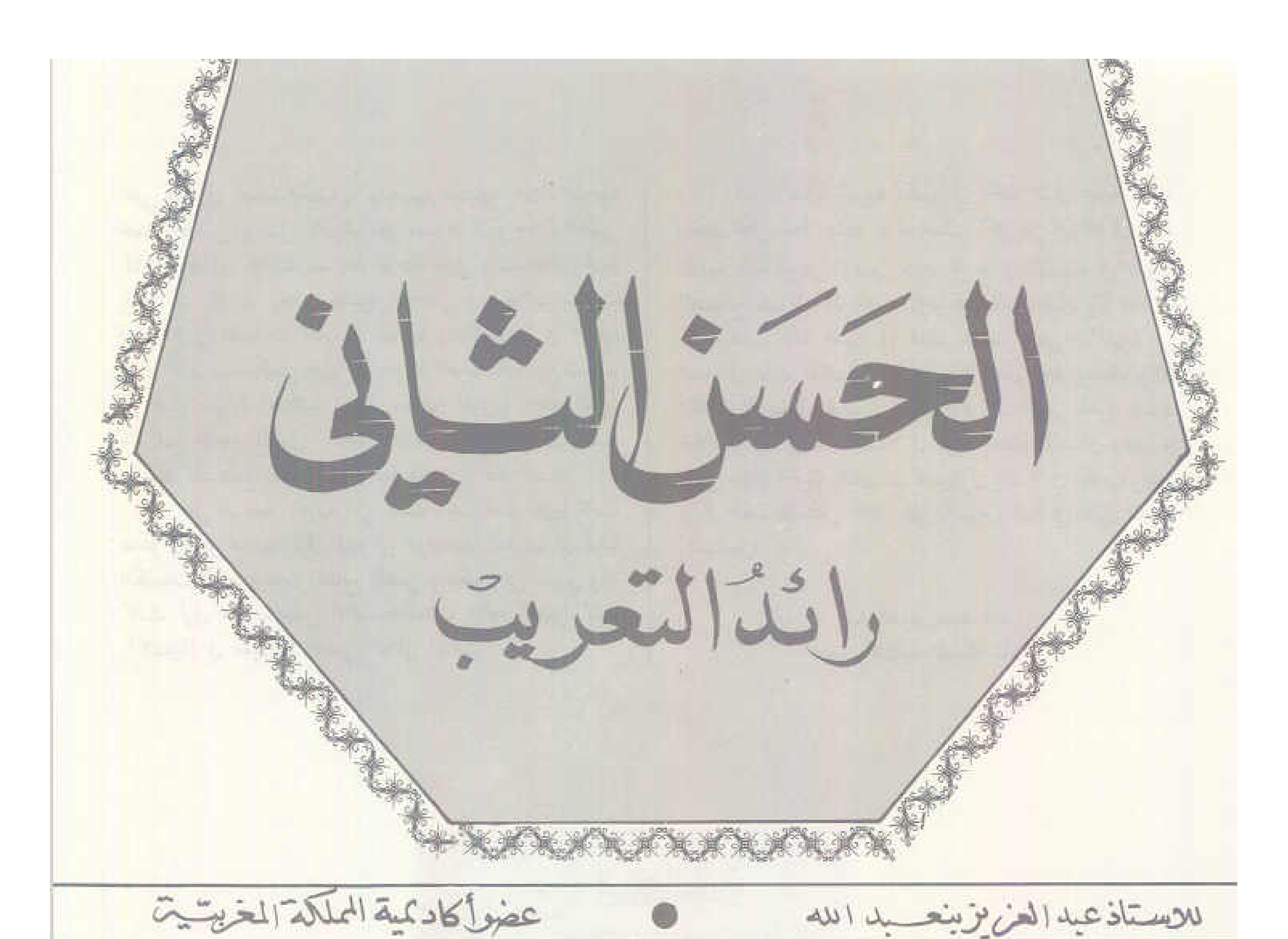
إن برنامج وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قائم على تلك السياسة الرشيدة التي رسمها لنا أمير المؤمنين عندما قال : «نريد الجواد السباق الإيجابي» و«نريد أن نحارب السلبيات بالإيجابيات».

وهي سياسة ضاربة في عمق الحكمة، لأننا إذا تجنبنا إضاعة الوقت في ذلك الجدل العقيم مع أصحاب البدع والأهواء والإديولوجيات الهدامة، واللغط السقيم الذي يريد أن يشغلنا به أصحاب الدعاوي الباطلة، والمعارك الهامشية التي تفرق الصفوف وتغرقنا في بحر من الخلاف، وانصرفنا إلى تحفيظ ناشئتنا كتاب الله تعالى، وتعليم أبنائنا مبادئ الدين الصحيح، وعملنا على نشر العلم، وغرس الإيمان في النفوس، واجتهدنا لتوحيد صفوف أمتنا على مذهبنا المالكي، وعرفناها بأحكامه، وأرشدناها إلى فوائده، لم يعد يعنينا بعد ذلك أن يقول أحد ما شاء.

نسأل الله تعالى أن يعين المخلصين، ويأخذ بيد العاملين من أجل نصرة دينه والتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ وأن يحفظ أمير المؤمنين، ويقر عينه بسمو ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد الأمير مولاي رشيد، وسائر أفراد أسرته الشريفة.

الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية



للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله ● عضو أكاديمية المملكة المغربية

□ تحدث عالم جليل من شيوخ مصر البارزين في أحد المجالس الحديثية التي يرأسها جلالة الملك الحسن الثاني خلال شهر رمضان المعظم عن حياد كلمة «أكاديمية» في تسمية (أكاديمية المملكة المغربية) عن الأصالة العربية.

ويجدر بنا هنا أن نؤكد ـــ اذا كان ذلك يحتاج الى تأكيد ـــ ان فلسفة الحسن الثاني رائد التعريب هي فلسفة السلف الصالح من كبار علماء الاسلام المبدعين أمثال جابر بن حيان واضع علم الكيمياء وابن الهيثم واضع علم البصريات (l'Optique) ومحمد بن موسى الخوارزمي واضع اللوغاريتم والالكوريتم وعلم الجبر والشريف الادريسي واضع علم الجغرافية ومخطط أول خريطة للعالم وغيرهم من كبار العلماء الذين كانوا يذهبون الى الاعماق لاحتواء العلم في صلبه بالابتكار والاختراع لا توقفهم القشور عن التغلغل في المادة العلمية نفسها لتطويرها والابداع فيها وقديما استعمل علماؤنا كلمات علمية دقيقة رغم رنتها الاجنبية مثل أرطماطيف (Arithmétique) وفيزيقا (Physique) وهما كلمتان استبد لنا بهما لفظتي رياضيات وفيزياء المهذبتين شكلا واللتين اقتصر اسهامنا اليوم فيهما على التشذيب اللفظي لتغطية قصورنا في الاحتواء العلمي وقد ضرب لنا القرآن الكريم أروع مثل في هذا التسامح حيث استعمل حسب الامام السيوطي في مزهره نحو المائة كلمة اجنبية وكذلك الحديث النبوي الشريف الذي بلغت اقتباساته من اللغات الاجنبية نحو الثلاثمائة كلمة منها كلمة (قسطاس) «ومعناها ـــ كما يقول الامام البخاري في صحيحه ـــ العدل بالرومية» ولم يكن الرسول عليه السلام يجهل كلمة عدل وميزان ولكنه استعمل لفظة أجنبية لاسباب أعمق مما نتصور ولعل منها عالمية احتواء لغة الضاد للمفهوم العلمي الحضاري والانساني والكل يعلم ان مؤسس (أكاديمية المملكة المغربية) هو مؤسس مكتب التعريب الذي استضافته جامعة الدول العربية وأواه ورعاه جلالته منذ 1962 ممهدا الى الانطلاقة الكبرى التي نشهدها اليوم والتي تستهدف ـــ في رصانة علمية وتؤدة فكرية ـــ تعريب كل العلوم في التعليم الثانوي بسلكيه بصورة لم يسبق لها نظير لان جلالته وضع الأسس المكينة قبل البناء عليها.

وقد انكب مكتب التعريب برعاية جلالته على تعريب العلوم والانسانيات والتقنيات والمهنيات طوال ربع قرن واكب

أغنى فترة في حياتنا الحضارية والعلمية استهلها جلالة المرحوم محمد الخامس ويواصل الاشراف على مسارها اليوم جلالة الحسن الثاني وقد أبى جلالته — بعد مرحلة تمهل واستجمام وتجربة رائدة — إلا ان يعطي الضوء الاخضر منذ ثلاث سنوات للشروع في تطبيقات التعريب العلمية والتكنولوجية في التعليم العام الذي سيستكمل بحول الله جهازه المغرب بعد اربع سنوات في شمولية عربية اسلامية أبسط معالمها اشتراك العالم العربي باشراف جامعة الدول العربية والالكسو بالرباط في وضع وتنميط المصطلح العلمي لأول مرة في تاريخ لغة الضاد.

على ان مصر العربية التي كانت رائدة العالم العربي كانت تدعو ويدعو مجمعها الموقر اليوم الى التزام مبدأ التعريب أي قولبة الكلمات الاجنبية ذات الطابع العلمي والتكنولوجي الدولي وقد كانت أول من استعمل آلاف الكلمات الأجنبية مثل كلمة (أكاديمية) في مفهومها العلمي العالمي الدقيق.

ان الأصالة العربية تكمن في الخط الذي نهجه سلفنا والذي مكن للغة الضاد ان تستقطب اكثر من أي لغة في العالم المفهوم التكنولوجي الرصين دون تحرج في الاسهام في تدويل المصطلح بصورة كان الحظ الاوفر فيها للغة الضاد ولا تتحرج اليوم أعظم لغة علمية في عالمنا المعاصر وهي الانجليزية من استعمال مآت الكلمات العربية لان العلم اخذ وعطاء ولان الكلمة العربية قد فرضت نفسها يوم كان الفكر العربي مبدعا خلاقا يسهم روحا لا شكلا في بلورة العطاء الانساني وهذا ما يعمل جلالة الحسن الثاني — كمسؤول رائد لا في المغرب وحده بل في العالم الاسلامي كافة، على تأصيله وتأثيله في عقول العرب والمسلمين.

عبد العزيز بنعبد الله
عضو أكاديمية المملكة المغربية





* *

قديما قال البلاغيون : «البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال» وعلى هذه الوتيرة، نزيد فنقول : لباقة الكلام ولياقته مراعاته لمقتضيات الأحوال، وما أكثر هذه المقتضيات، وما أعقدها، وأعوص عقدها على الحل، وأحوجها إلى مهارة الاستعمال !!

قلت يوما لولدي الذي كان في مقتبل الشباب ـ رحمه الله ورضي عنه ـ لمناسبة ما ﴿**إنما الحياة الدنيا لعب ولهو**﴾ فقال لي : زيدونا قتلا على قتل...

فكأنه برده هذا ألقمني حجرا، أو لطمني لطمة، لم أقل فيها «لو ذات سوار...» بل قلت في نفسي : ما كنت أحوج إلى هذه التي نبهتني من غفلتي، وأيقظتني من سبات غفوتي... فلم يكن من اللائق أن يقال لشاب يستقبل الحياة، هذا الكلام، بل يقال له، ما قال الشاعر :

علمونا أن الحياة جهاد

علمونا أن الجهاد وجوب

حقا إنه كلام الله، ولكن للكلام مقامات، وفي توجيه الكلام إلى أصحابه اعتبارات. فلمثله، كما لغيره، قال الله أيضا : ﴿**ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك**﴾ وقال : ﴿**للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة**﴾ إلى غير ذلك من الآيات في شأن الدنيا ولكن للكلام ـ كما قلنا ـ مقامات ومراعاة عديدة، مما نجده في الحديث كذلك، مثل «الدنيا دار هم وغم وبلاء»، و «نعم الدنيا خضرة نضرة» لنترك الوصف، جانبا، ولنتعرض إلى الوعظ والترهيب والترغيب به، فالقرآن، كما قال الله : ﴿**شفاء لما في الصدور**﴾ فلابد أن يراعى في هذا العلاج، نوع المرض، والمصاب بهذا المرض، ومراحل الحياة التي هو حل بها، شأن كل دواء وكل علاج، حتى يتحقق هذا الشفاء بعون الله وإذنه...

من هذا المنطلق، نجد بعض الأحكام القرآنية، تراعي متعلقاتها، فلا تهمل حيثياتها، فتسلك التدريج، أو تركب

مطايا النخ في ذلك، أو تبقي ما كان على ما كان، وتحرم، تحريما قاطعا، ما سيكون على حد وما كان، وتستثني «إلا ما قد سلف»...

نعم، هذا معروف جدا للدارسين، ولكن ملاحظة ذوي الأسنان المختلفة، وفي ظروف مختلفة، زمانا ومكانا، وغير ذلك هذا ما لم يراع ـ ويجب أن يراعى، لا محالة في هذا ـ ولا شطط فيه، فغير مناسب أن يقال لشاب، في هذا الظرف خاصة، ما قلته، وقد غمر الشباب، اللهو واللعب، بل غمر حتى الكهول، وبعض الشيوخ منا، هذا اللهو واللعب، في شتى المجالات ومختلف هذه الحياة، التي نعيشها في سكرة الاستسلام، وفي حمأة التبعية العمياء...

على الآباء وأشباه الآباء، أن يتوجهوا إلى أبنائهم، بما يبعث فيهم روح التوثب، ويشب فيهم جذوة الشعور باحتمال المسؤولية الحق، ويلقنوهم الدرس القرآني، القائل : ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون**﴾. وحتى لو تلوا عليهم قوله تعالى : ﴿**وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾ فليوجه هذا الغرور إلى الاعتزاز بالذات والحفاظ على النفس، في استماتة المدافع للانجرافات الكاسحة، والتيارات التي تطمس القلوب وتكبتها، بل تميتها وتقهرها، في غير شفقة ولا مبالاة، نستعيذ بالله...

حكى لي محام شهير، أنه طلب منه أن يلقي دروسا، على الطالبات، في أحد المعاهد العليا، فاختار لهولاء، ما يناسبهن من الشريعة الإسلامية وعلى ذلك كان اختياره في هذا الصدد لعيوب العروس التي تزف إلى عريسها، فيكون لهذا حق الرجوع على وليها ويعني بهذا عيوب الخلقة، من بخر ونحوه، وعيوبا أخرى يكون فيها حق الرجوع، لمن اشترى ماشية أو دواب، تمشي على الأربع. وهو ما شرعه الفقهاء الغلاظ الأكباد، والدين براء منه، في روح شريعته ومقاصدها، فصعقت لهذا الاختيار الغبي، الذي يجعل الزواج صفقة تجارية، تعمل بقول خليل «وصح بيعتكها»، فيا بعدا لهذه النظرة عن هدف الحقيقة الزوجية، خصوصا في هذا العصر، عصر التفتح للضياء، والاستنشاق للهواء...

وقد نعيت على نفسي، أني ذات يوم، وبدون مناسبة زجرية، قرأت على مجلس نسوي ﴿**واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن**﴾.

هذه في الواقع عملية جراحية لا تجرى إلا عند الضرورة القصوى، خصوصا الإجراء الأخير، بعد الأولين. فأي سكون يكون، بعد الضرب والهون حيث لا لزوم لذلك والمشكل مازال فيه مندوحة عن هذه الصرامة، التي يجب اتخاذها، عند العناد الحاد وركوب الرأس المضاد، الذي صرنا نجد في عصرنا، عصر الاستقلال الذاتي، القضية تنعكس، فيتلقى البعل لطمة صاحبته.

حدث في سنة 1956 للميلاد، أن سيدة ألمانية، عقدت معها جلسات عديدة، في تطوان، كانت محاويرها ترتكز حول الإسلام وقضاياه التي كانت تسترعي انتباهها، فتثير منها تساؤلات عديدة، توليت الإجابة عنها، بما اقتنعت بها، فأعلنت في نهاية الجلسات، إسلامها ببهو فندق «درسة» في تطوان، فأصبحت أختا في الإسلام، كما قالت، حفظها الله !

وعلى ذلك دعوتها إلى الدار، حيث كنت قد استدعيت عدلين شرعيين، لتلقي شهادة الإسلام منها، فكان ذلك وأخيرا سئلت عن الإسم الإسلامي الذي تختاره ـ حيث إسمها المسيحي «كرستين» فتوليت عنها هذا الاختيار، وقلت : ليكن «عائشة»، فالتفت إلي أحد العدلين (وهو الفقيه السيد محمد العثماني، قاضي تطوان فيما بعد، ثم العدل المتقاعد بها وقال لي : إن إسم عائشة، مستثقلة حروفه عند الأوربيين، فليكن غيره من الأسماء التي لا تستثقل لديهم حروفها نحو أمينة فأكبرت له هذه الالتفاتة الذكية الذواقة، حفظه الله ورعاه، وكثر من أمثاله (الذين لا يوجد منهم في عدولنا إلا رجلان إثنان).

لنعد إلى قواعد الإسلام وتلقينها، وما يجب في ذلك من مراعاة، تلتمس في «خطاب الناس على قدر ما يفهمون» أو «على قدر عقولهم» كما في الأثر، فأذكر بهذا الصدد، أن والدي ـ رحمه الله ـ كان قد منعني من حضور «نصاب» التوحيد، حينما صرت أتردد على «أنصباء» التعليم، التي كانت تلقى للعموم بالجوامع والمساجد. فلم يرسلني إلى حضور قراءة «المرشد المعين» إلا بعد نهاية موضوع التوحيد، وبداية فقه العبادة منه. وعليه، فإني ما حضرت

درس التوحيد إلا في القرويين، وعلى الفقيه سيدي عبد العزيز بن الخياط، رحمه الله وجزاه عنا خيرا.

فكان هذا الإجراء من الوالد، رحمه الله، هو عين الصواب، الذي نظر فيه بنور الله، كما نعته بذلك الفقيه الرهوني رحمه الله وأكرم مثواه.

والمهم أن الإسلام، قرآنه، شفاء لما في الصدور، كما وصفه،الله.وتعاليمه مما يراعى فيها،مراحل السنين للملقنين الناشئين. فإن التربية الإسلامية للأطفال، تراعيهم قبل الحلم وبعد الحلم. ويجب أن تساير القبلية والبعدية، بما يليق بمراحلها المتعاقبة ولا تهمل ملابساتها العديدة. والإسلام فيه من النظر إلى غور الأشياء، بحيث أنه لم يقف موقفا متصلبا، عند السنين المحددة للرشد، بالعدد، كما يفعل غير المسلمين، وقلدناهم أخيرا، بل ينظر، بعد البلوغ، إلى الإمكان والقبول، وحسن النظر والتصرف الرشيد. فلنستهد بهداية الإسلام، ولنعتز بهذه الهداية الإسلامية، الفريدة بين الأديان، ولنحط أولادنا وأفلاذ أكبادنا، بحياطة الدين القويم ولنحمهم من هذا البلاء، بل الوباء الذي عم العالم، وهدد بالفناء، فصرنا نعيش في عالم مرعب، هامت فيه البرية على وجوهها، وأصبح الجماهير سكارى وما هم بسكارى، بل هم أفظع من السكارى، تتقى شرورهم، غير المتعمدة، في المحافل وحتى الطرقات، بله الممرات... وهم مع هذا وذاك يرثى لهم، ويحسب لضحاياهم حسابهم...

فهل الآباء مستعدون، لحماية الأفلاذ، وهل المدارس، تقيهم شر الأفكار، وطائش الآراء والأقوال، فلا يسمعون من بعضهم، استهتارا، بنحو «مات الله ودفناه !» ولا «يفلسون» بالفلسفة الإسلامية وغير الإسلامية، وهم مازالوا براعم في المدارس، لا في الجامعات. وما «الفكر الإسلامي»، كما سمي، لهم بنافع في مراحل تلك التلمذة، وخير من ذلك «الفكر» التربية الإسلامية الحق، والدعوة إلى سبيل الله، بالحكمة والموعظة الحسنة كل ذلك في رفق ناعم بلا جدال جامد، لأن الناشئة في غير حاجة إليه، وهي مسلمة النشأة، لا ينصرها ولا يهودها من الآباء، مارد أو زائغ، بحمد الله.

رفقا بأولادنا أيها المربون، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المومنون، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والله على ما نقول شاهد وكيل.

محمد بن تاويت

علم صاحب المسيرة التاريخية إلى أقاليم الصحراء المغربية

الدكتور عثمان إسماعيل

علم مولاي الحسن الأول بمتحف دار الجامعي بمكناس

في النصف الثاني من شهر مارس لعام (1985) من ميلاد السيد المسيح حللت بمتحف دار الجامعي بمدينة مكناس عاصمة المولى إسماعيل العلوي بقصد الدراسة العملية ومتابعة النشاط الفني لمعرض المنحوتات الخشبية المنعقد بنفس المتحف وقت زيارتي.

وبهذه المناسبة أعدت النظر في مقتنيات المتحف بقاعاته المختلفة إلى أن استرعى انتباهي عَلَمُ مولاي الحسن صاحب المبادرة التاريخية بزيارة الأقاليم الجنوبية في كَوليميم ونواحي الساقية الحمراء ووادى الذهب منذ قرن كامل من الزمان قبل الزيارة التاريخية التي يقوم بها أمير المؤمنين الحسن الثاني إلى نفس الأقاليم الجنوبية للمملكة المغربية وقت زيارتي لمتحف دار الجامعي وتأملي (عَلَمَ الفتح) الذي يحمل نقشاً تاريخياً من عصر مولاي الحسن الأول.

ونقدم الآن بطاقة تعريف موجزة بمولاي الحسن الأول وأبرز معالم السياسة الداخلية والخارجية على عصره ثم تتبع ذلك بوصف العلم ودراسة نقوشه العربية مع ذكر إحصاءات سريعة لبعض ألفاظها الواردة بالقرآن الكريم للاعتبار وفائدة الباحثين.

مولاي الحسن الأول، بيعته وصفاته :

ذكر المؤرخ المعاصر الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي في موسوعته الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى بالقسم الثالث المتعلق بالدولة العلوية... أن أهل الحل والعقد وأعيان مراكش لما ـ توفى السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن ـ اجتمعوا على بيعة نجله أمير المؤمنين المولى أبى علي حسن لما توفر فيه من شروط الإمامة، وتكامل فيه من النجدة والشهامة والزعامة، ولما اتصف به من الفضل والدين... ولأن والده كان قد استخلفه في حياته....(1).

ونقل السلاوي عن أكنسوس : أنه لما توفى السلطان كان المولى حسن أيده الله غائبا عن الحضرة... فكتب إليه رؤساء الدولة بما حدث من موت السلطان واجتماع الناس على بيعته فقدم مراكش 27 رجب 1290 هـ (2).

وقد أشار الأستاذ عزيز سلام في كتابه (ثلاثة قرون وعشر سنوات من تاريخ الدولة العلوية) إلى أن مولاي

1) الاستقصا 128/1.

2) نفس المصدر والصفحة.

الحسن الأول كان ذا تجربة طويلة كخليفة لوالده بعد أن نال تكوينا خاصا من جده المولى عبد الرحمن (3).

حالة المغرب الداخلية والخارجية :

أوجز الأستاذ عبد العزيز سلام في كتابه المذكور أن المغرب ساعة اعتلاء السلطان الحسن الأول بعهد من والده المتوفى سنة (1873م) كان من الدول المتخلفة التي تعاني الفُرْقة والقلاقل والمناورات الأجنبية... ثورات مفتعلة، وحمايات ووصايات أجنبية، ومشاكل مترتبة على تلك الامتيازات... مما خلق جواً من الفوضى وتبعثر النفوذ الوطني مع ممثلي الدول الأجنبية ومن تربطها بهم علاقات خاصة... لقد كان الدافع الاقتصادي للتدخل الأجنبي وجهاً ظاهراً فقط بينما كانت الغاية القضاء على استقلال المغرب ووحدة ترابه (4).

هذا هو المغرب وقت اعتلاء مولاي الحسن الأول أحد الملوك العظام والقادة (5) الكبار... بيت يوشك أن ينقض من الداخل، فُرْقة وقلاقل وثورات مفتعلة..... ومحاولات عسكرية من الخارج... انجلترا واسبانيا وألمانيا وبلجيكا وغيرها تحيك المناورات لكسب مزيد من الوصايات والحمايات والامتيازات...

المنهج الاستراتيجي لمولاي الحسن الأول :

لقد لزم مولاي الحسن، قدس الله روحه، بعبقرية واقتدار، خطة العمل الوطني الاستراتيجي التي لزمها البطل صلاح الدين الأيوبي وجمهور القادة الكبار في تاريخ حضارة الإسلام وهي ضرورة ترميم البيت من الداخل وتوحيد القوى الوطنية وجمع الكلمة... استعدادا لمواجهة العدو الخارجي... لدرء الخطر، وبالتالي جلب المنفعة.

الفتن الداخلية وجهود مولاي الحسن لتحقيق الوحدة الوطنية :

ويكفينا في هذا المقام إيجاز بعض الإشارات الواردة بالعرض المفصل الذي أورده السلاوي في الاستقصا عن سلسلة الفتن والثورات التي واجهت مولاي الحسن ومبادراته لحسمها.

فبعد بيعته بمراكش نهض في الرابع من رمضان 1290 هـ قاصدا حضرة فاس...(6) واتصل به وهو في بلاد تامسنا خبر فتنة فاس... كما اتصل به خبر فتنة أهل آزمور... وأقام السلطان برباط الفتح إلى 22 شوال فنهض قاصدا مكناسة واتصل به خبر المولى عبد الكبير بن عبد الرحمن بن سليمان أطمعه شياطين... في الملك... فلما كان السلطان ببلاد بني حسن بلغه خبر القبض عليه....(7).

وأثناء مقام مولاي الحسن بمكناس أوقع ببني مطير وغيرهم واقتحم عليهم مواقعهم منتصف محرم 1291 هـ (8) ثم دخل فاس وأخمد فتنة أخرى....(9).

وكان بوجدة رجل يُدْعى أبو عزة الهبري من زعبة الهلاليين يخط الرمل ويتعاطى السحر ثار بأعمال وجدة وتبعه الأوباش فنهض السلطان من فاس منتصف رجب 1921 هـ وبات بآيت سغروشن فأغار على مكمنه أبو عزة الهبري وسعيد بن أحمد السغروشني فأوقع السلطان بهم وبمن لجأوا إليهم (10).

وفي شهر صفر 1293 هـ قدم عليه أبو عبد الله محمد الكنتافي صاحب جبل تينمال بعد أن أرسل ولده للسلطان بفاس يشرح قضيته (11)، فأكرمه السلطان وولاه على إخوانه كما كان شأن آبائه وأجداده منذ عهد الموحدين (12).

وفي منتصف جمادى الثانية 1293 هـ خرج السلطان من فاس وأناخ على قبيلة غياثة واقتحم حصنهم المعروفة بالشقة وهو خندق بين جبلين، وكان غياثة قد وضعت الكمائن على الأنقاب وشحنوها بالرماة وتركوا منفذاً واحداً

---

3) عزيز سلام : ثلاثة قرون وعشر سنوات، ص 114.
4) نفس المصدر ص 112.
5) كان مولاي الحسن الأول من القادة القدوة لمولاي الحسن الثاني منذ طفولته فكان سيدي محمد الخامس قدس الله روحه يناديه بقوله : (سميت سيدي) انظر كتاب (الحسن الثاني) لمؤرخ المملكة سيدي عبد الوهاب بن منصور.
6) الاستقصا 129/9، كان قد اشترط عامة أهل فاس وخاصة الدباغون، للبيعة، رفع المكس عنهم لكن الأمين الحاج محمد بن المدني بنيس استمر على قبض الوظيف من الأسواق والأبواب وغيرها... ثم كتب أهل فاس إلى السلطان وهو بتامسنا يتنصلون من فعلة بنيس ويرمون الغوغاء بالفتنة....
7) نفس المصدر ص 134.
8) نفس المصدر ص 135.
9) نفس المصدر ص 136.
10) نفس المصدر ص 142.
11) وظلم أحمد بن مالك وصيف السلطان.
12) نفس المصدر ص 146.

يفضي إلى مهواة متلفة ذات شقوق غامضة وأشجار شائكة وصخور متراكمة فشتتهم إلى رؤوس الجبال (13).

هكذا وجد السلطان مولاي الحسن الأول المغرب وكأنه بيت يوشك أن ينقض فأقامه ورمم صدعه وقوم بنيانه... وأقر الأمن وأعاد الوحدة الوطنية... وشمر عن ساعد الجد معتمداً على صلابة وسلامة الجبهة الداخلية ليواجه مع شعبه الموحد مخاطر المؤامرات والأطماع الخارجية.

التكوين العسكري والتجهيز وتنظيم الجيش :

كان المغرب رغم جهود السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن ـ مخترع المدفع ـ لا يتوفر على جيش للدفاع عن الوطن بسبب عدم التفرغ لمهنة الجندية، لهذا كان هدف مولاي الحسن الأول تكوين جيش مغربي بما يتطلبه من أطر عسكرية متطورة ونظم عصرية متميزة ليتمكن من حماية الوطن من كافة الأخطار الداخلية والأطماع الخارجية.

وفي هذا الاتجاه قام بتأسيس مدرسة مركزية للمدفعية بالجديدة وأرسل بعثات للتكوين الهندسي العسكري بالدراسة والتدريب في معاهد أوروبا وأمريكا، كما أوفد بعض المغاربة إلى مدرسة الهندسة العصرية في مونبيلي بفرنسا للتدريب على الأسلحة النارية وبناء التحصينات والخنادق وأجهزة الدفاع وصنع آلات الحصار (14).

لقد عمد مولاي الحسن الأول إلى تكوين المهندسين والحياسبة والميكانيكيين لتنفيذ مخططاته التطبيقية كدار السلاح بفاس ودار البارود بمراكش وأبراج المراقبة في كل ميناء ومرسى... وبالجملة صمم على تكوين نواة لجيش محترف لا عمل له إلا الجندية...

وهكذا نظم الجيش واستدعى كبار الضباط من الدول الصديقة لتدريب الجيش المغربي وبناء المصانع الحربية، وقد نقل عزيز سلام عن ابن زيدان أن (دار صناعة السلاح بفاس كانت على أبدع طراز فقد جلب إليها العملة والصناع من الديار الأوروبية وقد بدأ بناؤها سنة 1305 هـ وكان

13) الاستقصا 158/9.

14) ثلاثة قرون وعشر سنوات ص 120.

إنهاؤها سنة 1308 هـ) وكان بمراكش دار معمل للقرطوش ودار معمل لصنع البارود المزدوج (15).

الجنوب قبلة الحسن الأول والصحراء المغربية مقصد رحلته :

يحدثنا الأستاذ عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة المغربية في كتابه الجديد (ملف الصحراء المغربية أمام المؤتمر العشرين لمنظمة الوحدة الإفريقية) أن (الجيش الإسباني نزل سنة 1844م في لسان بحري بين المحيط الأطلسي وجون الداخلة... للانفراد باستغلال الثروات البحرية الموجودة بغزارة... ولم تمر عملية الإنزال العسكري الإسباني هناك بسلام، فإن السلطان مولاي الحسن احتج على إسبانيا احتجاجاً قوياً وأرسل قوة حربية لصد جنودها ومنعهم من التوغل في داخل البلاد...) (16).

ويروى الدكتور عبد الهادي التازي في مقال أخير بعض تفاصيل رحلة الحسن الأول تجاه الجنوب... فقد كان السلطان المنعم يتصدى بجد للمحاولات الأوروبية لاكتساب موضع قدم بنواحي كُوليميم ـ أو نول لمطة في رواية ابن حوقل ـ التي تغطي ناحية وادي نون وناحية باني الغربية والساقية الحمراء ومنطقة وادي الذهب.

وفي هذا الإطار كان تحركه منذ قرن من الزمان نحو وادى نون وكُوليميم.

وقد تحدثت تقارير البعثات الأجنبية بالمغرب إلى حكوماتها، حسب دراسة وتحقيق المؤرخ المغربي الدكتور عبد الهادي التازي، عن استعداد السلطان للرحلة إلى الجنوب المغربي وتجهيزه قطع الأسطول المغربي لنقل الزاد والعتاد من مرسى البيضاء والجديدة (17).

كما تناقلت كتب التاريخ عشرات الرسائل التي بعث بها السلطان إلى سائر بلاد المغرب لإذاعتها على أبناء الشعب يخبرهم بالمبادرة في شبه بلاغات إعلامية، ومن تلك الرسائل ما حمل تاريخ 1299 هـ للكشف عن سر

15) نفس المصدر ص 127/123.

16) عبد الوهاب بن منصور : ملف الصحراء المغربية أمام المؤتمر العشرين لمنظمة الوحدة الإفريقية بأديس أبابا المطبعة الملكية 1984 ص 14.

17) كُوليميم بين الأمس واليوم، دعوة الحق الرباط مارس 85 ص 40.

1

لا إله إلا الله

2

محمد رسول الله

4

ولسوف يعطيك ربك فترضى

5

فإذا عزمت فتوكل على الله

8

فالله خير حفظا وهو أرحم الراحمين

6

فتح من الله ونصر قريب وبشر المومنين

7

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

9

صنع عام أربعة وثلاثمائة وألف

فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم صدق الله العظيم

3

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما

[illegible]

تخطيط علم مولاي الحسن الأول بمتحف دار الجامعي (تخطيط توضيحي دون مقياس رسم)

القيام بتلك الرحلة الطويلة الشاقة وهو حماية ديار المسلمين والدفاع عن بلادهم ورقابهم وأموالهم مما طمحت إليه نفوس المؤمنين (18).

هذا هو مولاي الحسن الأول الذي وضع - بحق - تاجه فوق صهوة جواده طيلة أيام حكمه البالغة إحدى وعشرين عاماً جاب خلالها وطنه شرقاً وغرباً يمهد أحواله... ووصل شماله بجنوبه يوحد ترابه، يطفئ لظى الفتنة المفتعلة بالداخل، ويدافع الطامعين من الخارج... يحصن الوطن ويدعمه ويحمي الحما ويكون الجيش ويطوره... ويرفع علم الجهاد وراية الفتح فوق الحصون والثغور إلى أن لقي ربه مرابطاً ومجاهداً.

علم مولاي الحسن الأول بمتحف دار الجامعي بمكناس :

وصف علم مولاي الحسن الأول :

والعلم المحفوظ بمتحف دار الجامعي بمدينة مكناس مستطيل الشكل منسوج بخيوط الحرير يحف به شريط كتابي بالخط النسخي المغربي من جهاته الأربع.

وهذا هو نص النقش الكتابي بمساحة العلم الجانبية والداخلية قرآنية كانت أو تأسيسية :

أولا : القسم الخارجي :

الركن الأيمن من أعلى : تقرأ به عبارة (لا إله إلا الله) **رقم 1 بالرسم.**

الركن الأيسر من أعلى : تقرأ به عبارة (محمد رسول الله) **رقم 2 بالرسم.**

هذا مع العلم أن القسم الأوسط بينهما ظل عاطلاً من الكتابة أو الزخرفة.

الركن الأيسر أسفل الشريط العلوي : تبدأ المعوذة تليها الآيتان الاخيرتان من سورة التوبة مقسمة على بقية الإطار الخارجي على النحو التالي :

القسم الأيسر : **﴿أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما﴾ رقم 3 بالرسم.**

القسم السفلي المتعرض : **﴿عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ تابع رقم 3 بالرسم.**

القسم الأيمن : **﴿فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم صدق الله العظيم﴾. بقية رقم 3 بالرسم**

ثانيا : المساحة الداخلية :

تتوزع بالمساحة الداخلية خمسة أشكال هندسية عبارة عن أربعة مربعات متساوية المساحة قرب الأركان، ويتوسط العلم شكل دائرة هندسية واحدة مركزية. وقد شغل كل من تلك المساحات نص قرآني مستقل، ثم نسج أسفل ذلك كله سطران من الكتابة التاريخية (التأسيسية) من خمس كلمات،

وقراءة نصوص المساحات الموزعة بالمتن جاءت كما يلي :

المربع الأعلى يميناً : سطران من الكتابة النسخية على هذا النحو : **رقم 4 بالرسم.**

1 - ولسوف يعطيك.

2 - ربك فترضى.

المربع الأعلى يساراً : سطران من الكتابة النسخية على هذا النحو : **رقم 5 بالرسم.**

1 - فإذا عزمت فتوكل

2 - على الله

المربع الأسفل يميناً : ثلاثة أسطر على هذا النحو : **رقم 6 بالرسم.**

1 - فتح من الله

2 - ونصر قريب.

3 - وبشر المؤمنين

المربع الأسفل يساراً : ثلاثة أسطر على هذا النحو : **رقم 7 بالرسم.**

1 - لا حول ولا قوة

2 - إلا بالله.

3 - العلي العظيم.

الدائرة الوسطى : ثلاثة أسطر على هذا النحو : **رقم 8 بالرسم.**

1 - فالله

2 - خير حفظا.

18) نفس المصدر بمقال الدكتور عبد الهادي التازي ص 42.

3 ـ وهو أرحم الراحمين.

النص التاريخي أسفل المربعين الأسفلين : سطران من الكتابة النسخية التأسيسية نصهما :

1 ـ صنع عام أربعة.

2 ـ وثلاثمائة وألف : **رقم 9 بالرسم.**

إحصاء بعض ألفاظ نصوص علم مولاي الحسن الأول كما وردت بالقرآن الكريم :

1 ـ (لا إله إلا الله) :

قال تعالى : **﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو﴾** القصص آية 88 لفظة (إله) وردت بالقرآن الكريم (80 مرة)، انظر المعجم المفهرس (19) ص 39/38 لفظة (الله) وردت بالقرآن الكريم (980 مرة)، المعجم المفهرس ص 75/40.

2 ـ (محمد رسول الله) : وردت (محمد) مرتين : **﴿وما محمد إلا رسول﴾** آل عمران 132 **﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء﴾** الفتح آية 29. لفظة (رسول) وردت بالقرآن الكريم (196 مرة)، المعجم المفهرس ص 316/134 مشتقات (رسول) :

الرسولا، وردت مرة واحدة بسورة الأحزاب آية 66.

رسولا، وردت 23 مرة ـ رسولكم وردت مرتين ـ رسولنا، وردت 4 مرات ـ رسوله وردت 84 مرة ـ رسل 4 مرات ـ رسلا وردت عشر مرات، انظر المعجم المفهرس ص 320/316.

3 ـ ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ : سورة الضحى آية 5، المصحف المفهرس ص 321 (ترضى) وردت 4 مرات، رضى ومشتقاتها بالمصحف المفهرس ص 322/321.

4 ـ ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ : سورة آل عمران آية 159.

ومشتقات لفظة (عزم) هي :

(فإذا عزم الأمر)، سورة محمد آية 21.

(وإن عزموا الطلاق)، سورة البقرة آية 227.

(ولا تعزموا عقدة النكاح)، البقرة 235.

(فإن ذلك من عزم الأمور)، آل عمران 186.

(إن ذلك من عزم الأمور)، لقمان 17.

(إن ذلك من عزم الأمور)، الشورى 43.

(كما صبر أولوا العزم) الأحقاف 35.

(ولم نجد له عزماً) طه آية 115، انظر المعجم المفهرس ص 461.

5 ـ ﴿فالله خير حفظا وهو أرحم الراحمين﴾ : سورة يوسف آية 64.

وردت (حفظ) ومشتقاتها بالقرآن الكريم (46 مرة)، انظر المعجم المفهرس ص 208/207.

6 ـ ﴿فتح من الله ونصر قريب وبشر المؤمنين﴾ : سورة الصف آية 13.

وردت (فتح) ومشتقاتها بالقرآن الكريم (39 مرة)، انظر المعجم المفهرس ص 511/510 وردت (نصر) ومشتقاتها بالقرآن الكريم (112 مرة)، انظر المعجم المفهرس ص 704/702.

وردت (مؤمنين) بالقرآن الكريم (114 مرة)، انظر المعجم المفهرس ص 92/90.

7 ـ ﴿لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم﴾ :

وردت (قوة) بالقرآن الكريم (28 مرة)، انظر المعجم المفهرس 588/587.

وردت مشتقات (قوة) بالقرآن الكريم (13 مرة)، المعجم المفهرس ص 588.

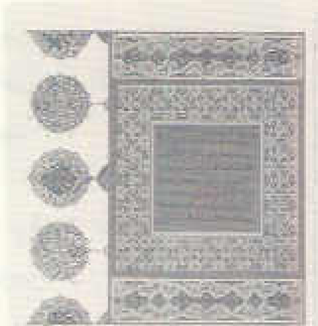
8 ـ ﴿لقد جاءكم رسول...الآية﴾ : سورة التوبة آيتان 128 و 129.

وردت (رسول) بالقرآن الكريم (196 مرة)، ص 316/314 من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم من وضع محمد فؤاد عبد الباقي.

وهكذا، كان القرآن الكريم حصن الله الحصين مرفوعاً فوق لواء المؤمنين المجاهدين، منذ قرن من الزمان، في مسيرة مولاي الحسن الأول إلى الصحراء المغربية... كما ظل القرآن الكريم من بين أيدينا ومن خلفنا ومن حولنا في مسيرة الحسن الثاني الداخل بسلام لإحياء موات صحرائنا الجنوبية.

دكتور عثمان عثمان إسماعيل

19) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار احياء التراث العربي، بيروت.






● للأستاذ الحاج أحمد أفزاز

رئيس المجلس العلمي الاقليمي لوجده وفكيك
والرئيس الأول لمحكمة الاستئناف بوجدة

لقد اراد الله عز وجل ان يكون محمد بن عبد الله خاتم النبيئين وآخر المرسلين وبوفاته انقطع الاتصال بين الارض والسماء عن طريق الوحي ولم يبق على المكلفين الا العمل بالمعجزة الكبرى الخالدة التي تركها بعده وهي كتاب الله عز وجل.

القرآن شرع في نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مكة بعدما مضت على حياته اربعون سنة للاستعداد للرسالة، واذا كان طابع القرآن المكي له هدف غالب وهو تطهير العقيدة من الشرك وتخليصها من استعمار الاصنام والأوثان لها فان القرآن المدني جاء ليضع الاسس العامة للحياة الاسلامية ولحياة المسلم مع ربه ومع نفسه ومع محيطه.

في المدينة المنورة طيب الله ثراه بدأت الحياة الاسلامية على نمط جديد وبدأ القرآن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحدد معالم الطريق ومنهاج الحياة للعرب وحدهم ولكن لجميع البشر: «وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا» الآية 28 من سورة سبأ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم وما ينزل عليه من وحي هو المرجع في امور المسلمين عقيدة وعبادة وسلوكا ومعاملة وأدبا وأخلاقا وسلطة وممارسة، ووصف الله القرآن بهدايته للطريق المستقيم بقوله تعالى : «ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم».

هذه الآية جاء رقمها التاسع من سورة الاسراء ومناسبة ربطها بما قبلها ان الله عز وجل بعدما ذكر من اختصه بمعجزة الاسراء وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقله من مكة الى بيت المقدس حيث موقع تجمع الأنبياء عليهم السلام وكان هذا في الآية الاولى للسورة «سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى» ثم تحدث القرآن على بعثة موسى وتنزيل التوراة عليه لهداية بني اسرائيل «وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل» غير ان بني اسرائيل شاء الله ان تكون حياتهم الافساد والعتو في الارض ونهايتهم، ويذكر القرآن هذا تبعا لآية الاسراء «وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض».

وبما ان بني اسرائيل بعث الله اليهم نبيه موسى ومعه التوراة ليهتدوا به فاعرضوا عنه، فهذا هو القرآن الذي جاء ليهيمن على جميع الكتب السماوية السابقة وليكون هداية للناس جميعا، فقال الله تعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم.

فالسياق واحد والحديث متسلسل ومرتبط وهو من الاعجاز القرآني فقد ظل القرآن ينزل ثلاثا وعشرين سنة وكل آية تنزل بمناسبة خاصة وفي ظروف خاصة، فتوضع في السورة والمكان المناسب لها فيها لترتبط بما قبلها ولتكون مقدمة لما بعدها، ومن يقرأ القرآن يتدبر في هذا الجانب من العلم القرآني يجد في النهاية ان ترتيب القرآن جاء وكأنه نزل دفعة واحدة في تناسق وانسجام بين الآيات وبين السورة.

لفظ القرآن من الناحية اللغوية مصدر مرادف للقراءة، ثم نقل من المعنى المصدري وجعل اسما لكلام الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، هذا ما اختاره الشيخ محمد الزرقاني في كتابه مناهل العرفان لاصل لفظ القرآن.

ويقال للقرآن : فرقان ايضا، واصله مصدر كذلك سمي به من باب تسمية للمفعول بالمصدر، ولانه كلام فرق بين الحق والباطل، قال تعالى في سورة الفرقان الآية الاولى «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا».

وهذان الاسمان هما المشهوران القرآن والفرقان، وتليهما هذه الاسماء : الكتاب والذكر والتنزيل واوصل الفقهاء اسماء القرآن الى 55 اسما والبعض الآخر الى اكثر من تسعين.

وقد اختلف علماء المسلمين في عمق تحديد معنى القرآن اصطلاحا فرأى المتكلمون منهم «انه الصفة القديمة المتعلقة بالكلمات الحكيمة في اول الفاتحة الى آخر سورة الناس.

ويرى الاصوليون والفقهاء ان القرآن هو كلام الله المعجز المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته.

وهكذا اعطى علماء الاصول والفقهاء لمعنى القرآن العناصر الخمسة التالية : اعجاز ــ تنزيل على الرسول ــ كتابة في المصحف ــ نقل بالتواتر ــ تعبد بالتلاوة، وهي الخصائص التي امتاز بها كتاب الله عز وجل عن سائر الكتب، وبذلك اصبح لفظ القرآن علم شخصي مدلوله الآيات الممتازة بخصائصها العليا التي تبدأ بالفاتحة وتنتهي بنهاية سورة الناس.

وقد اهتم العلماء بكتاب الله العزيز يدرسونه على عدة مظاهر وصور، فنشأ ما يسمى بعلوم القرآن وتضم علم التفسير والاعجاز وعلم النزول والناسخ والمنسوخ وعلم اللغة القرآنية وغير ذلك كما نشأ علم القراءات المتعلق بالرسم العثماني من ناحية كتابة الكلمات وبالمسلك الصوتي وكيفية الاداء والادغام والاقتحام والاحالة وغير ذلك.

وتركز علم القراءات على دراسة السبع المشهورة:
1) قراءة عبد الله كثير، وهي قراءة مكية، (2) وقراءة نافع بن عبد الرحمان وهي قراءة مدنية واليها تنسب القراءة الورشية الفرنسية، (3) وقراءة عبد الله بن عامر المتوفى في دمشق (4) قراءة ابي عمرو زبان بن العلا عمار البصري،(5) وقراءة ابي بكر عاصم بن ابي النجود وتوفي بالكوفة، (6) وقراءة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي ايضا،(7) القراءة السابعة لابي الحسن علي بن حمزة الكسائي اللغوي النحوي الكوفي ايضا.

هؤلاء القراء السبعة اشتهرت قراءتهم بين المسلمين على اعتبار انها كلها منقولة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتواتر ويرجع سبب اشتهار هؤلاء السبعة ان الناس بدأوا يسمعون قراءة القرآن على انماط واشكال من القراء اختاروا من اشتهر منهم بالفقه والامانة وحسن الدين وكمال العلم وصدق الاداء وكل هذه القراءات ملتزمة بالمصحف العثماني.

ثم اتسع علم القراءات فصنفت الكتب في نقط المصاحف وفي ضوابط الرقف وقواعد التجويد، وهذا العلم لا يوجد عند اي امة من الامم القديمة والحديثة وبقي خاصا بالامة الاسلامية، وبكتابها المنزل، وبهذه العلوم والدراسات القرآنية سيبقى كتاب الله عز وجل خالدا محفوظا لفظا ولغة ورسما واداء وصوتا كما قرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام بتعلم من الله عز وجل.

وينقسم القرآن في احد تقسيماته الى قرآن مكي، وقرآن مدني، وللتمييز بين النوعين اختلف العلماء الى ثلاثة فرق:

1) فريق ينظر الى المكان، فيقرر ان ما نزل بمكة وضواحيها يعتبر مكيا، وما نزل بالمدينة وضواحيها يعتبر مدنيا.

2) وفريق ثاني يقرر ان المكي ما كان فيه الخطاب موجها لاهل مكة ويبدأ بيأيها الناس او يا بني آدم، والمدني كان فيه الخطاب موجها لاهل المدينة ويبدأ بيأيها الذين آمنوا عادة.

3) والفريق الثالث يميز بين المكي والمدني بمعيار زمني مستقر فيقرر ان ما نزل قبل الهجرة يعتبر مكيا ولو نزل خارج مكة، وما نزل بعد الهجرة يعتبر مدنيا ولو نزل في مكة نفسها، ومن هذه الحالة الاخيرة قول الله في الحجرات (13) «يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم»، هذه الآية نزلت بمكة المكرمة يوم الفتح، ومنه قول الله تعالى في سورة المائدة : «اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا»، فانها نزلت بعرفات يوم الجمعة او حسب المعيار المذكور فان الآيتين وما بعدهما من القرآن المدني لانهما نزلتا بعد الهجرة ولو ان المكان مكة وضواحيها.

وقد اشتهر بين المهتمين بالعلوم القرآنية هذا الرأي الثالث وعلى اساسه يجري الحديث عن القرآن المكي والمدني.

وقد شرف الله القرآن بان جعل له تنزلات ثلاثة:

1) التنزيل الأول من عند رب العزة الى اللوح المحفوظ وفيه يقول الله عز وجل في سورة البروج الآية (21)«بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ».

2) التنزيل الثاني كان الى بين العزة في السماء الدنيا في زمن ومكان لا يعلمه الا الله والدليل عليه قول الله تعالى في سورة البقرة الآية 185 «شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن».

3) التنزيل الثالث للقرآن هو المرحلة الاخيرة وتم بواسطة جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب الظروف والاحداث هداية للناس وتنظيما لحياتهم مع الله ومع انفسهم ودليله قول الله تعالى في الآية 193 من سورة الشعراء «نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين».

وهداية القرآن للناس وارادة في قول الله تعالى في الآية التي هي موضوع هذا ــ الحديث، ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم، والهداية مصدر هداه يهديه هديا وهداية وهدى وهدية، والهداية في تعريفات الشيخ الجرجاني هي الدلالة على ما يوصل الى المطلوب.

ولفظ «التي» الواردة في الآية اسم موصول صفة الموصوف محذوف اي الطريقة او الشريعة او الحالة او الملة التي هي اقوم.

وكلمة «اقوم» وردت على صيغة افعال التفضيل وهي في الاصل الصيغة التي تدل على المشاركة في الصفة، ويقضي هذا ان تكون هناك شريعة اخرى قيمة كذلك، الا ان الشريعة الاسلامية اقوم منها، ولهذا يرى علماء التفسير ومنهم ابي حيان ان صيغة التفضيل في الآية ليست على حقيقتها وانه لا يشارك الشريعة الاسلامية شريعة اخرى قبلها وتفسر كلمة اقوم بالشريعة القيمة كما قال تعالى «ذلك الدين القيم وبالشريعة المستقيمة المعتدلة».

والايمان في اللغة هو التصديق بالقلب، وفي الشرع الاعتقاد بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالجوارح ويقسمه العلماء الى خمسة اوجه، الايمان المطبوع، وهو ايمان الملائكة والايمان المعصوم وهو ايمان الانبياء والايمان المقبول وهو ايمان المؤمنين والايمان الموقوف وهو ايمان المبتدعين، والخامس الايمان المردود وهو ايمان المنافقين.

هذه معاني القرآن والهداية والايمان التي وردت في الآية.

والمفهوم من هذه البيانات اللفضية ان الكتاب المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يدل الناس على الطريق المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ويبلغهم الى الغاية التي يهدفون اليها.

وكلمة «يبشر» قرئت بضم الياء وتشديد الشين المكسورة وقرئت «يبشر» بفتح الياء وضم الشين المخلفة، وهي قراءة حمزة والكسائي، ولغة يقال بشرته وابشرته وبشرته وبشرته ولهذا جاء المضارع مضموم الياء ومفتوحها، ومضموم الشين ومكسورها ومفتوحها.

ومفهوم كلمة البشارة الواردة في هذه الآية اختلف المفسرون في مدلولها واستعمالها حقيقة او مجازا او جاء هذا الاختلاف في العطف عليها في قوله تعالى «ان الذين لا يومنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا اليما» في باب عطف الجمل بعضها على بعض.

1)فمن يرى ان البشارة هي الاعلام بما يبشر، وان مقابل معناها هو الانذار والوعيد، فسر الآية بتفسيرين وذلك بسبب حرف العطف الوارد في «وان الذين لا يومنون.

التفسير الاول ان الله عز وجل ادخل السرور والفرح على المومنين بشيئين : بالاجر الكبير لهم وبان اعداءهم اعد لهم العذاب الاليم فيكون السرور حصل من الامرين معا للمومنين.

2) والتفسير الثاني ان مدلول البشارة في حق الذين لا يومنون هو من قبيل التهكم، لان الشخص المخبر بان الجزاء المعد له هو العذاب الاليم لا يدخل عليه السرور وانما يدخل عليه الحزن فهي في محل الانذار والوعيد.

3) وفسر آخرون كلمة «يبشر» بمعنى الاخبار والاعلام فقط.

فالله عز وجل يخبر المومنين بان لهم الاجر الكبير ويخبر غيرهم بان لهم العذاب الاليم، وبهذا التفسير لا تكون للبشارة في حق المؤمنين معنى مغاير لها في حق غيره، ما دام مفهومها اللغوي هو مجرد الاخبار.

4) وفريق ثالث من المفسرين يرى ان كلمة البشارة من كلمات الاضداد فتطلق بمعنى الفرح والسرور وبمعنى الالم والحزن حقيقة، ففي حق المؤمنين يكون معناها الفرح وفي حق الكافرين يكون معناها الحزن والالم.

والايمان في اللغة هو التصديق بالقلب لاي شيء، وشرعا هو الاعتقاد بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالجوارح لمنهج الله عز وجل، ويقسمه العلماء الى خمسة اقسام:

الايمان المطبوع وهو ايمان الملائكة
والايمان المعصوم وهو ايمان الانبياء
والايمان المقبول وهو ايمان المؤمنين
والايمان الموقوف وهو ايمان المبتدعين
والخامس الايمان المردود وهو ايمان المنافقين.

فهذه، جملة من الشروح لبعض الكلمات البارزة في الآية الكريمة وهي كلمات القرآن والهداية والبشارة والايمان.

والمفهوم من هذه البيانات اللفظية ان الكتاب العزيز المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل الناس ويرشدهم الى الطريق المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ويبلغ بهم الى الغاية التي يهدفون اليها وهي السعادة في الدنيا وفي الآخرة فمن تبع هديه فاز في الحياتين، ومن انحرف عنه كان من الخاسرين.

ويكون الله عز وجل مدح كتابه الكريم ووصفه بثلاثة اوصاف:

1) انه يرشد من تسمك به الى اقوم منهج وافضل سبيل لتطهير اعتقاده واليقين بان الله واحد لا شريك له وانه صاحب الملك والملكوت يفعل في ملكه ما يشاء، ويتصرف فيه حسبما يريد لا يسأل عما يفعل.

2) وصف الله القرآن كذلك بانه يبشر المؤمنين الذين توفر فيهم الشرطان : الشرط الاول العمل، فالمؤمن غير العامل الذي يقتصر على الادعاء بالايمان قولا فقط هذا لا يبشره القرآن ولكن ينذره بالتقصير لان ايمانه مبتور، والشرط الثاني ان يكون العمل صالحا، فليس كل عمل الايمان يكون جزاه الاجر والجنة ولكن العمل الصالح هو الذي ينال هذه الجائزة والمؤمن الذي يعمل الصالحات هو الذي يتبع منهج الله فيما امر به فيفعله وفيما نهى عنه فيتجنبه وهو الذي يراه الله حيث يحب ويرضى، ويفقده حيث يكره ويقضا، وقد يعدد عن الانسان الغير المؤمن العمل الصالح من فعل للخير ومديد المساعدة للضعيف ولكن هذا العمل لا ركيزة ولا اساس له وبالتالي فهو مقطوع.

3) الوصف الثالث الذي وصف الله به كتابه انه ينذر الذين لا يومنون بالله ورسوله وكتبه واليوم الاخر، فيشركون معه غيره في التصرف والملك، فلا يفعلون ما أمر به ولا ينتهون عما نهى عنه.

وهذا من العدل الالاهي بالانسان فمن آمن وعمل صالحا كان له اجر كبير جزاء له على مجهوده وجهاده الاعتقادي والعملي ومن لم يومن لا يهمل ويترك خارج الدائرة ولكنه يجازى كذلك على عدم ايمانه بالعذاب الاليم، وقد ترافقه الشقاوة في الدنيا والآخرة.

وانما ورد التعبير في الآية بحصر عدم الايمان بالآخرة فقط باعتبار ان مظهر الايمان بالحياة الآخرة والحساب فيها عن الاعمال الحسنة والافعال السيئة هو المحقق للايمان الكامل، فاكثر اليهود الذين جاءت الآية لشرح احوالهم كانوا يومنون بالله وبرسالة موسى الا ان اغلبهم لم يكن يومن بالثواب والعقاب الجسمانيين في الآخرة، وبعضهم كان يقول لن تمسنا النار الا اياما معدودات، فهم في حكم المنكر للاخرة وبذلك فقدوا الايمان الكامل فاستحقوا العذاب الاليم.

ان هذا القرآن الذي قال الله فيه يهدي للتي هي اقوم لم يذكر الله عز وجل من يهديهم وفيما يهديهم فكان هذا الاطلاق شاملا لا حدود له في العمل ولا حدود له في الانسان ولا حدود له في الزمان والمكان.

فكل منهج فيه خير وصلاح بالمعيار القرآني هو منهج يهدي اليه الله وكل انسان في هذا الكون موجه اليه القرآن ليهتدي به وليكون طريقه للعمل في الحياة.

وكل زمن من الازمان اللاحقة لنزوله يصلح له القرآن لينظم مسيرته الحضارية فلا تعقيد ولا طقوس، توجه مباشر الى الوحدانية فيدخل الانسان من بابها الى ساحة السعادة فاذا به يجد نفسه في عمل صالح بناء يحبه ويندمج معه ويرتقي به الى مرتبة الصفوة.

2) وسلوك الانسان البشري يبقى في مستوى بشريته، فينسق القرآن بين ظاهره وباطنه ويجعل قاعدته الاخلاص لله عز وجل فاذا به كله في مستوى العبادات، يأكل ما احل الله له للمحافظة على طاقته واتباع ما امر الله به فيكون عمله عبادة، يستمتع بما احل الله له فتكون له الحسنة بعشر امثالها، وفي هذا هداية للاقوم.

3) عندما يعمل الانسان في بداية العبادة يجد موازنة كاملة بين طاقته وما وقع التكليف به، في الطهارة يكتفي بلمسة حجر او تراب عند فقد الماء او عدم استطاعة استعماله وفي الصلاة اذا لم يستطع الوقوف صلى قاعدا واذا لم يقدر صلى مضطجعا في الحالة القصوى يصلي بالايماء اذا مرض او سافر في رمضان حل له الاكل والشرب ليدفع المرض عنه ويتقوى على مشقة السفر فلا مشقة في التكاليف حتى تمل نفس الانسان، ولا سهولة في التطبيق حتى لا تستهتر النفس وتصير تتلاعب بالالتزامات وهذا ما هدى اليه القرآن في شريعة الله القيمة.

4) ⋅لاقة الانسان مع اخيه، فهي علاقة الانسان مع غيره من المسلمين يضع القرآن القاعدة الشاملة في قوله تعالى «انما المومنون اخوة» ويقول في آية اخرى «فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين» ويقول صلى الله عليه وسلم «المسلم اخ المسلم لا يظلمه ولا يسلحه» وفي حديث آخر رواه البخاري «والله في عون العبد ما دام العبد في عون اخيه» وفي حديث آخر صحيح «مثل المومنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد بالحمى والسهر» المومن للمومن كالبنيان يشد بعضه بعضا» هذه اصول علاقة الاخوة بين المومنين التي تضعها الشريعة الاسلامية ويهدي اليها القرآن وما اصاب المسلمين الوهن والضعف الا في نبذهم للتواصل والتراحم والاخوة الاسلامية.

4) علاقة الانسان مع اسرته، يهدي القرآن الى القاعدة التالية: «ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسلكوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة» (21) سورة الروم، فالسكون والراحة والمودة والرحمة هي اساس العلاقة الاسرية، وينظم القرآن علاقة الانسان باهله بعد وفاته « يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين».

6) في المعاملات الدينية يقرر القرآن حلية البيع «واحل الله البيع» وينظم العلاقة بواسطة اشهاد يتم بين الطرفين «واشهدوا اذا تبايعتم» سواء كان البيع بالدين او بالاداء ويجب بيان اجل الدين «ياايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه» وان كانت المعاملة تجارية فلا مانع من عدم الكتابة حتى يسهل عملية تداول الاموال بين التجار «الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها.

7) وفي باب التكافل الاجتماعي والتعاون يرسم القرآن اسسه

العامة «يايها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم» «يايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم» فاذا بلغ المال قدرا معنيا ومضت عليه المدة الزمنية المحددة، اخذ المال للانفاق ولو بالقوة «خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها» وروى الطبراني في الاوسط والصغير عن علي كرم الله وجهه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

«ان الله فرض على اغنياء المسلمين في اموالهم بقدر الذي يشبع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء اذا جاعوا او عروا الا بما يصنع اغنياءهم، الا وان الله يحاسبهم شديدا ويعذبهم عذابا اليما» وهذا من هدي القرآن والشريعة السمحة.

8) وفي باب التنظيم الاقتصادي يؤسس الاسلام قواعد ثابتة ويحدد دعائم يجب البناء عليها لكل جهد اقتصادي في الاسلام يهدف الى تحقيق التنمية الشاملة.

أ) نظام الملكية المزدوجة، فاذا كان النظام الرأسمالي يعتمد على الملكية الخاصة ولا يعترف بالملكية العامة الا على سبيل الاستثناء، واذا كان النظام الاشتراكي يقوم على اساس ان الملكية العامة او الجماعية للدولة وهي المبدأ العام وتعتبر الملكية العامة او الجماعية للدولة وهي المبدأ العام وتعتبر الملكية الخاصة في نظره شذوذا يجب حصر نطاقه فان الاقتصاد القرآني او المنهج الاقتصادي الاسلامي يقوم على اساس ازدواج الملكية ولا يجعل احدهما استثناءا والآخر اصلا، لكنه يحدد ميدان الملكية العامة ويترك للملكية الخاصة ميدانا آخر، ولا يصح ان نقول ان النظام الاقتصادي جمع بين الرأسمالية والاشتراكية ولكن يجب ان نعتبر ان الاسس الاقتصادية الاسلامية تقوم على الدعامتين معا الملكية العامة والملكية الخاصة، واذا طغت احداهما على الاخرى وجب تقويمها.

2) حرية اقتصادية مع الالتزام بخشية الله ومراقبته والوقوف عند احكامه، فالربح الفاحش ممنوع وتربية المسلم الذاتية هي التي تفرض عليه هذا الالتزام والغش في المواد التجارية غير مقبول «ليس منا من غشنا» والتعامل بالربا حرام «واحل الله البيع وحرم الربا» فحرية التاجر الاقتصادية مكفولة ولكن عليه ان يتعامل معها ضمن احكام الشريعة الاسلامية.

3) واخيرا يقوم الاقتصاد الاسلامي على اساس مبدأ العدالة الاجتماعية والتكافل والتضامن العام.

فالعمل والمجهود الفردي يعتبر سببا رئيسيا في امتلاك الاموال الثابتة والمتحركة ولهذا يدعو الاسلام الى العمل ويحث عليه بل ويجعله واجبا على المومن حتى يملك قدرا من المال يمكنه معه ان يقوم باداء الزكاة عنه فيصبح بذلك معطيا لا آخذا، واذا التزم كل مسلم بالعمل والكسب الحلال والوصول الى درجة الانفاق بالزكاة انعدمت او كادت مظاهر الفقر بين المسلمين، واصبح الناس يحملون الزكاة فيبحثون ولا يجدون من ياخذها.

وبما ان المجتمع الاسلامي هو مجتمع بشري فيه العاجز والمريض وصاحب الحاجة الا ان الالتزم بالعمل يقلل من هذا العبء ويجعل اموال الكفالة العامة تفيض عن حاجيات هذه الطائفة، وكل هذه الاسس تدخل فيما يهدي اليه القرآن وفيما يرشد اليه ويدل عليه «ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم».

وبالقاء نظرة عامة على الشرق والغرب نتأكد من افلاس نظامها الاقتصادي في العصر الحالي لقيامه على اسس ومبادىء وقواعد تعتمد على التفكير البشري وهو ناقص ولو بلغت درجته من السمو ومعرض للاهتزاز والاضطراب كلما تغيرت الظروف، ويكفي لاسقاط النظامين معا ان كلا منهما يحارب الاخر ويدعي انه افضل لتحقيق كرامة الانسان ولم يصل احد منهما الى هذه الغاية ولن يصلها الا نظام لا يقوم على الرأي والهدى ولا يميل مع المودة والغضب وانما ينظر لما يصلح للناس اليوم وغدا فيهديهم الى فعله، وما يضرهم فيهديهم الى اجتنابه والعالم بهذا هو الله عز وجل وهو وحده الذي يجب اتباع منهجية دون غيره لضمان السعادة الحياتية.

ان القرآن الكريم هو صوت الحق الذي قامت به وعليه السماوات والارض، وهو هداية الله للحياة كلها في الدنيا والاخرة. ويكون اساس حضارة انسانية كاملة وشاملة غيرت معالم التاريخ في اقصى مدة من الزمن نقلت العربي الجاهلي الذي كان يدفن ابنته حية الى المومن المسلم الذي يفتح المدن والامصار وينشر مبادىء العدل والمساواة ويعتبر نفسه مسؤولا لا عن اعالة المسلم فقط او تمهيد الطريق له، بل ذلك عن تسوية الطريق حتى للبهيمة لكي لا تتعثر في حجرة او تقع في حفرة.

ان القرآن الذي يهدي للتي هي اقوم لم يكتف بوضع اسس الحياة الاسلامية وانما وفر للنهضة الاسلامية عناصر الوجود والبقاء والكمال، عندما ربط واحكم الربط بين المسلم وبين ربه وجعل عمله تحت مراقبته المباشرة قبل مراقبة احد من خلقه، فكل جيل ياتي يعلن لنفسه قول الله تعالى « قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك امرت، وانا اول المسلمين» الانعام 162 و 163.

ويقرأ قول الله تعالى «فاستقم كما امرت» فيعتبر الخطاب موجه له من الله مباشرة فلا يجد لنفسه سبيلا الا منهج الله.

وهكذا سيبقى الاسلام المثل الاعلى للنظام الانساني والنموذج الاسمى للحياة البشرية وموجه الاسلام الصحيح التي بدأ ينشرح لها صدر كثير من علماء الغرب في الوقت الحاضر تعطي الدليل لمن كان في قلبه شك في القرآن ومنهجه على ان الدين عند الله الاسلام، ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه، وهذا ما يهدي اليه القرآن.

احمد افزاز.

المدن الثقافية الإسلامية

1

للدكتور محمد كمال شبانه

نشأتها وبواعثها :

لقد كان لنشوء المدن الثقافية الإسلامية على مر التاريخ ارتباط بقيام الدول وتأسيسها، فكان لكل دولة منذ تأسيسها مركز للحكم أو عاصمة، حيث كان من الضروري وقتئذ إضفاء الهيبة على الدولة الناشئة في نفوس القوم، ويتحقق هذا بإحاطتها بالأسوار الحصينة المنيعة، وما يتخلل المدينة من منشآت عمرانية، ومرافق عامة، مما يشيد بعزة السلطة ومناعة الدولة. يضاف إلى هذا الهدف الأساسي لفت أنظار بقية شعوب المناطق المحيطة بها إلى قدر العاصمة وعزة سلطانها، فعنها تصدر الظهائر وتنشر القوائيد، فيستشعر عامة الناس بالتبعية النفسية، ويكون رد الفعل تبعا لذلك الإجلال والتقدير.

وهكذا تصير العاصمة رمزا للدولة، وقاعدتها العتيدة، بحيث ترقى إلى مقام الزعامة السياسية والثقافية، فسرعان ما تستقطب خيرة رجال الفكر ورواد المعارف والفنون والآداب من كل حدب وصوب، فقد أنشأ العباسيون بغداد عام 145 هـ، لجذب أنظار الشعوب الإسلامية عن دمشق عاصمة الأمويين، وكان الحال كذلك بالنسبة للأمويين الذين اتخذوا من دمشق حاضرة لهم، لصرف أنظار المسلمين عن المدينة المنورة مركز الإشعاع الثقافي الأول، والذي كان له أثره السياسي منذ هجرة الرسول ﷺ وحتى مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه، حيث فقدت المدينة حينئذ هيبتها السياسية، وإن كان قد ظل بها الاعتبار الثقافي الأساسي ردحا من الزمن.

على أن هذا الباعث السياسي للإنشاء المدن الثقافية الإسلامية يقترن به الباعث الاقتصادي، حيث يلاحظ تقدم المستوى المعيشي للسكان، ويعم الرخاء المادي، وهذا يتولد عنه التفكير في البحث عن إطار حضاري أفضل وأعظم، وذلك لاحتواء ما تتطلبه الحياة الاقتصادية المتطورة ونتيجة لهذا الاعتبار الاقتصادي نلمس وفرة عدد من الصناعات المختلفة بطريقة تلقائية، حيث تتبارى المهارات في هذه المجالات لتوفر الإمكانيات بالمدينة، إنطلاقا من اهتمامات المجتمع وشعوره بضرورة التوسع في كافة المتطلبات، وإحساسا منه بالنمو والنضج الحضاري على المستويين المادي والمعنوي، فيشمل هذا التحول التلقائي القيم والعادات، بل والنظم والثقافات تبعا لذلك، وهذه «دار الحكمة» التي كانت تمثل المعهد العالي للترجمة، قد استطاع العرب في ظلها أن ينقلوا تراث اليونان والهنود والفرس في العلوم والرياضيات والآداب. وعلى هذا فإن تلك البواعث السياسية والاقتصادية لإنشاء المدن الإسلامية قد صاحبها العامل الثقافي بمعناه الواسع الشامل لتجارب العقل في الفن والوجدان، والذي يتخذ عادة عدة مسارات علمية، وأنظمة إدارية، وتقاليد اجتماعية ومهارات تقنية، ولا غرو فإن الثقافة في عمومتيها كانت ولازالت تشكل جزءا أساسيا من حياة الشعوب العقلية

والاجتماعية، وإن الفضول العقلي وحب الاستطلاع في اكتشاف المجهول يملي على أهل المجتمعات أن ينشئوا المراكز الثقافية ذات التخصصات المتنوعة التي تقفز بالإنسان بخطى واسعة نحو التقدم والرقي في الحياة، وما ذلك إلا بوساطة ذوي الاختصاصات وأولي الرأي والفكر.

هذا، ومن المعلوم لنا ـ في هذه المناسبة ـ أن الثقافة الإسلامية على مر التاريخ لم يقتصر العرب فيها على ما حققوه من علوم بسيطة دينية أو دنيوية في المجتمع الإسلامي الأول، وإنما تجاوزوا تلك المعارف إلى حضارات وعلوم بعد أن تحولوا إلى شعب فاتح، ولم يقتصروا على ما نقلوه أو ترجموه من ثقافات الأمم الأخرى، كعلوم اليونان والمصريين والهنود، وإنما جنحت العقلية العربية الإسلامية إلى الخلق والإبداع والابتكار وتنويع الثقافات، يحدوهم في كل هذا أسلوب البحث العلمي الصحيح القائم على التجربة والترصد.

إن التطور الثقافي الشامل إذن كان من بواعث إنشاء هذه المدن الإسلامية، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن المقصود بالثقافة هنا ما يتصل منها بالتجارب العملية التي ترتبط بها حياة الإنسان ارتباطا وثيقا، كعلوم الهندسة والرياضياالمقصودت، والتعرف على المناخ وخصوبة الأرض، فكل هذه الأمور وما إليها تلعب دورا هاما في اختيار موقع المدينة واختطاطها، وقد استفاد المسلمون كثيرا من تجارب الأمم الأخرى في اختيار مواقع المدن وظروف هذا الاختيار في ضوء تخطيط مدروس من كافة الجوانب.

وسنرى أن بعض الدول الإسلامية ـ عند استعراض المدن الثقافية ـ لديها الاكتفاء الذاتي من النواحي الفنية والثقافية التي تمكنها من إنشاء المدن بنفسها دون الاستعانة بالخبرات البشرية من الأجناس الأخرى. وهذا تقليد متعارف عليه منذ فجر التاريخ، حيث تبادل الخبرات الحضارية كضرورة من ضرورات ازدهار الحضارات، إذ أن الحضارة الإنسانية الحقة هي التي تكون ملكا لكافة الشعوب، لا أن تكون حكرا على شعب دون آخر. وهاهي بغداد في العصور الوسطى قد أنشئت فيما بين عامي 145، 149 هـ بتعاون العرب والعجم والمسلمين وغير المسلمين، ولا شك أن الخبرة الفارسية قد قامت بدور بارز في منجزات حضارة «بغداد» بمهارتهم وثقافتهم، وإن القول هذا لينسحب على معظم المدن الثقافية الإسلامية والحواضر في تلك العصور الوسطى خاصة، فقد اعتمدت في تخطيطها وإنشائها على المهارات المحلية والخارجية، بحيث كان الامتزاج ملموسا في الأذواق والنماذج المعمارية. «ولكن مثل هذه الثقافة الفنية المستعارة ما لبثت أن تحولت إلى قابلية ذاتية في المجتمع الإسلامي، لأنها صادفت لدى المسلمين استعدادات لهضمها واستساغتها، وتحويلها إلى ملكات وإمكانيات إسلامية، هاجرت بدورها إلى أقاليم إسلامية أخرى، كما حدث فعلا للفن المعماري الأندلسي الذي عبر البحر وهاجر إلى المغرب ومصر، فكان شيئا طارئا في بداية الأمر، ثم أصبح ذوقا ووجدانا وملكات عقلية وقابليات نفسية لدى المغاربة، بحيث أعادوا خلق عناصره، وتفننوا في تطويرها، كما أن المعمار الفارسي قد فرض نفسه وطابعه على الدولة العباسية في البداية في كثير من المدن الإسلامية، ولكنه لم يلبث أن أصبح بالنسبة لها مثل فن العمارة الأندلسية بالنسبة للمغاربة (1).

هذا، وإن المعارف والفنون التي انبثقت عن المراكز الثقافية في تلك المدن الإسلامية لم تكن مقصورة على الجانب النظري البحث، ولكن كان التطبيق دائما ملازما للجانب العلمي في كافة المجالات، وهكذا فمن كان يدرس الثقافة الهندسية ـ على سبيل المثال ـ فلابد له من ممارسة أعمال البناء، ولهذا كان أرباب العلوم المعمارية عمليين بمعنى الكلمة، كما كانوا أساتذة لغيرهم ممن ينتظمون في سلكهم بهذا الميدان، ولكن هذا لم يمنع أن تكون هناك طبقة من العلماء والمثقفين إلى جانب تلك الطبقات الأخرى الممارسة للتطبيق العملي والمحترفة للتنفيذ البدوي «ورغم هذا كله فإننا نلاحظ حقيقة هامة وخاصة، وهي أن الفنون المعمارية التي ترجع إلى العصور الوسطى الإسلامية، وترتبط بإنشاء المدن كانت متفوقة على النظريات العلمية التي رافقتها، ومن ثم فإن مهمة عالم الآثار اليوم ستكون سهلة نسبيا عندما يتصدى لدراسة الفن المعماري في عصرنا هذا، نظرا لأن العلوم الناجحة التي

1) دراسات في الحضارة الإسلامية، للدكتور عبد الرحمن فهمي، ص 51.

تقف من ورائه تشكل قاعدة عتيدة تبدد كثيرا من مشاق العمل العلمي (2).

وبعد، فهذه هي أهم الدوافع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية لتخطيط المدن الإسلامية التي انبثق عنها الإشعاع الحضاري الإسلامي، على أنه لا ينبغي أن ننسى الباعث التاريخي لإنشاء كل مدينة من هذه المدن، وهذا الباعث غالبا ما كان يرتبط بالباعث السياسي وخاصة عند قيام دولة ناشئة إثر أخرى قضى عليها بالانحلال، ولعل هذه النظرية نلاحظها في إنشاء العواصم التي تصبح بمرور الوقت رمزا للدولة، مثل مراكش بالنسبة للمرابطين ثم الموحدين، وفاس المرينيين في غرب العالم الإسلامي، وكما هو الحال بالنسبة لبغداد رمز العباسيين، والقاهرة رمز الفاطميين في المشرق.

أخيرا... وقبل أن نستعرض تلك المدن الثقافية الإسلامية ينبغي أن نشير إلى العامل الديني ذي الأهمية القصوى بطبيعة الحال، فقد كان لهذا العامل أثره البالغ في نشأة وتخطيط المدينة الإسلامية، حيث كان المسجد هو النواة الرئيسية في المدينة، ومركز الإشعاع الثقافي في العلوم والمعارف والآداب...

وإنه لا مناص من إحاطة القارئ والباحث بأننا في استعراض المدن الثقافية ذات المراكز الإسلامية قد سلكنا ثم ذكرها الأسبقية في بداية العصر الإسلامي، وإن كان هذا الترتيب الزمني قد صاحبه تداخل العصور فيما بعد، أو مجاورة الدول زمانا ومكانا في الواقع التاريخي، وعلى هذا فسيكون عرضنا لهذه المدن على النحو التالي :

المدينة المنورة - دمشق - بغداد - القاهرة - فاس - قرطبة - غرناطة. وبالله التوفيق...

المدن الثقافية الإسلامية

أ - المدينة المنورة :

وصل الرسول ﷺ إلى يثرب (المدينة) مهاجرا، وحط بها رحاله هو وأصحابه يوم 16 ربيع الأول (20 سبتمبر عام 622م)، حيث أسس حكومة نظامية في المدينة، التي

2) المصدر السابق : 53.

اضحت بعد الهجرة إليها معقل الإسلام، واتخذ المسلمون السنة التي هاجر فيها الرسول من مكة إلى المدينة بداية للتاريخ الإسلام، تفاؤلا بهذا الحدث الجليل. وكانت تحتوي المدينة يومئذ على طوائف ثلاث، هم :

1 - المهاجرون الذين فروا بدينهم من مكة.

2 - الأنصار، وهم الذين شرح الله صدرهم للإسلام من السكان الأصليين للمدينة، وهم يتألفون من قبيلتي الأوس والخزرج، وإنما سموا بذلك لانتصارهم للنبي، ووقوفهم إلى جواره ضد المناوئين من كفار قريش ومن والاهم.

3 - اليهود، وقد أخذ أعدادهم في التناقص باتخاذ الإسلام «المدينة» قاعدة ومنطلقا له، وهكذا تمكن الرسول من انفاذ دعوته بين سكان المدينة، وعمل على نشر السلام بين قبائلهم، وأن يعقد محالفة وثيقة العرى بين المهاجرين والأنصار من جهة، وبين هؤلاء وبين اليهود من جهة أخرى، وهو الحلف الذي انطوى على موادعة ومسالمة يهود المدينة، وتأمين عبادتهم وأموالهم (3).

واستهل ﷺ أعماله الدينية في المدينة بأن بنى مسجده الذي دفن فيه، فكان هذا المسجد مقر اجتماعاته الأولى بالمسلمين، يوجههم ويرشدهم، ويؤاخي بين طوائفهم على اختلاف طبقاتهم، حتى أصبحوا على قدم المساواة فيما بينهم، وكان لهذا المبدأ الإسلامي (المساواة) أثره البعيد المدى في إزالة الفوارق بأنواعها بين العرب **﴿ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** (4)، كما جاء في الحديث النبوي : «...ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى».

ولقد كان مسجد المدينة المنورة نواة اجتماعات للرسول وصحابته وأتباعه، تدار فيه شؤون الدولة قبل أن تخصص دور مستقلة لهذا الغرض، ويؤكد هذا ما جاء عند «سيرتوماس أرنولد»، حين قال : «لم يكن المسجد مكانا للعبادة وحدها، بل كان أيضا مركز الحياة السياسية

3) انظر هذه المحالفة في الوثيقة الخاصة بها، والتي أوردها ابن هشام في «السيرة» جـ 2 ص 119 - 128.

4) الحجرات : 49.

والاجتماعية، فكان النبي يستقبل في المسجد السفراء، ويدير شؤون الدولة، ويخطب جماعة المسلمين من على المنبر في الأمور السياسية والدينية... فمن فوق منبر المدينة أعلن عمر تقهقر جيوش المسلمين في العراق، واستحث قومه على السير إلى هذه البلاد، ومن على المنبر أيضا وقف عثمان يدافع عن نفسه، كما كان الخليفة يلقى بعد بيعته من فوق المنبر ـ خطبته الأولى التي هي بمثابة بيان لسياسته في الحكم، فكان المنبر بذلك أشبه بالعرش، الذي يلقى من فوقه بيان سياسة الدولة في الأمم الدستورية (5).

ولكن لا مناص من الإشارة إلى أن مسجد الرسول بالمدينة ـ على وجه الخصوص ـ كان يستخدم كمقر لاجتماع الصحابة يومئذ، يتدارسون فيه القرآن، ويرددون الأحاديث النبوية، ويتذاكرون فيما بينهم في أمور دينهم، وقد اتخذ أيضا كمقر لعقد مجلس القضاء، والفصل بين المسلمين في شؤون دينهم ودنياهم إيمانا منهم بأنه لا مجال للفصل بين السياسة والدين...

إن انتقال الإسلام إلى المدينة قد صاحبه تكوين نواة الدولة الإسلامية، فقد بدأ التشريع يتجه إلى تنظيم هذه الدولة في كل شأن من شؤون الحياة، من عادات وقواعد لصلاح الأسرة، وضمان للروابط المتينة بين أفراد المجتمع، إلى تقنين للمعاملات التي يتطلبها الناس فيما بينهم، وبذلك «تخرج في مدرسة القرآن، وعلى يدي الرسول الأمين جيل من الصحابة الأجلاء، قرأوا القرآن، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، واجتنبوا نواهيه، وإذا غمض عليهم لفظ من ألفاظه أو أشكل عليهم فهم معنى من معانيه، لجأوا إلى الرسول ﷺ يستوضحون معناه ويفهمون مقصوده، والنبي الكريم يوضح لهم ما غمض، ويبين لهم ما خفي عليهم. ويرشدهم إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

«ثم لحق الرسول الأمين بالرفيق الأعلى، وبدأ عهد الخلفاء الراشدين، وسارت دفة الحياة الإسلامية على المنهج نفسه، فأساس التشريع عندهم هو القرآن، ثم السنة، ثم الاجتهاد في نطاق الأصول العامة التي وضعها القرآن وبينتها السنة» (6).

لقد أفرزت المدينة المنورة علماء أجلاء من الصحابة والتابعين، برعوا في علوم الدين الإسلامي وتفقهوا في شئون الحياة، مستمدين فقهم من القرآن الكريم، والسنة النبوية، ويكفي أن ننوه في هذا المجال بالخلفاء الراشدين ومن إليهم ممن قرب مجلسه منهم، وبذلك أضحت المدينة أم المدن الثقافية الإسلامية، ذات الركيزة والأساس الأول، والتي انطلق منها المذهب المالكي إلى أرجاء شتى من العالم الإسلامي، بفضل صاحبه الذي كانت ولادته بمدينة الرسول، ثم كانت وفاته بها عام 169 هـ، بعد أن ألف كتابه «الموطأ» أي : السهد الواضح، في الفقه والحديث، فبعد أن رتب أبواب الفقه المختلفة ذكر الأحاديث النبوية المتعلقة بكل موضوع من هذه المواضيع الفقهية.

يقول : «جوزستاف لوبون» في فضل المدينة المنورة :

«.... وهي أقدم عاصمة للدولة العربية، وتلى مكة في الشرف عند المسلمين، فإلى المدينة هاجر محمد، وفيها توفى بعد أن وطد دعائم دينه».

و«أصبحت المدينة ـ بفضل تقوى الحجاج وبرهم ـ ذات غنى وثراء...، وليس في المدينة مبان قديمة، خلا مسجدها المشهور الذي دفن فيه محمد، بعد أن كان يعلم الناس فيه أحكام الإسلام، وصارت المدينة ـ بفضل قبر الرسول ـ مكان حج وزيارة مهم مثل مكة» (7).

وطبيعي أن المدينة في العهد النبوي الشريف والراشدي قد اتسعت لعلوم أخرى خلاف علوم القرآن والحديث، فقد كان للآداب عامة والشعر خاصة مجالهما بعد أن اصطبغ في معظمه بالصبغة الإسلامية، حتى كان من الشعراء من نصبوا أنفسهم للذود عن حياض هذا الدين الجديد كحسان بن ثابت ومن على شاكلته، حتى فن الغناء كان معروفا بالمدينة، ولعل ذلك راجع إلى استحسان العرب للصوت الجميل، وحيث آثروا هذا في سماعهم لتلاوة القرآن الكريم وفي الأذان للصلاة، وقد عرف عن الرسول

5) The Caliphate 36 ـ 8.

6) د. عبد الله شحاته، في «علوم الدين الإسلامي» ص : 230.

7) حضارة العرب، لجوستاف لوبون، ص : 21 ـ 72.

أنه طلب إلى بلال أن يؤذن للصلاة لأنه كان رطب الصوت.

وقد اشتهر بالغناء في المدينة يومئذ أحد موالي بني مخزوم، واسمه «طويس»، وكان ينقر بالدف، ويعتبر رائدا في الغناء ذي الإيقاع، وهو المعتمد على الألحان ذات الوقع والميزان...، وقد عرف عن هذا المغنى أنه كثيرا ما كان يثير بغنائه ما بين الأوس والخزرج من ضغائن في الحروب زمن الجاهلية، بل وقبل هجرة الرسول إلى المدينة، ولكنه أقلع عن هذا النوع من الغناء بعد الهجرة، وهكذا ساير الوضع الجديد بعد أن وضعت الحرب أوزارها بين الفريقين فكان أهل المدينة يؤثرونه على غيره من المغنين، ويروي أنه سمعهم مرة يمدحونه ويشيدون بغنائه فأخرج دفا ثم نقر به، وغناهم بشعر عمارة بن الوليد المخزومي في خولة بنت ثابت، وقد عارضها بقصيدتها فيه :

يـــــا خليلي، تـــــابنى سهـــــدي
لم تنم عيني، ولم تكـــــــــــــد

وهو :

تنـــــــاهى فيكم وجـــــــدي
وصــــــدع حبكم كبــــــدي

فقلبي مصعر حـــــزنـــــا
بـــذات الخـــال في الخـــد
فمـــا لا قى أخـــو عشـــق
عشير العشـــق ن جهـــد

فما كان من المغني المشهور أيضا ـ وهو ابن سريح ـ إلا أن أقبل على طويس قائلا : و«والله هذا أحسن الناس غناء» (8).

وبعد... فهكذا رأينا من خلال ما ذكر حول المدينة المنورة أنها كانت تمثل حينئذ المدينة الأولى بين المدن الإسلامية التالية، بما اشتملت عليه من علوم وفنون وآداب بالقياس إلى العصر والأحداث... وظلت حاضرة للدولة العربية عصر النبوة ثم الخلفاء، حتى ولى علي بن أبي طالب الخلافة، حيث غادرها، واتخذ من الكوفة حاضرة لخلافته عقب موقعة الجمل المعروفة، ولكن هذا الانتقال ـ الذي لم يوفق فيه سيدنا علي لأسباب معلومة ـ لم ينل من مركز المدينة المنورة يومئذ، فقد ظلت مدينة الرسول مركز الاشعاع الديني، ومصدر القوة الإسلامية ردحا من الزمن.

القاهرة : د. محمد كمال شبانه

من أعلام الريف الشرقي في القرن الحادي عشر الهجري

عيسى بن محمد الراسي البطوئي

للأستاذ حسن الفكيكي

إذا كان عبد الحق البادسي قد اعتنى بتسجيل صورة عن التصوف ورجاله بالريف الشرقي خلال الفترة المتراوحة بين القرنين السادس والثامن الهجريين (1)، فإن عيسى بن محمد بن يحيى الراسي اتحفنا بعد قرنين ونصف، بمؤلف آخر له اتصال وثيق بما استعرضه البادسي، أسماه «مطلب الفوز والفلاح في آداب أهل الفضل والصلاح» (2)، كان على وشك الانتهاء منه في منتصف القرن الحادي عشر الهجري (17م)، وإخراجه في مجلدين اثنين، بسط فيهما أصول التصوف وقواعده بأبوابه وفصوله المعروفة، على نهج لا يبتعد عن المعهود في تأليف من سبقه من أهل هذا الفن.

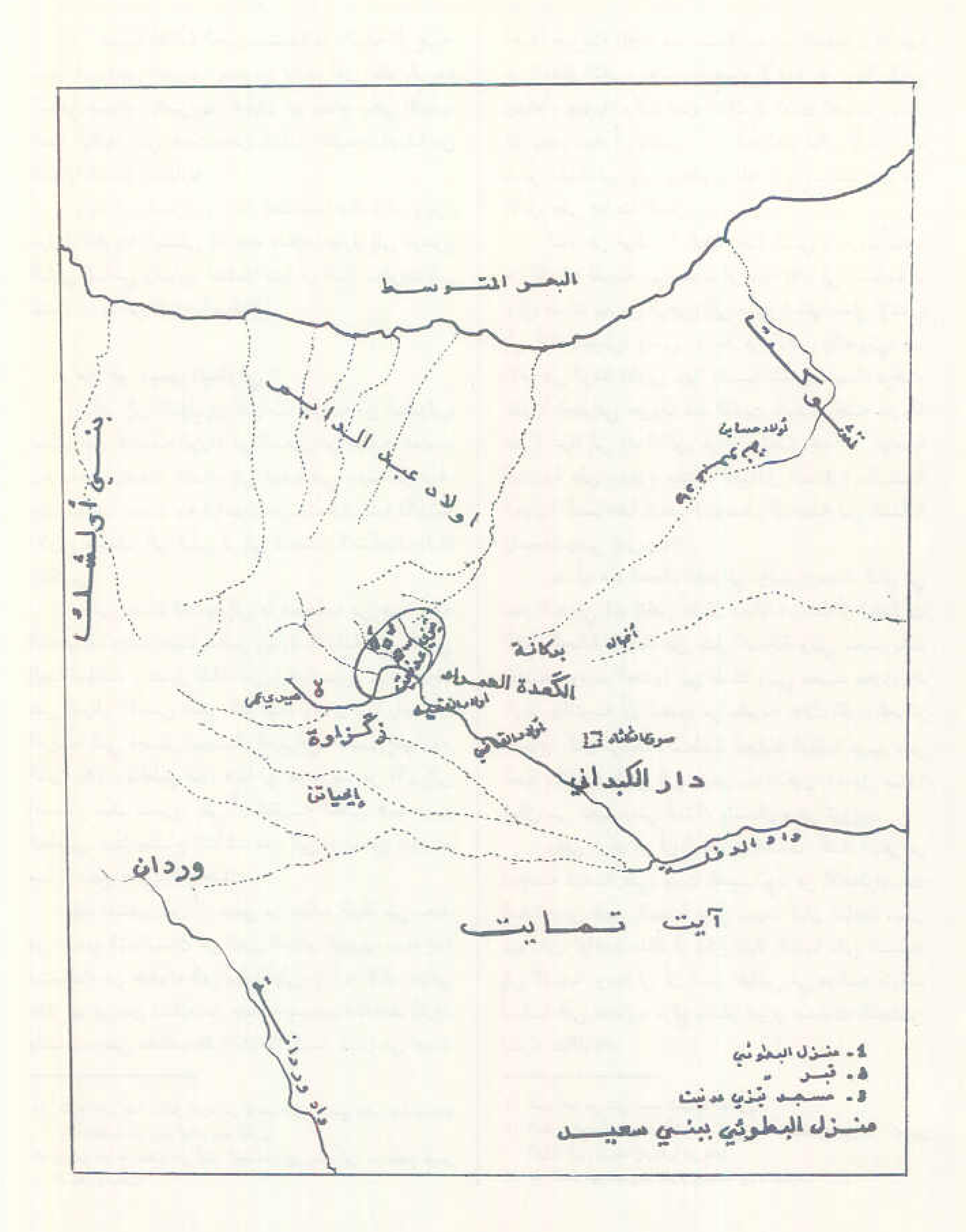
ونعد هذا المؤلف، الإنتاج الوحيد في موضوعه بالريف الشرقي، فهو بذلك مصدر له أهميته للباحث في مراحل ثقافتنا ودورها في توعية البوادي المغربية. فمن بين الأبواب الثمانية التي تؤلف صفحات المجلدين، يسترعي انتباه الدارس لتاريخ المنطقة، محتوى البابين السادس والسابع، إذ أنهما يشغلان حيزا بارزا من المجلد الثاني، ويبدو أنهما احتلا مكانة خاصة في نفس عيسى البطوئي. ومن السهل علينا أن نقف على مدى أهميتهما فالبابان :

- يحملان بين طياتهما شهادات عديدة، دالة على مساهمة رجال الريف ببطوية للحفاظ على أصول ثقافتنا الدينية بالبوادي، تلك الثقافة التي كانت انعكاسا للحركات الرائجة بالمدن المغربية الرئيسية خلال القرن العاشر الهجري (3).

1) في «المقصد الشريف والمنزع اللطيف في ذكر صلحاء الريف». كان المؤلف حيا سنة 722 هـ.

2) توجد بالرباط نسختان من المخطوط، الأولى بالخزانة العامة تحت رقم 2.213 وهي مبتورة الأولى والآخر. ربما كانت أقدم النسخ، إن لم تكن الأصل، والثانية بالخزانة الحسنية، رقمها 1.667 وهي كاملة، لا تحمل تاريخ النسخ.

3) أفرد الدكتور محمد حجي في أطروحة الدكتوراة «الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين» فصلا لرجال بطوية، بالجزء الثاني من 454 إلى 456.


البحر المتوسط
اولاد عبد الدايم
بني أوليشك
أولاد حساين
بكانة
الكعدة الحمراء
زكزاوة
إيحياتن
دار الكبداني
واد الدفلة
آيت تمايت
وردان
1 - منزل البطوئي
2 - قبر
3 - مسجد تيزي ددنت
منزل البطوئي ببني سعيد

- حصيلة لثقافة العصر مستمدة من البيئة الريفية، ممثلة أساسا في التعريف بعدد من تراجم أهل العلم بالريف الشرقي بمنهاج، يتميز بهما البابان عن طابع باقي الأبواب الستة الباقية، التي غدت مجرد تسلسل تقليدي لجملة من القضايا الدينية المتداولة.

ولها تين الميز تين كان اهتمامنا بالمؤلف وإبراز مراحل تكوينه، ليتسنى لنا بعد ذلك التطرق إلى موضوع البابين السادس والسابع، اعتقادا منا أن ذلك سيقودنا إلى تقديم جديد عن تاريخ المنطقة.

من هو عيسى البطوئي ؟

تبادر إلى القول إن كل ما نعرفه من البطوئي، مستمد من كتاباته الواردة في البابين من مؤلفه، فمنهما وحدهما استفدنا انتماءه إلى قبيلة بني سعيد الريفية. وتتبعنا بما سمحت به قراءتهما من التدقيق فترة تكوينه الأولي وانتقاله إلى فاس ثم إلى تلمسان لاستكمال ذلك التكوين.

وحتى نضيف الجديد إلى ما نستخلصه من حياة هذه الشخصية، وجب علينا تنظيم زيارة للقبيلة التي ينتمي إليها المؤلف، وبفضل تلك الزيارة القصيرة، تم الوقوف على الموطن الأصلي الذي عاش فيه، وكان مما راعنا أن الفرقة التي تحتل المجال الجغرافي، تحمل إسم أولاد الفقيه (4). وبالطبع فإن هذا لن يجنح بنا من الآن إلى إصدار حكم متسرع، على أن الفقيه المعني هو عيسى البطوئي. فهذا يحتاج للتأكد منه إلى مزيد من البحث، مما لا تسمح به زيارة واحدة.

إننا مقتنعون من أن عيسى من مواليد قبيلة بني سعيد في حدود الثمانينات من القرن العاشر الهجري، بناء إما استنبطناه من خطواته الدراسية الأولى، إذ أنه كان حوالي 996 هـ. في سن تمكنه من مجالسة مدرسيه لحفظ القرآن والتدرب على مختلف القراءات (5) كما كان من جهة أخرى حيا سنة 1040 هـ، مشتغلا بتحرير الصفحات الأخيرة من المجلد الثاني، معتنيا باستقصاء الأخبار عن رجال الدين وصلحاء بطوية، وكان عمره آنذاك قد تعدى الخمسين سنة، فلم يسعه سوى أن يكتب : «... فآه لعمر فان، وأجل دان، وسير حثيث غير وان، وخطوب ذات الوان - لقد لعب بنا الأمل حتى دنا منا الأجل...».

لماذا عن موطنه ؟ كيف رفعنا اللبس عنه وتأكدنا من انتمائه لقبيلة بني سعيد الريفية (6). في البداية لم يكن هناك بد من الرجوع إلى نسبه الذي يعمل الإشارة إلى ذلك الموطن، ونعني به كلا من الراسي والبطوئي. بدا الأمر في الوهلة الأولى سهلا بالنسبة للثاني منهما، فإطار بطوية الجغرافي معروف منذ القديم، بامتداد رقعته من واد ملوية شرقا إلى واد النكور غربا، وينطبق هذا من الوجهة البشرية على مجموع مختلف القبائل المستقرة بالسلسلة الجبلية الساحلة للبحر المتوسط، الواصلة بين كبدانة وتمسمان وبني توزين (7).

بيد أن هذا المجال الجغرافي والبشري معا، كان في عصر البطوئي قد تقلص نطاق مدلوله، منذ أن استأثرت الكتلة الجبلية الفاصلة بين جبل كبدانة وبني سعيد باسم «قلعية»، وبرسم الحدود بين تلك وبني سعيد مجرى واد كوط. والنتيجة أن المفهوم من بطوية خلال القرن العاشر الهجري، كان مرتبطا بالمنطقة الجبلية الواقعة غرب جبل قلعية بامتداد طولي إلى حوض واد النكور، تدخل ضمنها قبائل بني سعيد وبني أولشك وتمسمان وبني توزين.

وعلى الرغم من أن البطوئي تحدث، أثناء استعراض ترجمة شيخه علي، وارث الغساسي، عن الاضطرابات المترتبة عن ظهور المجاعة ببني سعيد، كان شاهد عيان فيها، فإن تواجده هناك لم يكن دليلا كافيا على انتسابه إلى القبيلة. وبدا لي أن البت القطعي في موطنه متوقف أساسا على تحديد موقع مدشر «تيزي عدنيت» المحتضن لمنزله هناك (8).

---

4) عثرنا على عدة وثائق تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر، تعد جماعة أولاد الفقيه من ربع أولاد عبد الكريم.

5) يوافق هذا ما سمعته من أبناء الجماعة، فهم يتحدثون من نضج عيسى المبكر ونباهته.

6) تميزا لها عن بني سعيد الجبلية الغمارية.

7) البكري في «المغرب في أخبار إفريقية والمغرب» ص 89 : الحسن الوزان في : وصف إفريقيا ص 266.

8) هذا الاسم غير معروف اليوم بجماعة أولاد الفقيه.

وهذا هو ما حتم علينا الانتقال إلى نسبه الثاني «الراسي». واتضح لفترة اجتازها البحث أن التوصل إلى النتيجة المتوخاة أمر صعب المنال، انضاف إلى عجزنا لإثبات وجود مدشره السابق، مما شكل عقبة حقيقية أمام كل جهد في هذا الباب. وكانت المفاجأة حينما وقعت بيدي وثيقة تخص نسب أحد مرابطي جماعة «زكَزاوة» بني سعيد، حفدة المرابط الشيخ عمر بن محمد الراسي، وهي تقول : «هذا تقييد أجداد الفقيه أحمد بن محمد الزيزاوي الراسي من جده عمر بن محمد بن أحمد الراسي الذي دفن بقبيلة بني سعيد بالكَعدة الحمراء برأس واد الدفلة، لذلك سمي بالراسي (9).

والنتيجة المستوحاة من الوثيقة، أن عيسى الراسي، لا يمكن أن نعده إلا من جماعة زكَزاوة، التي تتناثر دورها بجوار قبة سيدي عمر، ومنبع واد الدفلة، فلفظ الراسي ليس سوى تعريب لما هو معروف باللهجة المحلية بإخَفْ (رأس) نْ إغْزَرْ (واد) أريدي (الدفلة) (10).

غير أن زيارتنا الأخيرة لأولاد الفقيه، دلتنا على الموقع الحقيقي الذي أخله منزل عيسى البطوئي بمدشر تيزي عدنيت، إذ أن لواد الدفلة منبعين متقابلين أولهما جنوبي بجماعة زكَزاوة، وثانيهما شمالي مبدأه من مقدمة جماعة أولاد الفقيه، يلتقيان عند قدم الكدية التي تحمل مبنى المنزل. ويكون اجتماع المجريين فجا. هو الممر الوحيد الواصل إليه، وهو المقصود بالإشارة إلى «تيزي». ويتقدم مدشر البطوئي من جهة الشرق هضبة مستوية، ذات تربة حمراء تدعى بالكَعدة الحمراء» يتقاسم استغلال شعابها كل من أولاد الفقيه وزكَزاوة وأولاد القاضي وبركانة.

وحولنا اتجاه البحث بعد هذا إلى محاولة التعرف على أسرة البطوئي، فكان أول ما قادنا إليه، أن أمه تمراوية بوحسانية، من «أيت تميرت» وتنتمي إلى أولاد حساين الذين بربع «تشوكت»، كانت حية في مستهل القرن الحادي عشر، فهذا هو ما توصلنا إليه من معرفة أسهم خاله،

9) الوثيقة تاريخ 14 جمدى الأولى من عام 1298. نسخة منها كانت بيد السيد المرحوم مصطفى الكركدي (القاسمي).

10) واد الدفلة أهم مجاري بني سعيد، وأحد روافد واد كرط.

أحد الصلحاء، المدعو أحمد بن موسى بن يحيى التمراوي البوحساني.

ولا يتجاوز ما ذكرناه عن أمه ما بلغنا عن أبيه، فإسمه محمد بن يحيى الراسي، ونعتقد أن جد عيسى، المدعو يحيى، هو من مدشر إيحياتن (أولاد يحيى)، الواقع جنوب زكَزاوة، لأن البطوئي استعمل نسب اليحياوي في مكان آخر.

والغريب أن البطوئي لم يشر بالحديث قط إلى أبيه، وكأنه لم يحتفظ في ذاكرته بشيء عنه، ونفسر هذا، على الأرجح، بكونه فقده مبكرا، وفي السنين الأولى من طفولته، دون أن نتساءل عن عدم إدراج ترجمة له، مثلما فعل مع غيره من صلحاء بطوية، فالغاية من تأليفه كانت هادفة لجمع مناقب من عامرهم هو ولقيهم من أولئك الصلحاء من شيوخه ورفاقه، وأبوه لا يدخل في عداد هؤلاء، ونذكر هذا لأننا نعتقد أن محمدا، أبا البطوئي، كان على درجة في الاهتمام بالتعليم الديني. انطلاقا من تأسيس المسجد وتهيئه لاستقبال الشيوخ والطلبة، قبل أن ينضاف ابنه عيسى إلى زمرة الطلاب، وحين فاجأته الوفاة، تكلف برعاية المسجد أخوه أحمد لمدة تزيد على الأربعين سنة تالية (11).

ومما يضيق علينا مجال التزود بمزيد من المعلومات عن الأسرة الراسية، عدم التوصل لحد الآن إلى جمع وثائق أولاد الفقيه، التي توجد مبعثرة بأيدي أفراد الأسرة ببني سعيد وخارجها (12). فما يمكن اقتراحه مبدأيا، أن والد عيسى كان مستقرا بتيزي عد نيت في ثمانينات القرن العاشر الهجري، وليس ببعيد أن يكون استقراره هناك مقترنا بتأسيس المسجد الذي سيغدو مركزا للثقافة الدينية ببطوية.

مسجد تيزي عذنيت :

يفضي بنا التأمل في تراجم البطوئي عن الصلحاء إلى

11) هو أحمد بن يحيى الراسي : خصه البطوئي بترجمة قصيرة. وعمر أزيد من القرن وتوفي عام 1040 هـ.

12) يشكل انقسام أفراد العائلة الواحدة والنزاعات الأسرية الموروثة، عرقلة أساسية للتوصل إلى جمع الرسوم والعقود التي لا تخلو منها خزانة أية أسرة بالريف الشرقي.

أن مسجد تيزي عد نيت، لم يكن مجرد مسيد لتعليم الكتابة وحفظ القرآن، على النحو الذي كان الآباء يدفعون إليه صبيان القرية، بل إنه تخطى بسرعة تلك المرحلة الدنيا من مهمة الكتاتيب، ليصبح مركزا للثقافة الدينية الرئيسية، ومقرا للتربية الصوفية، بما آواه من شيوخ العلم والطلبة الذين لم ينقطعوا عنه طيلة المدة التي نعرفها من حياة عيسى البطوئي، أي المدة المتراوحة ما قبل 996 هـ. وما بعد 1040 هـ (13).

وعلى الرغم من اختفاء إسم هذا المسجد من ذاكرة أولاد الفقيه الذين يحتلون منزل البطوئي في الوقت الراهن، فإن مظاهر السطح الطبيعية للبقعة الموافقة لوجوه منبع واد الدفلة، والمجاز الذي يكونه مخنق المجرى المائي بجوار المنزل، والتأكد من وجود المسجد وقبر عيسى البطوئي (14). كل ذلك لم يدع لنا أدنى شك في أننا أمام المكان عينه الذي تناول الحديث عنه وعن مدرسته الأولى ببلده وقبيلته.

وقد أتاحت لنا زيارتنا لجماعة أولاد الفقيه المثول بمكان المسجد، فوجدناه على هيئته الأصلية. محتفظا بسماته الأولى، باستثناء ما أضيف إليه حديثا، والظاهر عندي أن الغرفة الأولى الغربية، هي التي كانت مخصصة للصلاة، وانعقاد جلسات التعليم، بينما كانت الثانية مأوى المشارطين والشيوخ والطلبة الغرباء.

ونجد أنفسنا مجبرين على الصمت، ونحن نتطلع إلى اكتشاف العوامل المحلية أو الخارجة عن النطاق القبلي، التي ساعدت على ظهور مسجد تيزي عد نيت بمرتبة مركز قروي للتدريس. وإذا كنا نعزو بدايته إلى أسرة عيسى، فإننا لن نخطئ الصواب كثيرا إذا أضفنا إلى هذا، حسن رعاية الأسرة الراسية.

وما نعلمه الآن، من خلال كتابات البطوئي، أن المركز السعيدي هو استمرار لرباط آخر مجاور له، كان نشيطا خلال القرن العاشر الهجري، مقره «بوردان بني أو لشك»، ابتدأ عمله حينما برز به الشيخ المتصوف الحاج يحيى الورداني الفجيجي (15) ففيه تكون بعض الراسيين أمثال على بن سالم الراسي، وأحمد بن يحيى اليحيوي الراسي، عم البطوئي، وعيسى بن إبراهيم إيزناسني، وكل هؤلاء درسوا على أحمد بن عبد الله المديني البطوئي (16)، أحد تلامذة ابن غازي المكناسي.

وما يهمنا الآن تبيانه، هو إلقاء بعض الأضواء على الفترة التي قضاها عيسى في المسجد قبل التحاقه بفاس في 1002 أو 1003. وهي المدة التي استوفى فيها تكوينه الأولي على يد أربعة من شيوخه الرئيسيين. نستعرضهم حسب الترتيب الزمني الذي درج فيه ذلك التكوين.

الشيخ أحمد الفلالي : سبقت الإشارة إلى أن بداية نشاط المسجد كنقطة محورية للتعليم الديني ببني سعيد مجهولة لدنيا، وإن كنا نرجح أنها لم تبتعد كثيرا عن تاريخ ولادة عيسى، وما نقره الآن، أن هذه البداية، بالنسبة للبطوئي مقترنة بوصول شيخه الأول أحمد الفلالي (أبو العباس)، هل بتيزي عد نيت بعد أن مكث مدة طويلة بالغرب الجزائري قضاها في التجول والتحصيل، جعلت منه في عين الراسيين «...علامة ومربيا سالكا وزاهدا منبصرا».

والظاهر أن وصول أحمد الفلالي إلى بني سعيد، تم قبل أن يشعر بوجوده عيسى، هو صبي، وكيفما كان الحال، فإنه حل بالمسجد قبل 996 هـ بعدة سنوات، وحظي برعاية الأسرة وعنايتها، وكان الشيخ من المتصوفة الزهاد، تعلم ذلك من إشارة للبطوئي عنه، ومن ستة أبيات شعرية حفظها عنه في ذم الدنيا، ومن تحديد مهمته حين ورد على «...بلاد بطوية وأقام بها مسترشدا لدين الله ماشاء الله» (17).

وكانت إقامته بالمسجد مناسبة لتوافد الطلبة، نجد

---

13) التاريخ الأول هو الذي حل فيه أحمد بن إبراهيم الراسي بموطنه بني سعيد بعد غياب طويل، أما الثاني فبالنسبة لآخر سنة كانت فيها عيسى البطوئي حياة مما وقفنا عليه.

14) تأكدنا من صاحب القبر، حينما سألنا أحد أحفاد أولاد الفقيه، وهو السيد الطاهر، عضوا لجماعة القرية بدار الكبراني، ممن يكون «سيدي عيسى» المعروف بالجماعة. فكان الجواب التلقائي موافقا تمام الموافقة لنسب ما نعرفه من عيسى البطوئي.

15) قال عنه عيسى : «الشيخ الولي الصالح المربي السالك العابد الناسك».

16) سنعرف بهذه الشخصية ودورها في مجال التدريس في القسم الثاني من هذه الدراسة الآتي بعد هذا.

17) قال البطوئي أن شيخه أبا العباس أخذ الذكر عن سيدي الغازي، عن سيدي علي بن عبد الله...

منهم الراسيين والبوحساتيين وهؤلاء من بين سعيد، ومن وردان بني أولشك ومن بني قوزين وبقيوة، ولم يحن دور البطوئي للأخذ عنه إلا فيما يقارب سنة 996 هـ، حينما كان فعلا في مستوى يمكنه من استيعاب بعض مبادئ العلوم الدينية، ولم يكن بعد تجاوز مرحلة الحفظ الظاهري للقرآن الكريم، ويعبر عن هذا ما تلقاه عن شيخه بشهادته هو، مما لا يزيد على «ذكر الله ورسوله على الكيفية التي تلقن بها» (18) ولا نجد تبريرا لهذا القدر البسيط من المقروء، سوى صغر سن البطوئي آنذاك، وما تتطلبه المرحلة التي يجتازها من ضرورة صرف الجهود لحفظ مبادئ العلوم الأساسية، مع أنه يقول عن شيخه. حينما شرع في تدوين بعض ما تذكره عنه : «توفرت فيه شروط التربية» وأن «نسبته في التربية وسنده في التلقين مشهور». مما لم يتسن أخذه عنه وهو في السنوات الأولى من حياته الدراسية.

ولا يمكن أن فرد ضآلة ما تعلمه إلى قصر مدة إقامة أحمد الفلالي ببني سعيد، لأننا نعلم أن مقامه بها كان طويلا، وعلى كل فإنه امتد إلى ما بعد بداية القرن الحادي عشر الهجري، وحتى بعد مغادرة البطوئي لموطنه في أول رحلة علمية إلى مدينة فاس، فقد ظل الشيخ بالمكان إلى أن انتقل منه إلى بني بوزرة بالريف الغربي، حيث توفي في تاريخ لم نخبر به (19).

أحمد بن إبراهيم بن أحمد الراسي (و1039 هـ).

من أبناء بني سعيد الراسيين، لكنا نجهل ما إذا كان من زكزاوة أو من أولاد الفقيه، وهو ممن استهواهم الاغتراب طلبا للعلم، فبعد أن قرأ على المحدث أحمد الفجيجي بتازا، انتقل إلى تلمسان، حيث «أقام متغربا سنين حتى تفقه في كل فن». وعاد إلى بلدته في تاريخ ظل عالق بذهن عيسى، كان ذلك في سنة 996 هـ، وهذه السنة هي التي حاولنا، بالقياس إليها، ضبط عدد من الاقتراحات الخاصة بسن البطوئي، والمدة التي حل فيها الشيخ الفلالي إلى بني سعيد، إذ أن أحمد المذكور كان ممن أدرك الشيخ بالمسجد.

تأثر البطوئي بعودة الشيخ الراسي تأثرا لم يخفه عنا، وقد صادف رجوعه تفتق ذهنه، والرغبة الشديدة التي تكونت لديه في فتوته الأولى للتعلم، ولم يكن هو الوحيد في الساحة، ممن عبر عن نفس الشعور، فهذا هو ما يفسره الإقبال المتزايد على مجلس الشيخ أحمد مدة طويلة تستمر إلى وفاته. وبالنسبة للبطوئي كان رجوعه إلى القبيلة نصرا وفتحا كبيرين للمتعلمين، بما جاء به من مختلف العلوم، وبما تحلى به من النصح في التدريس (20).

وقد فات عيسى أن يحدد لنا كما فعل مع شيوخه الآخرين نوع الدروس التي تلقاها عن أحمد الراسي، مكتفيا بما عبر عنه في مدحه، على أننا نعتقد أن ما أخذه عنه كان استمرارا لما تعلمه من حفظ القرآن، إذ كانت نغمة الشيخ في القراءة مما نال إعجابه.

الشيخ أحمد السوسي : من حسن حظ عيسى أن مسجد تيزي عدينت كان في أواخر القرن العاشر الهجري نقطة جذب لشيوخ العلم الغرباء وستربطه علاقة وثيقة بالوافد الجديد على المسجد، المدعو أحمد بن أبي بكر بن جعفر السوسي استمرت خلال العامين، إذ أن مرور الشيخ ببني سعيد كان ظرفيا فقط. لما اعتزم عليه من التوجه إلى الديار المقدسة بالشرق العربي.

حل أحمد السوسي بالمسجد في 998 هـ، وأبدى به عيسى اعجابا كبيرا، مصدره منبعث من استساغته لطريقة التدريس التي حازت كامل رضاه. يقول عنه : «ما رأت عيناي أعرف منه بتدريج المتعلمين وسياسة المتفقهين. يؤدب الكبير والصغير». فهو لذلك كان معلما للقرآن خفيف اللسان به مع الاتقان لصغار الطلبة. وكان منهم

---

18) لن نتمكن من الإشارة إلى صفحات مطلب الفوز والفلاح، ذلك أنها غير مرقمة.

19) بالفعل فإن قبر الشيخ معروف ببني بوزرة الواقعة بين بني سلمان وبني الزياتي، قيادة بوحمد. والمكان مزارة كبرى للقبائل الغمارية وللطلبة بصفة خاصة.

20) نقلنا هذا الشعور من خمسة أبيات جاشت بها قريحة البطوئي في مدح شيخه، قبل وفاته في أغلب الظن.

عيسى، ومدرسا لبيبا للفقه بالنسبة للكبار، وهذا يتفق مع ما أخذه عنه البطوئي، فقد قرأ عليه القرآن« برواية ورش عن نافع» مع ما تسمح له به سنه من تعلم مبادئ الفقه.

ولمسنا من جهة أخرى أن الشيخ السوسي كان هو أيضا شديد الاعجاب بنباهة تلميذه، لما ترسم فيه من قابلية مبكرة نحو التحصيل، وبلغ الآمر بالأستاذ أن حبذ لعيسى مرافقته إلى الحج، ولم يقف دون تلك الرغبة سوى اعتراض صارم من طرف أمه، وبالفعل فإن أحمد السوسي غادرا لمسجد لتحقيق نيته الأولى في مستهل القرن الحادي عشر. واستخبر البطوئي بعد ذلك أنه توفي بالجزائر.

علي وارث الغسامي :

تعددت جوانب تقدير عيسى البطوئي لشيوخه، ويستند تقديره، لعلي وارث إلى قرابته أولا، فهو ابن عمة له، وإلى تتلمذه عليه ثانيا، ولكن معظم ذلك التقدير جاء فيما بعد من تشجيعاته له على الكتابة والتأليف.

كانت لأبي علي علاقة ببني سعيد وبأسرة محمد الراسي، والدالبطوئي، ولا نستنتج هذا من القرابة الأسرية فحسب، بل من أن عليا تتلمذ على الشيخ عيسى بن إبراهيم إيزناسني، أحد طلبة أحمد بن عبد الله المديني والبطوئي، سواء كان هذا لأخير بوردان أو بتيذي عدنيت (21).

وتلمذة عيسى على الشيخ الغسامي لم تكن منتظمة، إذ أن سكناه القارة كانت بقبيلة قلعية، بخمس بني جافر (22) إلا أنه كان كثيرا لتردد على تيزي عدنيت، ولم يختلف ما قرأه عليه، على ما كان يدرسه على شيخه السوسي، وأظن أن فرص التتلمذ كانت قليلة، تعدد إلى ما قبل حلول الشيخ أحمد السوسي، ولم تكن بعد ذلك، لأن الفتى الراسي، كان بعد سنة 1.000 هـ، قد تشعبت نفسه بفكرة البحث عن شيوخ جدد فارج بلدته.

ونستطيع هنا أن نلمس مكانة البطوئي في هذا الطور الأول من التكوين ببلدته على يد شيوخه الأربعة، اعتمادا على ما التقطناه من تصريحاته هو وعلى ما اقتبسناه من الإشارات بتتبع خطوات دراسته بفاس وتلمسان، وبناء على ذلك لا حظنا أنه كان قد ختم القرآن مع الحرص على عدم نسيانه، وأنه من جهة أخرى كان قد شرع في تعلم القراءات القرآنية، ويسعى جاهدا لتمكن فها.

وبتقييم هذه الحصيلة نجد أنها كانت بمثابة التكوين التقليدي الأساسي بالبادية المغربية، ذلك التكوين الذي يفرض نفسه على الطلاب سواء كانوا في الراغبين في التوقف، أو من الذين يطمحون في الاستمرار، كما كان شأن عيسى البطوئي، ومن أجل طموحه وجدناه يقرع باب تعلم مبادئ العلوم الدينية الأساسية، استعدادا لاقتمام مجالس شيوخ الأمصار، سيما وأن أحمد السوسي كان قد غادر القبيلة بعد أن أيقظ فيه حماس مغادرة منزله، وليس ببعيد أن يكون علي وارث وأحمد الراسي وأحمد الفلالي، ممن شجعوه على الخروج من بلدته إلى مدينة فاس حوالي 1002 أو 1003، حسبما تذكر هو.

غير أن هذه الرحلة لم تدم كما كان يتمناه، فمكوثه بفاس لم يزد على ثلاث سنوات، جلس أثناءها للشيخ حسن بن محمد الدرعي الدراوي، ليختم عليه ختمة واحدة من القرآن، ويتعلم عليه مزيدا من النحو والفقه. ولم يسم لنا البطوئي أحدا غير الدراوي من العلماء، إذ أنه غادر المدينة قبل وفاة شيخه بالوباء عام 1006 هـ، وقد يكون ظهور هذا الداء سببا من أسباب تقصير مدة تلك الزيارة، وقصر تلك المدة هو الذي جعل من هذه الرحلة صورة لا تختلف عن مرحلة تكوينه الأولي ببلدته.

رحلة البطوئي إلى تلمسان :

كانت هذه الرحمة حدثا رئيسيا في حياة عيسى البطوئي، ومرحلة إيجابية في تكوينه الديني والأدبي. بفضل احتكاكاته العلمية واتصالاته الشخصية بالعديد من رجال العلم بحاضرة الغرب الجزائري، تلمسان، وباعتبار النتيجة المرفقة التي عاد بها إلى قبيلته بعد غياب استغرق سنين عديدة.

وحتى يتسنى لنا تحديد تاريخ التحاقه بتلمسان

---

21) مركز وردان واقع على الصفة اليسرى لواد وردان بني أولشك بالمكان المعروف حاليا باغبال.

22) قبره بسايت وارث (أورتين) مقبرة المنصورة التي تضم وفاة المجاهدين الذين سقطوا أمام أسوار مدينة غساسة أثناء تواجد الإسبان بالمدينة ما بين 912 هـ و939 هـ.

استعنابا لبيانات الواردة في مؤلفه، من اتصاله بالسيد عاشور الجاديدي (23) وسعيد المقوي (24)، فتبين أنه لم يتأخر كثيرا بعد تراجعه عن مدينة فاس ويؤكد هذا ما يحكيه عن مناسبة جمعت بينه وبين صديقه أحمد بن ونيس الحلافي بجبال ترارة الجزائرية. إثر مغادرته لتلمسان، التي كان قد دخلها قبل ذلك واجتمع فيها بالشيخ أبي زيان بن أحمد المعروف بالجراري، ولا نعلم بالأسباب التي الجأت عيسى إلى الانتقال من تلمسان إلى ترارة، ربما كان ذلك بحثا عمن يساعده من ظروف العيش وعلى ضمان مكونته قريبا من المدينة، لأنه أخبرنا بعمله «مشارطا» في قرية «حجاجة».

فليس من المألوف لدى البطوئي أن يؤرخ لأهم الأحداث التي مرت به، وبمحض الصدفة سجل لنا مراسلة تبردلت بين رفيقه الحلافي وسعيد المقري، يلتمس فيها من مفتي الديار التلمسانية الاستجابة لرغبة القراءة عليه، وكانت فرحة الرفيقين عظيمة، حينما أجاب المفتي بما يطمئنهما في 15 ربيع الأول من عام 1008 هـ.

وبالطبع فإن الدعوة كانت تعني البطوئي أيضا (25)، لذلك نراه يغادر مدشر مجاجة في اتجاه تلمسان برفقة صديقه، وتكون هذه الزيارة هي الثانية بالنسبة إليه، وستختلف عن الأولى بطول مدتها وبنتائجها الحميدة وبتعدد شيوخه الذين اتصل بهم بمعية أحمد الحلافي، وكان هذا الأخير تلمسانيا سبق له أن قام بمحاولات من هذا القبيل (26).

ألفت قائمة شيوخ البطوئي بتلمسان من تسعة عشر شيخا من مختلف الكفاءات، وهو عدد يتناسب مع المدة الطويلة التي قضاها في المدينة، نقدر أنها تراوحت بين 1008 وهو تاريخ التحاقه الثاني بها، وما قبل 1025 هـ وهو التاريخ الذي كان فيه محمد بن مريم على قيد الحياة، إلا أننا لا نعرف على أغلب هؤلاء الشيوخ سوى النزر القليل، مما أفادنا به عنهم، باستثناء المقري وابن مريم، كما أننا لم نتوصل إلى خبط الترقيب الذي سلكه في اتصالاته بكل تأكيد، إلا إذا اعتمدنا التسلسل الذي استعرض به أسماءهم، ويوجد في مقدمة هؤلاء محمد بن مريم، على أننا نعتقد أن المنطق يفرض علينا أن نضع في تلك المقدمة مفتى تلمسان سعيد المقري، بسبب الدعوة التي وجهها إلى أحمد الحلافي.

سجل لنا البطوئي ارتسامات مختلفة عن شيوخه، دلت على تقدير واحترام كبيرين لمكانتهم في المجال العلمي، ومرتبتهم في الوسط الاجتماعي، فمن هؤلاء :

- إثنان أدركهما في آخر عمرهما، وفي أول دخوله إلى تلمسان، فاكتفى بالقول إنه تبرك بالجلوس معهما، الأول منهما المدعو محمد أبركان» الذي قيل إنه بلغ القطبانية وهي أعلى مراتب التربية الصوفية، وثانيهما السيد «عامر» رفيق ابن مريم في الأخذ عن محمد بن داود العطافي.

- واثنان آخر ان اعتقد البطوئي، علاوة على منزلتهما العلمية، إنهما اختصابا لمكاشفات مما دلت عليه تجربته معها، فهذا محمد عاشور الجاديري نهاه عن طلب ما كان يرغب فيه من أحمد المنصور السعدي بواسطته، وعد له طلبه في مرتبة «الرعونات البشرية». أما الثاني فهو أحمد الولهامي الذي رده عن التزوج بامرأة معلومة، أقبل على استشارته في أمرها.

وتتألف باقي القائمة من شيوخ اشتهروا في تلمسان بباعهم في التدريس، كما أخبرنا بأصناف الموضوعات التي قرأها عليهم، ففي هذا المضار اتصل بسعيد المقري منذ البداية التي حل فيها بتلمسان ويقول عنه : «حضرت عنده عقيدة السنوسي الكبرى إلى ختمها، ووصفه بحسن الخلق والوقار والتواضع.

ولنفس الغاية جلس لمحمد الغشوي، ربما بعد وفاة المقري، ولازم مجلسه مدة غير يسيرة يقول عنه : «كنا نختم عليه مختصر خليل والرسالة الألفية كل شتوة، مع مداومة عقائد السنوسي، يجلس للاقراء من الصباح إلى الزوال».

---

23) محمد عاشور بن علي الجاديري التلمساني، توفي 1014 هـ حسب بستان ابن مريم، صفحة 260.

24) سعيد المقري، توفي 1010 هـ.

25) قال البطوئي : «فلما بلغني جوابه فرحت به فرحا شديدا...».

26) خص عيسى البطوئي رفيقه أحمد الحلافي بترجمة تخليدا للصداقة التي استمرت بعد عودته إلى بني سعيد.

وممن نال تقديره محمد المستيري، كان ورعا وزاهدا متفننا في عدد من العلوم، حضر جملة من دروسه بمسجد تلمسان، إلى أن أصيب بمرض أقعده وأرغمه على لزوم داره، وهو ما يزال في شبابه، مما حمل البطوئي على التردد عليه إلى حين وفاته، وشهد بالكفاءة العلمية والولاية في الأمور الدينية لمحمد البطحي، أحد تلامذة ابن مريم، قرأ عليه الألفية والعقائد.

هناك مجموعة من شيوخ البطوئي، اكتفى باستعراض أسمائهم والتذكير ببعض الصفات الدالة على التقدير والاطزاء، فمن هؤلاء شيخه مسعود النايلي الذي «كان كثير التواضع والمزاح مع الأصحاب»، وعبد الله بن عبد الرحمن اليعقوبي، صاحب ندرومة، وابنه محمد والسيد إبراهيم التافلتي وابنه صالح وأبو شامة ومحمد بن يحيى المطغريان.

لن نكون بعيدين عن واقع الأمر، حينما نقدر أن البطوئي، كان قد طرق باب الصلبة مع شيخه محمد بن مريم المليتي التلمساني، المؤرخ الفقيه المتصوف، كان منزله «بالحناية»، شمال تلمسان، ويغلب الظن أن هذه الصلة نشأت بالتدريج، أثناء تردده على مختلف مجالس علماء تلمسان، ولن نستبعد أن يكون تلامذة الشيخ المليتي هم الذين فتحوا لي مجال الاتصال، ونعني بهم تلميذه محمدا البطحي.

وما نحن متأكدون منه، أن ابن مريم خص البطوئي بعنايته، وسرعان ما تطورت تلك العناية إلى صلة وثقى، دفعته إلى التصريح لابنه محمد الصغير : «إنك عندي وعيسى سواء... وإن عيسى عندي أرجح منك». وقد مكننا عيسى من معرفة سبب تلك الإلتفاتة التي استحقها من شيخه :

«كان رضي الله عنه شديد الحب إلينا ولا خينا أحمد بن ونيس، مهتبلا بشأننا، ظنا منه أنه سيجيئ منا شيء...».

وأسر إلينا من جهة ثانية بالغاية التي توخاها من تقربه إليه : «ذلك أنني أتيته أريد التعلق بأذياله الزكية، والاقتباس من أنواره الطاهرة الجلية والاستنصار بهمته العالية والدخول في دائرته المحمدية، والانتساب لنسبته السنية، وأريد أن يكتب لي عهدا موفيا ليكون لحبل وصلي به مقويا».

يخبرنا البطوئي أنه فاجأ شيخه بهذا الطلب، فانقبض عنه مليا، ثم تبين أن لم يكن لدين ما يبرر انقباضه فلم يسعد سوى أن لبى له مطلبه وكتب بيده :

«ليعلم من يقف على مكتوبنا هذا من أهل الدين والفضل والصلاح، بأن الشاب الأمجد الأسعد، وفقنا الله وإياه لصالح العقل، السيد الفقيه، سيدي عيسى بن محمد بن يحيى البطوئي، له مالنا وعليه ما علينا، هو من أولادنا، ختم لنا الله وإياه بالحسنى، وكلمتي الشهادة عند الممات، تجاه النبي وءاله وصحبه، فمن ءاذاه وتسبب في إذايته، فلا يلومن إلا نفسه، وعلى الله المعتمد والتكلان، وكاتب الحروف عبيد الله سبحانه أصغر عبيده محمد بن محمد بن مريم الشريف المليتي، كان الله له وليا ونصيرا مسلما على من يقف عليه».

لسنا ندري بالضبط في تحقق هذا الفوز الذي علق عليه عيسى البطوئي أملا كبيرا في آخر لحظة من لحظات رحلته، ولتقريب ذلك التأريخ إلى اذهانا، سعينا إلى ربطه بوفاة شيخه ابن مريم، غير أنه لم يشر أن تاريخ تلك الوفاة، رغم أنه قدم لنا وعدا بذلك، حينما شرع من كتابة المناقب، مما يدعو إلى الاستغراب.

وما هو ثابت في علمنا، من خلال تتبع تراجم علماء تلمسان أن ابن مريم كان حيا سنة 1014 هـ، وهي السنة التي ختم فيها مؤلفه «البستان». غير أنه تبين أن عمره امتداد ما بعد 1025 هـ (27). ويتفق هذا مع ما استنتجناه من كتابات البطوئي، فالواضح لدينا أنه بادر إلى مغادرة تلمسان إثر توصله باعتراف من شيخه. في اتجاه منزله تيزي عدنيت.

وإذا اقتفينا أثره بعد ذلك في بلدته، فإننا نجده قد حث السير مرة أخرى لقطع المراحل إلى مدشر الحناية، بمجرد ما بلغه خبر وفاة شيخه المليتي، واستخبر هناك أنه تفقده حينما دنا منه أجله، وتمنى حضوره تقديرا لمنزلته لديه (28).

---

27) عادل نويهض في «معجم أعلام الجزائر ص 292.

28) قال ابن مريم لابنه محمد : «... لو كان عيسى البطوئي وأحمد بن ونيس ما غلبني غيرهما».

وما نفهمه من تذكر الشيخ لتلميذه أن زمن افتراقهما كان قريبا جدا في حادث الوفاة، وما كان ليتسم هذا التذكر به بتلك الرغبة، لو أنه مضى وقت طويل على ذلك الفراق يمتد مثلا إلى بضع سنين.

وما هو مؤكد لدينا أيضا أن البطوئي كان بعد رحيله عن تلمسان بـكناه يبني سعيد وبتصريح منه سنة 1028 هـ، كان تيزي عدنيت حينما وقعت غزوة بين مجاهدي قلعية وجنود مليلية (29)، وهو ما زال متأثرا بفقدان شيخه، ينتظر وصول المناقب التي وعد بها بإرسالها إليه محمد الصغير، تمهيدا لفكرة جمع المعلومات ممن لقيهم من ذوي أهل الفضل والصلاح. ويشجعنا هذا على أن نقرر أن وفاة ابن مريم المجهولة لحد الآن، كانت خلال فترة متراوحة بين 1025 هـ و1028 هـ، ومن خلال ذلك نتأكد أن تاريخ إجازة البطوئي وعودته إلى بن سعيد لم يبتعدا كثيرا عن التاريخ الذي كان فيه شيخه ما زال على قيد الحياة.

وحسبنا في ختام هذه الجولة الأولى مع عيسى البطوئي، أن نطرح على بساط البحث، عدة تساؤلات متعلقة بالنتائج التي أسفر عنها استقراره بتلمسان تلك الجولة التي تجاوزت حسب تقديرنا خمسة عشر عاما، كان خلالها قد بنى بعض أسس حياته بها (30)، ولا أريد أن أتجرأ في هذا الصدد للبحث عن المستوى العلمي التي توجبه نهاية رحلته، وسيعبر عن هذا مجهوده في التأليف أصدق تعبير، ويكفي هنا أن نستعيد إلى الذاكرة الميزة التي اظفاها عليه شيخه ابن مريم، حين نعته «بالفقيه»، وهي مرتبة لها دلالتها في الوسط الثقافي آنذاك.

إننا نلمس في تقديم مراحل تكوين عيسى البطوئي من خلال نصوصه، نموذجا أصيلا لطرق ارتشاق البوادي الريفية من علوم مدينتي فاس وتلمسان (31)، وهما مركزان رئيسيان للاقتباس الثقافي بالنسبة لقبائل الريف الشرقي، ولا أدل على ذلك مما نصادفه في كتب التراجم من البطوئيين الذي كان لهم مقام مرموق بالمدينتين.

والبطوئي من جهة ثانية نموذج آخر من الذين وهبوا كفاءاتهم وعملهم لتوعية البوادي الريفية، بما عزم عليه من محاربة البدع المنتشرة آنذاك بالبادية، ومن الوقوف في وجه كل من سولت له نفسه بانتحال التصوف عن جهل أو عن اعتقاد منحرف، وأيضا بما فكر فيه من أداء واجبه وتخليص نفسه. وقد تبلورت هذه الفكرة في ظهور مؤلفه، مطلب الفوز والفلاح».

ومن المنطق أن نلاحظ كذلك أن علاقة عضوية كانت قد نشأت بين مدشري الحناية وتيزي عدنيت، مما كان له أبلغ الأثر على تبني مسجد بني سعيد للاتجاه الصوفي التلمساني التي يجسده ابن مريم، ويمثله عيسى البطوئي بالريف الشرقي. وتوضح الفقرة المقتبسة من مطلب الفوز هذا التواصل بجلاء : قد من الله علينا بملاقات الشيخ الإمام الصوفي الهمام، فتمتعت النفس والعين من مشاهدته ومن جميل لقائه، وتزودت منه ما ينفعني الله به دنيا وأخرى من جليل علومه وأمواله».

وما يحملنا على تأكيد هذا وعلى استمراره، هو وجود فقرة أخرى ضمن رسالة جوابية بعث بها محمد الصغير، يخبر فيها صديقه البطوئي : «... مقام الأخ الشقيق سيدي عيسى البطوئي... وما ذكرتم في شأن مناقب السيد الوالد، فانا إن شاء الله مشتغل بها، تصلكم إن شاء الله، وسلم لنا على سيدي أحمد بن إبراهيم (الراسي) وعلى سيدي إسماعيل وعلى كافة إخواننا الطلبة» (32).

ومجرد الإشارة إلى وجوه زمرة من الطلبة، دليل واضح على إثبات تلك الصلة، وتأكيد أيضا على استمرار عمل مسجد تيزي عدنيت كمركز للثقافة الدينية ببطوية، وهذه المرة تحت توجيه عيسى البطوئي وإشرافه، ولا أدل على ذلك في القائمة التي خصها فقيه بني سعيد لأهل الفضل والصلاح، موضوعات ستكون محور دراسة تالية بحول الله.

حسن الفكيكي

---

29) يقول البطوئي : «أغار كفار مليلة على القلعية، تمكن الله منهم فهلك فهم من بين أسير وقتيل نحو من 220 كافرا، ولم يفلت منهم إلا القليل في الخيل، وأما الرجالة فقد استاصلوها، وذلك عام 1028 هـ، ونحن ببطوية بالسكنى».

30) نقصد بذلك اهتمامه بالعمل الفلاحي وبعزمه على الزواج.

31) كتب التراجم زاخرة بأسماء البطوئين سواء في تلمسان أو فاس.

32) الرسالة لا تحل تاريخا، حررت على ما يظهر بعد وفاة ابن مريم بوقت وجيز.

حول ثبت العلامة

أحمد البلوي الوادي آشي

للدكتور عبد الله العمراني

تفضل صديقنا الأستاذ الدكتور محمد ابن شريفة، فنشر عرضا لمخطوط (الثبت) الذي قمت بدراسته وتحقيقه، وتبنت نشره (الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر)، وتولت طبعه ببيروت (دار الغرب الإسلامي). ولم يكتف الصديق بعرض الكتاب، بل قام بنقده طبقا لخطة المجلة. وبذلك رأيتني ملزما ـ أدبيا ـ بتحرير هذه المقالة. لقد كان الدكتور ـ والحق يقال ـ لطيفا في عرضه، جريئا في نقده، واثقا في أقواله وافتراضاته. ولعل هذا مما يؤهله له مركزه الأدبي كأستاذ جامعي، وعميد لكلية الآداب.

استهل الدكتور ابن شريفة عرضه بالحديث عن أهمية كتب الفهارس والأثبات ووجوب العناية بدراستها وتحقيقها ونشرها، مشيرا في هذا المجال إلى ما سماه «البحث الرائد لأستاذنا المرحوم الدكتور عبد العزيز الأهواني». وهو بحث عرفته من قبل، واطلعت عليه وأشرت إليه في الدراسة... والحديث عن الدكتور الأهواني يعود بذاكرتي إلى سنين خلت، إلى أيام طلب العلم في القاهرة المعزية، حيث كنت تعرفت عليه لأول مرة في مكتبة كلية الآداب بجامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول آنذاك). كنت ذهبت إلى هذه المكتبة فلفت نظري وجود كتاب (الذخيرة) لابن بسام، فطلبته، كما طلب الحاضرون كتبا أخرى، ولكن انتظاري ـ دونهم ـ طال، لدرجة أقلقتني، فذهبت أستفسر قيم المكتبة، فطمأنني قائلا : سيأتيك الكتاب.

وبعد هنيهة جاءني رجلان يحملان بينهما مجلدا ضخما هو عبارة عن النسخة المصورة ـ تصويرا فتوغرافيا ـ من كتاب الذخيرة. وكان أحد الرجلين الأستاذ عبد العزيز الأهواني الذي كان يحضر حينئذ رسالته الجامعية لنيل الدكتوراه. في هذا الحرم الجامعي ـ إذن تم التعارف بيننا، وتوالت اللقاءات بعد ذلك، وكان من بينها لقاء (رأس البر) المصيف الطبيعي الجميل الذي كان يقصده إذ ذاك عظماء ومفكرون وفنانون، بدلا من مصيف الاسكندرية الذي كان مهددا بغارات (المحور) الجوية.

وبالمناسبة أجدني هنا مطالبا بذكر حقيقة علمية أدبية، ذلك أني بعد رجوعي إلى تطوان، أخبرني ـ ذات يوم ـ باشا المدينة الأسبق السيد اليزيد ابن صالح، أن

مخطوطة الذخيرة هذه، كانت ملكا له، بيد أن صديقا لـه ـ ذكر لي إسمه ـ أخذها منه، وباعها للمستشرق الفرنسي ليڤي بروفنصال، وهذا باعها ـ بدوره ـ إلى كلية الآداب القاهرية التي طبعتها ونشرتها.

ولنرجع إلى (العرض) لنجد الدكتور يورد نص قصيدة للفقيه عبد الكريم القيسي، ويود لو كنا أتينا بها جزءا متمما لترجمة والد المؤلف أبي الحسن على البلوي، فالقصيدة تصور المكانة الاجتماعية التي كان يتمتع بها في بلده ومنطقته، وتنص على أنه قدم بلد بسطة في أعقاب فتنة خطيرة، وحرب صعبة، نشبت بين أهلها، أطال الشاعر في وصف أهوالها وأضرارها، فنجح يعني أبا الحسن) في إعادة الأمن إليها، وأفلح في إصلاح ذات البين بين أهلها.

وفي الحق أنى حين إعداد الكتاب ـ بالإسبانية أولا ـ لم أكن لأثبتها في ترجمة والد المؤلف، وذلك للسببين التاليين :

1 ـ أن القصيدة لم تقل في مؤلف (الثبت)، وقيلت في والده الذي أبت علينا «المنهجية» أن نورد فيه أكثر مما أورده مترجموه وولده المؤلف في ترجمته، وأعتقد أن في ذلك كل الكفاية.

2 ـ أن القصيدة على ما بها من ركاكة أسلوب، وقصور خيال، لا تخلو من مبالغة في القول، ومغالاة في الوصف يجعلانها بعيدة عن روح الصدق، عاجزة عن استهواء القارئ وإحراز ثقته. ذلك أن كثيرا من عباراتها تكاد تكون جوفاء فارغة من معانيها الحقة فراغ فؤاد أم موسى... أن عبارات «الفتنة العظيمة»، و«الضرب والطعن»، و«الصوارم والرماح»، و«الحرب الصعبة»، و«قعقعة السلاح»، و«سفك الدم» وغيرها تكاد توحي بأن القيامة قامت، أو أن العالم أوشك على الفناء، بينما الأمر لا يعدو أن يكون شقاق نشب بين الأخوة أو الأسر المتساكنة فاستدعى من أحد المصلحين الاجتماعيين، وصلحاء المؤمنين المتقين، بذل مساعيه الحميدة لإصلاح ذات البين، حقنا للدماء، وتنفيذا لأوامر الله عز وجل : ﴿**فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم**﴾ (الأنفال : 1)، ﴿**إنما المومنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون**﴾، (الحجرات 10).

بناء على ما تقدم، نعتقد أن عمل أبي الحسن هذا كان تطوعا منه ولم يكن بتكليف من السلطان كما نعتقد أن أبا الحسن لم يتول قضاء بسطة، ولم يعتذر عنه، كما افترض الدكتور قياسا على توليه قضاء الجماعة بغرناطة ثم تورعه عنه بعد شهر، وذلك لسبب بسيط هو أن أيا من مترجميه (بكسر الجيم) بما فيهم ابنه، لم يذكروا أنه تولى قضاء بسطة. ثم إنه لو كان تولاه ثم اعتذر عنه، لكان اعتذاره مسوغا كافيا لعدم إسناد منصب قضاء الجماعة إليه. علاوة على ذلك فشيوخه المجيزون له، لم يصفوه ـ أو أحدهم ـ بالقاضي، رغم أنهم في العادة يكونون أشد حرصا على تحلية مستجيزيهم بهذه الصفة التي تنم عن كفاءة تلاميذهم وقدرتهم على تحمل مسئولية الفصل بين الناس.

ويحسب الدكتور ابن شريفة أني سهوت حين تحدثت عن عصر البلوى «فنقلت من (نفح الطيب) كلاما في وصف عناية أهل الأندلس بالعلوم، ونسبته إلى المقري، واعتبرته شهادة تخص مملكة غرناطة قبل غيرها». ثم يعقب على هذا قائلا : «والواقع أن الكلام المذكور إنما هو فقرة من نص طويل لابن سعيد العنسي ونقله المقري، ومن ثم فإنه لا يتعلق بعصر البلوي».

أن بني سعيد المنتسبين للمغرب، والمؤلفين ـ بالتتابع ـ للموسوعة التاريخية (كتاب فلك الأرب، المحيط بحلى لسان العرب) كانوا أكثر من واحد. ولنفرض أن آخرهم أبا الحسن عليا (ت 673 هـ / 1274م) هو المقصود، فلماذا حينئذ نقل المقري كلام ابن سعيد عند تأريخه لابن الخطيب (ت 776 / 1374م) والمسافة الزمنية بين الإثنين قرن من الزمان أو تزيد ؟ أليست هذه المسافة الزمنية هي تقريبا نفس المدة التي تنفصل بين حياة ابن الخطيب وحياة أبي جعفر أحمد البلوي ؟ أم أن المقري كان ساهيا ـ أيضا ـ حين نقل كلام ابن سعيد وهو لا ينطبق ـ في رأي الدكتور ـ على عصر ابن الخطيب.

لا نعلم أحدا من مؤرخي الأدب أو نقاده، اعترض على المقري، حينما أرخ لابن الخطيب، فذكر لنا كل ما يتعلق بالأندلس والأندلسيين، ولم يدع صغيرة ولا كبيرة في البيئة الطبيعية والاجتماعية للفردوس المفقود إلا أحصاها. تجلية لعصر ابن الخطيب، وإحاطة بكافة أطراف

الموضوع. أن العصر واحد، والبلد واحد، والأمة واحدة، وأن قرنا من الزمان أو اثنين أو ثلاثة أو أكثر لا تؤثر في عقلية الشعوب، ومزاجها، وروحها، بتبديل أو تغيير كبير. ويعجبني في هذا المجال قول مؤرخ الحضارات الدكتور غوستاف لوبون (2) (1841 ـ 1931) :

«أخص ما استجليته من سياحاتي البعيدة في البلاد المختلفة، هو أن لكل أمة مزاجا عقليا ثابتا كثبات خواصها التشريحية. وهذا المزاج هو الذي تصدر عنه مشاعرها وأفكارها ونظاماتها ومعتقداتها وفنونها». ثم يقول : «وما حياة الأمة ـ أعني نظاماتها، ومعتقداتها، وفنونها، إلا اللحمة الظاهرة من نسيج روحها. ولا يتسنى لأمة أن تغير نظاماتها، أو معتقداتها، أو فنونها، إلا إذا غيرت روحها».

تلك ملاحظات الأخ الدكتور ابن شريفة على (الدراسة) التي قمنا بها لمخطوطة (الثبت)، وهذه مناقشاتنا لها وأجوبتنا عليها. أما ملاحظاته على (التحقيق) فتتجلى في الآتي :

الجعداله

لقب ثان عرف به العلامة محمد بن أحمد بن محمد السلمي، وهو بفتح الجيم كما هو مثبت عندنا في «الأصل»، أما الكسرة الطارئة عند الطبع فكانت غلطة مطبعية ندت عن نظرنا أثناء التصحيح، نظرا لسرعة وضيق في الوقت يعرفهما جيدا صديقنا الأستاذ الدكتور محمد حجي. ثم يوجه الدكتور ابن شريفة هذا اللقب، فيقول : «إنه الإسم العربي (الجعد)، ألحقت بآخره لام مشددة مضمومة، وهاء ساكنة للدلالة على التصغير. وهذا شيء معروف في كلام أهل الأندلس».

لا شك أن الدكتور ابن شريفة في تأصيله لهذا اللقب، اعتمد على قول الشاعر عبد الكريم القيسي في صاحبه :

يـــا سليـل القضـــاة من آل (جعـــد)

منتهى العلم والـــذكـــا والنجـــابـــه

ولكن هذا البيت لا يقوم حجة دامغة على أن (الجعداله) هي تصغير (جعد)، فتصغير (جعد) هو (جعيد)، وهي أحلى جرسا، وأدق صناعة من (الجعداله) إذا سلمنا أنها مصغرة. ثم إن علماء اللغة والنسابين يعرفون جيدا أن كلتا الكلمتين (جعد + جعيد) سمي بهما، وجميع المغاربة يدرون أن (الجعيدي) بالتصغير وياء النسب لقب لعائلة مغربية معروفة، فلماذا نحاول أن نأتي بما لم يات به الأوائل ؟ ولماذا لا يكون اللقب جامدا مرتجلا (على الطريقة الأندلسية الدارجية) لا مشتقا منقولا ؟ وإذا كان مشتقا منقولا فلماذا لا نشتقه من (جعدة) وهي :

1 ـ إسم لنبات وثمر معروفين في بعض جهات الشمال المغربي حتى الآن، وخاصة في (تطوان) ونواحيها، أما في الجنوب المغربي وبعض جهات الشمال فيطلق عليهما إسم (خيزو).

2 ـ إسم لحي عربي معروف ينسبون إلى جعدة بن كعب بن ربيعة. ومنه ينحدر الشاعر العربي المعروف النابغة الجعدي، فهو أبو ليلى حسان بن قيس بن عبد الله ابن عمرو بن عدس بن ربيعة بن جعدة. وهنا نشير إلى أن عالم الأنساب ابن حزم القرطبي (3)، ينص على أن طائفة من بني جعدة هؤلاء، كانوا رحلوا إلى الأندلس واستوطنوها ويبرر الدكتور ابن شريفة مفهومه في تصغير (الجعد) فيقول : «وهذا شيء معروف في كلام أهل الأندلس» وهو لاشك يعني مسلمي الأندلس الذين ساكنوا مسيحييها وأثروا فيهم ـ لغويا ـ وتأثروا بهم. لكن بالرجوع إلى قواعد اللغة الإسبانية نجد صيغ التصغير فيها عشرا، أربع منها كثيرة الاستعمال، وست منها أقل استعمالا، فالأربع الأولى هي عبارة عن لواحق : Sufijos تضاف إلى الكلمة المراد تصغيرها، وهي :

.Uelo - Ico - Ito - Illo

أما الصيغ الست الأخرى فلواحقها هي :

.Cito - Ino - Ino - Ete - In - Ijo

وواضح أن أيا من هذه الصيغ العشر، لا تتطابق مع (الجعداله). ولو كانت الكلمة وردت في (الثبت) على هذه الشاكلة : (الجعديله) لقلنا إن الكلمة مصغرة عن (الجعد)، لحقتها اللاحقة الأولى Illo وألحقنا بها الهاء الساكنة عوضا عن الواو الأعجمية، كما فعلنا في لقب الإمام الشاطبي Fierro حين حولنا واوه الأعجمية إلى هاء ساكنة فصارت (فيره). والكلمة تعني (الحديد) في اللسان القشتالي القديم.

وكان في الإمكان أيضا أن نجعل لقب الجعديله ـ لو ورد في (الثبت) هكذا منسوبا إلى (الجعد) أيضا، فتكون اللام المضمومة والهاء الساكنة مقلوبتين عن ياء النسب المضمومة، ولكن شيئا من ذلك لم يقع.

الزليجي

لقب مهني للعلامة عبد الله بن إبراهيم الجابري. ورد في (الثبت) مصحفا إلى الزيعجي. ولعل الدكتور رأى لنا في ذلك عذرا حين قال في عرضه : «وقد تقف خلال الكتاب على هفوات يسيرة، ولعلها سبق قلم أو خطأ مطبعي».

والزليجي : منسوب إلى صانع الزليج أو بائعه. والزليج (بتخفيف اللام) يعني في اللغة الزلق، وفي الاصطلاح المغربي والأندلسي هو عبارة عن آجر صغير الحجم، زجاجي الملمس، متنوع الألوان، يستعمل عادة في «تلبيس» الأفاريز والأجزاء السفلى من الغرف والسواري. وفي المشرق يقال للزليج القاشاني أو القيشاني، أما في إسبانيا فيعرف باسم : Azulejo.

الطراس

ثم تطرق الدكتور ابن شريفة إلى الحديث عن كلمة (الطراس) الواردة في ص. 14 أ من المخطوط، وقال عنها إني «تمحلت لها توجيهات بعيدة، بينما الكلمة في الأصل تقرأ (الطرائد) بوضوح». وهنا أقول للأخ الكريم إن بعض كلمات المخطوط كانت قراءتها الصحيحة تتطلب مني أياما بل أسابيع، ومن غير المعقول أن أنفق مثل هذه المدة في كلمة تقرأ بوضوح.

ثم يفسر الدكتور كلمة (الطرائد) بأنها مراكب بحرية معروفة، وأزيد أنها كانت في القديم تستعمل في نقل أنواع كثيرة من الذخيرة والأسلحة، كما كانت تستطيع حمل حوالي أربعين فارسا بخيولهم وعتادهم الحربي. ولكن ألم يفكر الأخ في أن صيغة (الطرائد) جمع تكسير، وتفيد الكثرة، وأن الشيخ الجابري ـ أو غيره ـ لا يمكنه أن يركب في آن واحد، أكثر من سفينة واحدة ؟ وأرى أن مؤلف (الثبت) لو أراد أن يعبر حسبما يراه الدكتور، لقال عن الجابري : إنه توجه إلى تونس من بلنسية في (الطراد). فالطراد كلمة عربية صميمة معروفة لحد الآن، وهو سفينة صغيرة سريعة.

لهذه الاعتبارات، ينبغي أن نقرأ (الطراس) لا (الطرائد)، فالكلمة الأولى هي التي تقرأ بوضوح.

طبقات القراء

للمقرئ الشهير العلامة الشجري كتاب (غاية النهاية في طبقات القراء). أثناء الطباعة تحرفت كلمة (القراء) إلى (الفقهاء). ويدل على التحريف ما يلي :

1) أن عنوان الكتاب ورد سليما صحيحا في (الأصل المطبوع، وفي فهرس الكتب الواردة في المتون (ص. 550) وفي فهرس المراجع (ص. 560).

2) أن التعليق 2 بصفحة 126 من (الثبت) يقول عن (الشجري) ما قاله فيه مترجموه من أنه «لم يكن له في الفقه معرفة»، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن أن ننتظر من غير الفقيه أن يؤلف في طبقات الفقهاء ؟ الغلطة إذن مطبعية، ندت عن بصرنا أثناء التصحيح فلم نتمكن من إصلاحها.

ابن الصانع

هو لقب العلامة الراوي عن القاضي عياض : أبي زكرياء (وأبي الحسين) يحيى بن محمد بن علي بن الصانع. ورد اللقب هكذا في مخطوطة (الثبت) ثلاث مرات، مرة في ص. 19 أو ص. 24 أو ص. 41 ب، كما ورد في مخطوطة ابن غازي (التعلل برسوم الاسناد...) بخطه هو وخط غيره من الناسخين، غير أن بعض هؤلاء، غلط فحرف اللقب إلى (ابن الصائغ) على أن ابن غازي نفسه قام بهذا التحريف ولكن بطريقة معكوسة، ذلك أنه في ص. 7 أ من مخطوطه حرف لقب محمد بن أحمد بن عبد الخالق الصائغ إلى (الصانع)، وقد صححت ذلك في التعليق 24 الوارد في ص. 469 من (الثبت).

أقول هذا، لأن الدكتور فيما أعتقد ما زال مصمما على أنه (ابن الصائغ) لا (ابن الصانع)، استنادا إلى ما ورد في (الذيل والتكملة) لابن عبد الملك المراكشي. وهنا أؤكد أن

قراءاتنا الكثيرة المتوالية، علمتنا أن ليس كل ما يرد مطبوعا في صحيفة أو كتاب يكون صحيحا جديرا بثقة الباحث. وهنا أشير كذلك إلى أن كتاباتنا تحرف بعض كلماتها قصدا، لأن بعض المصففين بالمطبعة يعتقدون أن الكاتب أخطأ، والتجارب في هذا كثيرة.

هذا، والصائغ من يعالج الذهب والفضة ونحوهما فيصنع منها حليا وأواني. أما الصانع فهو كل من يصنع بيديه شيئا. وتحمل كلمة (الصانع) في تطوان ـ التي لا يفصلها عن سبتة، مقر القاضي عياض، غير 40 كيلومترا ـ معنى خاصا، ذلك أن الصانع هو معلم الفرن، أما صبيه فيعرف بـ (الطَّرّاح) ومن المعلوم أن النسبة إلى الصنائع والمهن المختلفة شيء موجود في جميع اللغات والآداب العالمية.

كلمة (ملحقات)

ومن الأخطاء المطبعية كلمة (محلقات) التي وردت في ص. 453، ولكنها وردت بعد ذلك في ص. 582 صحيحة سليمة.

اقتراح فهرس للآيات والأحاديث

حبذ الدكتور ابن شريفة وجود فهرس آخر للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فاقترح علينا أن لو كنا أضفناه إلى باقي الفهارس التي يزخر بها الكتاب. الاقتراح في حد ذاته وجيه، ولكنا وجدنا ذلك من الصعوبة بمكان لكثرة الآيات والأحاديث، واكتفينا بـ (الفهرس التحليلي للموضوعات) ففيه غنية.

لوحات المخطوط

آخر فهرس أتينا به بعد (الفهرس التحليلي للموضوعات)، هو ـ كما اثبتناه في «الأصل» المطبوع : ـ (فهرس لرسوم إيضاحية وخرائط تاريخية) فقط. ولكن، يبدو أن الطابع أو الناشر ـ وله كل الحق ـ زاد : (ولوحات من المخطوط «الثبت»).

بيد أني عند التصحيح، لم أجد أية ملاحظة مكتوبة، تشير إلى الزيادة، ولذلك لم أنتبه إليها. ولا ريب أن الزيادة ـ رغم التكاليف ـ كانت، كما أشار الدكتور، ستكون مفيدة، لأننا كنا سنتعرف فيها على خطوط لعلماء (العدوتين) وشيوخهما، يرجع عهدها إلى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).

ولعلنا نتدارك الأمر في طبعة قادمة إن شاء الله.

مسك ختام

وختاما، أزجي شكري للأخ الأستاذ الدكتور ابن شريفة على ما بذل في عرضه ونقده من جهد مشكور، إذ لولا ذاك الجهد لما كان هذا الحوار العلمي الأخوي الممتع.

تطوان : الدكتور عبد الله العمراني

1) المجلة البيبليوغرافية النقدية (الكتاب المغربي)، عدد مارس 1984 الصفحات : 151 ـ 155.

2) راجع كتابه (سر تطور الأمم) تعريب أحمد فتحي زغلول (باشا).

3) انظر (جمهرة أنساب العرب) : تحقيق ليفي بروفنصال، ص. 272.

كتاب "نفح الطيب"

من أفضل الكتب التي حققت الصلة الثقافية بين المشرق والمغرب

للأستاذ
أبو محمد

مقدمة

هذا كتاب ظفر بالمكانة المرموقة، وحظي بالشهرة البعيدة وصادفه الحظ وواتاه التوفيق، ونعم بالرواج والذيوع، ولو لم يكن لصاحبه إلا هو لكفاه ذلك فضلا وفخرا، إنه كتاب نفح الطيب، للإمام الحافظ، والمؤرخ الأديب شهاب الدين أحمد المقري، التلمساني المالكي القرشي، نزيل فاس ثم القاهرة رحمه الله تعالى، وهناك كتاب آخر يعد صنوا للنفح زاد شهرة المقري ذيوعا وهو : أزهار الرياض في أخبار عياض «وقد صنف أزهار الرياض وهو بمدينة فاس ما بين 1013 و1027 للهجرة، وربما لم يكمله إلا في الشرق كما أن تاريخ تأليفه تأخر حوالي عشر سنوات وربما سنة 1038 وذلك استجابة لطلب جماعة من أهل بلده تلمسان، الذين وردت بعض كتبهم إليه وهو بالمغرب (وكان من جملة فصولها، وفروع أصولها، طلب التعريف والإلمام، ببعض أحوال الشيخ الإمام، قاضي الأئمة وعلم الاعلام، عمدة أرباب المحابر والأقلام، ومفخر علماء الإسلام، ذى الفضائل التي استقلت رسومها، فلم تحتج إلى اعمال الاعلام، والمحاسن التي بهرت أقمارا وشموسا، سيدي أبي الفضل عياض بن موسى) (1).

1) أزهار الرياض في أخبار عياض 1/11ـ12 والنص بالصفحة 18.

وفيه يقول وقد أتم تصنيفه، ورضي بما جاء فيه من بنيات أفكاره :

سرح جفونك في الحدا ـ ئق واجن أزهار الرياض
من ورد أحمر أو شقا ـ ئق أو بهار ذى بياض
واشرب بكاسات الرقا ـ ئق من عيون أو حياض
وانظر مناقب ذى الحقا ـ ئق عالم الدنيا عياض

أما النفح فألفه وهو بالمشرق، وفاء لعهد قطعه على نفسه وهو بأرض الشام، التي أفاد أهلها، واستفاد منهم وهو يوضح ذلك في مقدمته الطويلة للنفح بقوله : (ولم يكن جمعي علم الله ـ هذا التأليف لرفد أستهديه، أو عرض نائل أستجديه، بل لحق ود أؤديه، ودين وعد أقدمه وأهديه،... وتلبية داع أحييه وأفديه) (2).

فقد كان يتجاذب مع أعيانها ـ أي دمشق ـ أهداب الآداب، وكانوا كثيرا ما ينجرف بهم الحديث إلى ذكر بلاد الأندلس، ووصف رياضها، وحسن الطبيعة بها ونضارتها، وذكر مآثرها ومفاخرها، وما كان لها من أمجاد في تاريخ الإسلام والمسلمين.

2) نفح الطيب ج 111/1.

وما امتازت به عقول أهلها من توقد القريحة والأفكار، فكان يورد من بديع نثرهم وشعرهم ما يسحر الألباب، ويدهشهم بكثرة محفوظه ومرويه المتعلق بأدباء جزيرة الأندلس وعلمائها الأفذاذ، حتى انتهى إلى ذكر الوزير الشهير، والعلم الفرد الكبير، لسان الدين بن الخطيب، وله في تاريخ تلك البلاد دور عظيم، فأفاض في مجالسه الدمشقية، التي كان يعقدها بالجامع الأموي، في أخباره، وتحدث عن مصنفاته وشعره ونثره، وشيوخه وتلامذته، وما تعلق به من شؤون في حياته، فأتى في ذلك بالمعجب المطرب، وأدهش السامعين بتدفق علمه، وقوة حافظته، وتمكنه من الموضوعات التي تناول الكلام فيها، فأثار في نفوس طلبته حب المعرفة والاستطلاع إلى مزيد من البيان عن ابن الخطيب، فاقترح عليه صديقه أحمد بن شاهين القبرسي الدمشقي تصنيف كتاب يضم أخباره، وتدوين ما دار في تلك المجالس من عذب القول، وجميل الكلام والمسامرة، وفي هذا المعنى يقول رحمه الله تعالى : (فطلب مني المولى أحمد الشاهيني، وهو الماجد المذكور ذو السعي المشكور، أن أتصدى للتعريف بلسان الدين، في مصنف يعرب عن بعض أحواله وأنبائه وبدائعه وصنائعه، ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه... وبعض ما له من النثار والنظام، والمؤلفات الكبار العظام الخ...) (3).

وقد اعتذر المقري أول الأمر عن تلبية مطلبه لأنه خلف كتبه التي يود الاستعانة بها في فاس إلا أن صاحبه لم يقبل أعذاره ووعده (بالشروع في المطلب عند الوصول إلى القاهرة المعزية) (4) فشرع بعد أن استقر بالقاهرة في تأليف النفح، وكتب منه نبذة مستحسنة، ثم وقف به مركب العزم عن إكمال العمل، ولما علم ابن شاهين بذلك كاتبه في خطاب طويل نقله المؤلف في مقدمة الكتاب، يستنجزه وعده، فلم يجد الشهاب بدا من المضي في اتمام ما بدأه، فسار في ذلك أشواطا بعيدة ويذكر المقري في مقدمته أنه أسماه أول الأمر (عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب) لكن عندما ألحق بكلامه أخبارا عن الأندلس وأحوالها، سماه : (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) ومن خلال هذا العنوان يتضح أن النفح له غرضان :

أولهما التعريف بابن الخطيب، وثانيهما بالأندلس وأخبارها المتباينة.

إلا أن الذي يتصفح النفح يجد أنه جعل شخصية لسان الدين مركزا لدائرة معارف تاريخية وأدبية تضم أخبار عصره ومصره، وكثيرا من أخبار الأجيال التي سبقته بكثير، بل إنه يذكر أنباء الفتح الإسلامي للأندلس وما جاء بعده من عصور ساد فيها الإسلام تلك الربوع، وقويت فيها شوكة المسلمين وعلا نجمهم، فشيدوا هناك حضارة لن تنساها الأجيال، وما تزال النفوس تحمل في طياتها أصداء قرون من التوهج، والأمجاد الخالدة التي لا تبلى، لكن ويا للأسف ذهب المجد والحضارة ولم تبق إلا رموز تعبر عنها، وانتهت الأندلس كأسطورة من الأساطير.

والنفح بما حواه من معلومات متباينة يشبه صنوه أزهار الرياض الذي جعل المقري لسان الدين في الأول والقاضي عياضا في الثاني مركزا دارت حولهما أفكار من هنا وهناك، (وهما لذلك جديران أن يعدا من أعظم الأركان التي يقوم عليها تاريخ تلك البلاد) (5).

ونفح الطيب يعتبر من أقدم الكتب الأندلسية التي ظهرت للنور، وعرفتها المطابع العربية، ومصدرا لأكثر ما عرفه المشارقة عن الأندلس في مدى مائة عام أو أكثر، وهو يصور الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في الأندلس، كما يعد من أفضل الكتب التي حققت تبيان الصلة الثقافية بين المشرق والمغرب، فقد اختص جزء كبير منه برحلة المغاربة إلى المشرق ورحلة المشارقة إلى الأندلس والمغرب.

ولما انتشر نفح الطيب، وعظمت فائدته، فقد تولاه البعض بالاختصار كما فعل : ابن الوكيل الميلودي أبو

---

3) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب...ج 70/1.

4) نفس المصدر السابق ج 80/1.

5) من مقدمة الناشرين : أزهار الرياض، الجزء الأول / ص ج.

6) دعوة الحق العدد 229 شعبان / رمضان 1403 هـ مايو / يونيو 1983م.

في بحث تحت عنوان : مصر والمغرب الأقصى عبر التاريخ للأستاذ : عبد العزيز بنعبد الله (ص) 26.

الحجاج يوسف بن محمد وسماه (تغريد العندليب على غصن الأندلس الرطيب) (6) عرف فيه بالمقري وأضاف إليه معلومات حول المغرب الأقصى، وقد ألفه بطلب من أحد أشراف مصر : حسين أفندي بن ابراهيم وأتمه عام 1114 للهجرة.

لكن مما يؤسف له أن المقري لم ينل من اهتمام الباحثين والمؤرخين للأدب العربي إلا قليلا، لا يفي بفضله، ولا يجزئ في الترجمة له، وهذا ما عاينته خلال قيامي بهذا البحث حول شخصية المقري وكتابه القيم نفح الطيب، إذ لم أهتد إلى دراسات عميقة عن أدبه وشخصيته، اللهم إلا ما كان من تراجم هنا وهناك، تتحدث في سطور معدودة عن المقري وأقسام كتابه، وسرد بعض مؤلفاته، وهذا تقصير في حق أديب ومؤرخ كبير مثل شهاب الدين.

الفصل الأول

المبحث الأول :

لمحة عن عصر المؤلف

ليس من المغالاة في شيء القول بأن التراث العربي يزخر بمختلف العلوم، والمعارف التاريخية، والآداب المختلفة، علوم ومعارف ساهمت في إغناء الحركة الفكرية، وتطوير الحياة العربية والإسلامية، فكان لها بذلك رصيد هائل ورائع من الأفكار، أضيف إلى الثقافة والفكر الإنساني (7) ومن بين - الذين فازوا بالخلود على مستوى العربية : صاحب نفح الطيب «أحمد بن محمد بن أحمد التلمساني المقري الذي سنخصص له هذا البحث ولكتابه القيم : نفح الطيب، مترصدين خطاه، ومتتبعين معظم الأشواط التي قطعها في حياته، والمؤثرات التي صاغت شخصيته : فجعلته نادرة من نوادر الزمان ورجلا فريدا من حيث ثقافته وينبوعه الفكري، وحقيق بنا قبل أن نعرف المقري الإنسان،تصوير العصر الذي عاش فيه مرتدين خطوات إلى الوراء، وبالضبط إلى القرن العاشر الهجري الذي شهد ميلاده سنة 986 هـ بمدينة تلمسان.

فقد استولى العثمانيون في عهد سليم العثماني على مصر والشام، فأصبحتا ولايتين تابعتين للعثمانيين وكان ذلك بداية للاحتلال التركي بالمشرق والمغرب العربي، إذ امتدت حملات العثمانيين في عهد سليم وابنه سليمان (7) إلى الشمال الإفريقي بفضل قرصنة أسرة باربروس ورئيسها خير الدين، الذي كان أكبر قائد بحري في وقته وما زالت مطامع الأتراك تتسع وتمتد، حتى استولى حسن بن خير الدين التركي على تلمسان بالجزائر وباستيلائه على تونس قضوا على الدولة الحفصية ودولة بني زيان بالجزائر، وهكذا ظهر وضع سياسي جديد في البنية السياسية للمغرب العربي، حيث بسط الأتراك نفوذهم على طرابلس والجزائر وبذلك أصبح الوطن العربي بمجموعه في المغرب والمشرق في حوزة الأتراك.

أما المغرب الأقصى فقد سلم من سيطرتهم واحتفظ باستقلاله حتى سقط فريسة للاستعمار الفرنسي والإسباني فاقتسماه إلى مناطق نفوذ معروفة، ولقد عز على السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ السعدي أن يستولي الترك على الجزائر، فساءت العلاقات بين السعديين والعثمانيين، فبعد أن كانت الجزائر جزءا من الإمبراطورية المغربية أصبحت تحت رحمة العثمانيين «فأعلن أبو عبد الله محمد الشيخ الحرب عليهم وطلب الأتراك الهدنة بعد مدة من الحرب، وكان ذلك سنة 961 هـ ولكن هذا الطلب لم يلق قبولا، فجهز الأتراك جيشا وأسندوا قيادته إلى أبي حسون الوطاسي فتمكن هذا الجيش من دخول فاس، ولكن السلطان المغربي تمكن من استرجاعها وأرغم الأتراك على الخروج منها، وقتل أبا حسون، كما أن قوات تركية انضمت إلى الجيش المغربي، مما زاد في حدة التوتر بين الدولتين، وأرسل السلطان العثماني رسالة إلى سلطان المغرب فرد عليها هذا الأخير ردا عنيفا، والظاهر من هذا كله أن أبا عبد الله الشيخ لم يكن راضيا على الحكم التركي، بل كان من أوائل الساخطين عليه، سواء بأرض المشرق العربي أو المغرب، وتذكر كتب التاريخ أن الوقاحة بلغت بسليمان القانوني وطموحه في الاستيلاء على المغرب، أنه لما

---

7) سليم الأول وسليمان القانوني من أبرز ملوك الدولة العثمانية، وقد تجاوز حكمهما نصف قرن من الزمن، فوصلا بالدولة إلى أوج عظمتها سواء بأوربا أو الشرق الإسلامي (عن تاريخ العالم الحديث).

انقرضت دولة بني وطاس، واستتب الأمر للدولة السعدية : كتب إلى أبي عبد الله يهنئه بالملك، ويطلب منه أن يدعى له على منابر بلاد المغرب، وبعث إليه رسولا بذلك، ولما قرأ السلطان الشيخ الكتاب حمى أنفه وأبرق وأرعد وأحضر الرسول وأزعجه، فلما طلب منه الرسول الجواب قال : «لا جواب لكم عندي، حتى أكون بمصر إن شاء الله وحينئذ أكتب لسلطان القوارب...» (8).

فخرج الرسول فزعا خائفا يترقب، ودخل الجزائر التي ركب منها البحر إلى القسطنطينية فاجتمع بالصدر الأعظم، فأخبره بما لقي من الشيخ، فأطلع الوزير سليمان على ذلك، فأمره بغزو المغرب ودخوله بالقوة، لكن بعض رجاله من أهل الديوان كرهوا ذلك، واتفق رأيهم على تعيين من يقتله، فاختاروا لهذا الغرض إثنى عشر رجلا من أقوياء الترك وفتاكها، وبذلوا لهم إثنى عشر ألف دينار، وقيل بأن هؤلاء لما وصلوا المغرب تظاهروا بأنهم فروا من جور السلطان ولجأوا إلى أبي عبد الله، ورغبوا في خدمته فدخل عليه صالح الكاهية وقال : «إن جماعة من أعيان جند الجزائر سمعوا بمقامنا عندك ومنزلتنا منك فرغبوا في جوارك والتشرف بخدمتك وليس فوقهم من جند الجزائر أحد وهم السبب إن شاء الله في تملكها» (9) ثم إنهم أخذوا يخدمونه، ويضمرون ما في نفوسهم حتى سنحت لهم فرصة قتله فاغتالوه بوطنه سنة 964 هـ.

إلا أن ابني الشيخ من بعده تنازعا الملك، وظهرت بينهما منازعات، أوضحت في جلاء تسابق كل واحد منهما للاستيلاء على مقاليد الحكم، فأضحت الغاية عندهم تبرر الوسيلة فاستنجدوا بعدوهم القديم من الإسبان والبرتغال، وكذا العثمانيين الذين فتكوا بأبيهم، وكأني بهم تناسوا العداء الكامن في نفوس هؤلاء، والحقد الذي يضمرونه لوطنهم. فمن بعث برأس الشيخ إلى الاستانة غير الأتراك، ومن غزا المغرب في معارك يذكرها التاريخ غير الإسبان والبرتغال.

8) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى : تأليف الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ج 5 / 23 ـ تحقيق وتعليق ولدى المؤلف الأستاذ جعفر الناصري ومحمد الناصري ط ـ دار الكتاب 1954م.
سلطان القوارب : يعني القراصنة.

9) المصدر السابق ج 33/5.

ولعلهم تناسوا أيضا قولة أبيهما في حق الأتراك وبالذات سليمان القانوني الذي كان يطلق لسانه فيه فوصله أنه قال : «لابد أن أغزو مصر، وأخرج الترك من أجحارها...» (10).

وهكذا وضع مصير الأمة برمته في كفة مقابل الوصول إلى الملك والجاه في الكفة الأخرى، ولو عرفوا أن من الخير لهم ولوطنهم ألا يستغيثوا بهؤلاء لما استغاثوا بهم، ولو وصل الأمر إلى أسوأ مما وصل إليه آنذاك، فقد كان من نتائج هذه النجدة أن جروا البلايا على وطنهم وأنفسهم، وقد استمرت الفتن حتى جاء أبو العباس أحمد المنصور الذهبي، الذي عرفت الدولة في عهده نعمة الهدوء والاستقرار، فقد تولى الملك عقب معركة وادي المخازن مباشرة وموت أخيه أبي مروان عبد الملك، إثر هزيمة البرتغال المشهورة، وكان من نتائجها أيضا أن رفعت اسم البلاد عاليا في أرجاء العالمين رفعا، حتى أن السلطان العثماني كان من بين المهنئين له على هذا الانتصار المبين، وتناثرت عليه هدايا الأوربيين، كل منهم يخطب وده، ولما صفا الجو للسلطان المغربي، وجه كل اهتمامه ناحية السودان الواسعة الأرجاء، والمليئة بالثروات والخيرات، فعمل على ضمها إلى المغرب، وأعد لذلك حملة كبرى أرسلها سنة 998 هـ فحققت أهدافها، وأصبح السودان جزءا من الامبراطورية المغربية، وبموت أحمد المنصور انتهت عظمة السعديين وأفل نجم دولتهم.

ولعل المقري شهد أمورا كثيرة في عهد المنصور الذي توفي سنة 1012 هـ وكان من أغرب ما شهده ثورة ولده ـ المامون ـ عليه وخروجه على والده بفاس، وتصميمه على الاستعانة بالأتراك في تلمسان حتى يتمكن من القضاء على والده، وأخذ الملك بدلا منه سنة 1010 هـ أي قبل رحيل المقري إلى مدينة فاس بثلاث سنوات، ولقد كان شهاب الدين هذا شاهد عيان على عصر خلفاء المنصور، إذ رأى من الفتن والاضطرابات والانقسامات بين أبنائه وحفدته ما جعل أمرهم يخبو وسمعتهم تنتكس، بعد أن كانت دولتهم مهيبة الجانب، وفقدت السودان إلى الأبد.

10) الاستقصا للناصري : ج 23/5.

أما قصة العرائش فمعروفة إذ فر «المامون» (11) إلى إسبانيا مستنجدا بملكها ضد السلطان زيدان فاشترط عليه أن يسلمه العرائش فقبل، وظل يحدث الشغب والفتن في المغرب إلى أن قتله أهل تطوان، وهكذا بقيت الدولة بدون قيادة قوية، ترد لها مكانتها ومجدها الذي أضاعه أبناؤها بأيديهم، فانكمشت على نفسها وأصبح المغرب منقسما إلى عدة امارات في مختلف جهات المغرب (12).

هذه لمحة عن الحالة السياسية والاجتماعية التي عاش المقري جزءا منها، وهو يرى قليلا من الاستقرار وكثيرا من الاضطرابات، ويرى العثمانيين وقد بسطوا نفوذهم على أرض تلمسان والحقيقة أن ما شاهده وشهدته معه البلاد لم يترك له مجالا للهدوء والاستقرار، خاصة بعد موت المنصور الذهبي، وإذا كانت للمقري جولات في تاريخ المغرب وحياته السياسية والاجتماعية والثقافية، فذلك ما سنراه من خلال تتبعنا لحياته وهو يحل بأرض المغرب، وكذا الارتباط الوثيق الذي كان له مع أهلها، وبذلك أنتقل من المبحث الأول إلى الثاني من الفصل الأول والخاص بحياة المقري.

فمن هو المقري ؟ هذا الذي ذاع صيته، واخترق إسمه الآفاق، وعلا نجمه في سماء الأدب ودنيا الثقافة ؟.

المبحث الثاني :
التعريف بالمؤلف

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقري ويكنى بأبي العباس ويلقب بشهاب الدين (13) وهو تلمساني المولد، مالكي المذهب نزيل فاس ثم القاهرة، يقول صاحب «خلاصة الأثر» : حافظ المغرب، جاحظ البيان، ومن لم ير نظيره في جودة القريحة وصفاء الذهن وقوة البديهة وكان آية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث، ومعجزا باهرا في الأدب والمحاضرات كما وصفه صاحب الاعلام بـ «المؤرخ الأديب الحافظ... انتقل إلى فاس فكان خطيبها والقاضي بها» (14) وينقل المقري نسبه ابتداء من جده أبي عبد الله محمد الذي كان من أكابر شيوخ لسان الدين بن الخطيب عن كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة»، ومما جاء فيه : (محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن أبي بكر بن علي القرشي) أما سنة ولادته ففيها اختلاف وذلك لأن المقري لم يذكر لنا فيما كتبه، العام الذي خرج فيه إلى هذا العالم، وهو يوضح ذلك في نفح الطيب حين نقل كلاما عن المقري الجد، الذي قال بأنه ليس من المروءة للرجال أن يخبر بسنه، ثم أضاف : ولما تذاكرت مع مولاى العم الإمام ـ صب الله على مضجعه من الرحمة الغمام ـ هذا المعنى الذي ساقه مولاى الجد رحمه الله تعالى أنشدني لبعضهم (15) :

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة
سن ومال ما استطعت ومذهب
فعلى الثلاثة تبتلي بثلاثة
بمكفر وبحاسد ومكذب (16)

والدكتور إحسان عباس يجعل سنة ميلاده 986 للهجرة نقلا عن مقدمة روضة الآس التي كتبها الأستاذ عبد الوهاب بن منصور، وصاحب الاعلام يجعلها 992 للهجرة والمستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال يذكر في (دائرة المعارف الإسلامية) أنه ولد نحو سنة 1000 للهجرة دون ذكر المرجع الذي استند إليه في اختيار هذا التاريخ، وهو تاريخ غير مأخوذ به، كما شك علي أدهم ـ مثله في

---

11) كان للمنصور ولدان هما زيدان والمامون، وقد رشح زيدان للخلافة من قبل أبيه فتولى الأمر من بعده.
أما المامون فكان فاسد الأخلاق، أعلن الثورة على أبيه ثم أخيه واستنجد بملك اسبانيا شرط تسليمه العرائش، وسيأتي على ذكر هذه القضية في مبحث آخر من هذا البحث.

12) من هذه الإمارات : إمارة العياشي بسلا ـ وإمارة غيلان الجرفطي في الشمال آل النقسيس بتطوان ـ إمارة أبي محلى في سجلماسة ـ أبو حسون السملالي بسوس الشبانات بمراكش ـ الدلائيون في فاس ومكناس ـ العلويون الذين كونوا من بعد الدولة العلوية.

13) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمولى محمد النحبي ـ مطبعة دار صادر 302/1.

14) الإعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين لخير الدين الزركلي، نسخة ذات ثمانية أجزاء ـ الطبعة الخامسة مايو 1980 ـ دار العلم للملايين ج 238/1.

15) أوردهما ابن الجوزي في صيد الخاطر، قال : وقد أنشدنا محمد بن عبد الباقي البزار.

16) نفح الطيب ج 207/5 ط ـ إحسان عباس 8 أجزاء ـ دار صادر بيروت 1967.

ذلك مثل الأستاذ محمد عبد الله عنان في صحة التاريخ الذي ذكره هذا المستشرق الفرنسي (لأن الإنسان لا يقول عن نفسه وهو في التاسعة أنه في زمن الشبيبة) (17).

أما أصل أسرته فمن مقرة ـ بفتح الميم وتشديد القاف ـ وقد اختلفت الأقوال في ضبط نطق هذه البلدة الجزائرية التي اشتهرت بما أنجبته من أجداد للمقري قبل نزوحهم إليها من تلمسان، فهناك من يكتبها وينطقها مقرة ـ بفتح الميم وسكون القاف، كما يرى ذلك العالم ابن مرزوق (18) وأشار إلى ذلك في كتابه له شرح فيه ألفية ابن مالك، كما ألف كتابا في تاريخ جد المقري سماه (النور البدري في التعريف بالفقيه المقري) وعندما نقل شهاب الدين ترجمة المقري الجد «عن نيل الابتهاج بتطريز الديباج» لأحمد بابا التنبكتي السوداني (19) قال : (محمد بن محمد بن أحمد القرشي التلمساني الشهير بالمقري ـ بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة ـ كذا ضبطه الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في كتابه «العلوم الفاخرة» وضبطه ابن الأحمر في فهرسته، وسيدي أحمد زروق بفتح الميم وسكون القاف...) (20).

كما أكده بقوله (وضبطه غيرهم، الأكثرون بفتح الميم وتشديد القاف، وعلى ذلك عول أكثر المتأخرين... (21).

كما نجد بأن القاف قد شددت في أشعاره، ويمكن الاستئناس بأبيات ثلاثة لأحمد المقري نفسه في مقدمة كتابه أزهار الرياض بعد كلامه...) وبعد :

فيقول أحمد ذو القصو ... ر المقري إذا انتسب (22)

جبر المهيمن صدعه ... وقاه سيئ ما اكتسب

17) بعض مؤرخي الإسلام (سلسلة الثقافة العامة) للأستاذ علي أدهم ص 181 المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1974 للميلاد.

18) ابن مرزوق (ت 781 هـ 1379م) وهو فقيه وكاتب ديواني ولد ونشأ بتلمسان، وتوفي بالقاهرة.

19) هو أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت التكروري المسوفي الصنهاجي ولد بقرية أرون بضواحي مدينة تنبكتو (963 هـ 1556م) (ت 1036 هـ 1627م) وهو من شيوخ شهاب الدين المقري.

20) نفح الطيب 279/5.

21) نفس المصدر السابق ج 205/5.

22) القصور : العجز.

وحباه منحة مؤمن ... محض العبادة واحتسب

إذ يمكن جعل البيت الأول شاهدا لضبط مقّرة.

أما تلمسان فهي المدينة التي ولد بها المقري، ولم تكن في الأصل دار إقامة لبيته، بل سبقتها قرية مقرة التي انتسبوا إليها، وكان عبد الرحمن بن أبي بكر وهو الأب الخامس لجد المقري، قد قصد تلمسان من قرية مقرة، فاتخذها مقرا للأسرة، وكان ذلك خلال القرن السادس الهجري برفقة الصوفي الأندلسي شعيب التلمساني المشهور بأبي مدين والذي وصفه المقري بقوله : «وقد تخرج بتلمسان من العلماء والصلحاء ما لا ينضبط، ويكفيها افتخارا، دفن ولي الله سيدي أبي مدين بها...» (23).

ولا يزال قبره بها مزارا مشهورا، وبيتا معمورا، حتى ليعد قبره هناك من مفاخرها، وفي شأن تلمسان يقول : «وتلمسان هي مدينتنا التي علقت بها التمائم، وقد نزلها من سلفنا عبد الرحمن بن أبي بكر المقري بن علي صاحب الشيخ أبي مدين...» (24) وذكر أنها من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء ونقل في وصف طبيعتها، وجمالها أشعارا كثيرة في كتابه نفح الطيب وأزهار الرياض، حتى أنه كان في نيته جمع كتاب ممتع في شأنها يسميه «أنواء نيسان في أنباء تلمسان» إلا أنه رحل إلى فاس ولم يتمكن من تصنيفه، رغم أن كتب بعضه «وقد كنت بالمغرب نويت أن أجمع في شأنها كتابا ممتعا أسميه «أنواء نيسان في أنباء تلمسان» وكتبت بعضه، ثم حالت بيني وبين ذلك العزم الأقدار، وارتحلت منها إلى حضرة فاس...) (25).

وقد قضى طفولته وشبابه الأول بها، إلى أن رحل عنها ودخل فاس حيث ملك الأشراف ممتد الرواق، (وبها ولدت أنا وأبي وجدي وجد جدي وقرأت بها ونشأت إلى أن ارتحلت عنها في زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف، ثم رجعت إليها عام عشرة وألف، ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف، إلى أن ارتحلت عنها

23) نفس المصدر السابق ج 136/7.

24) نفح الطيب ج 133/7.

25) نفس المصدر ج 135/7.

للمشرق أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف) (26).

فالمقري من أسرة عريقة جمعت بين كثرة الولد وارتفاع الأحوال، وسعة الأموال، ويصف المقري الجد فيما نقله عنه شهاب الدين، كيف اشتهرت ذرية جدهم عبد الرحمن بالتجارة فمهدوا طريق الصحراء في المغرب بحفر الآبار وتأمين التجار، حتى كانوا يتخذون لأنفسهم طبلا عند المسير، وراية خاصة بهم تتقدم رواحلهم دلالة على سفرهم ورحيلهم وأنهم اتخذوا بتلمسان الحوائط والديار، وتزوجوا النساء، واستولدوا الإماء، ويتبادل التلمساني والصحراوي السلع، حتى اتسعت أحوالهم وارتفعت في الضخامة أحوالهم : (...ثم اتصل بملكهم فأكرم مثواه ومكنه من التجارة بجميع بلاده، وخاطبه بالصديق الأحب والخلاصة الأقرب، ثم صار يكاتب من بتلمسان يستقضي منه مآربه، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة، وعندي من كتبه وكتب ملوك المغرب ما ينبئ عن ذلك، فلما استوثقوا من الملوك، تذللت لهم الأرض للسلوك، فخرجت أموالهم عن الحد وكادت تفوق الحصر والعد...) (27).

ثم إن هذه الثروة الطائلة والنعمة الوافرة، لم تدم حيث أسرف الأبناء في النفقة، ولم يقوموا بأمر استثمار المال كما فعل أجدادهم الذين خلفوا لهم هذه الثروة، فمستهم الفتن بدورهم، تلك الفتن التي لم يسلم منها المغرب، وذكر أنهم تعرضوا لجور السلاطين وظلمهم فساءت أحوالهم، يقول المقري الجد : (فها أننا لم أدرك من ذلك إلا أثر نعمة، اتخذنا فصوله عيشا وأصوله حرمة ومن جملة ذلك خزانة للكتب، وأسباب كثيرة تعين على الطلب...).

وهكذا نرى أن أحوال هذه الأسرة تدهورت، وأن أمرها تناقص كثيرا، حتى جاء عهد شهاب الدين فوجد كل شيء قد ضاع، إلا السيادة والشرف، ووجد آثار المكتبة المشار إليها فاستفاد منها ونهل مما حوته جنباتها، فبقي بتلمسان يأخذ العلم على شيوخها وأعلامها، ومنهم عمه سعيد المقري إلى أن حل بفاس للإقامة بها، ووصوله إلى هذه المدينة العلمية التاريخية أظهر شخصيته : فاشتهر اسمه بالمغرب، حيث أصبح يتصدر المجالس العلمية والأدبية الكبرى، واشتغل بأمور الإمامة والفتوى : (وارتحلت منها - يعني تلمسان - إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتد الرواق، فشغلت بأمور الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها...) (28) كما ذكر دخوله حضرة فاس في مقدمته لأزهار الرياض بقوله (29) : (ونزحت عن بلد، به الوالد وما ولد، محل قطع التمائم، وفتح الكمائم، سقى الله عهاده صوب الغمائم) :

بلد تحف به الرياض كأنه ... وجه جميل والرياض عذاره

وكأنما واديه معصم غادة ... ومن الجسور المحكمات سواره

وكان ذلك وغصن النشاط يانع، وبرد الشباب قشيب، وشمل النفس مجتمع دون مانع، وكأس الأنس مزج بتسنيم القرب وشيب، وفود الرأس غير خاضع ولا خانع، إذ لم تطرق ساحته ولم تجس خلاله جيوش المشيب، جللت الحضرة الفاسية، حاطها الله - حيث المجالس غاصة بالعامة والخاصة، والمساجد آهلة معمورة، والمشاهد بالزوار مغمورة، وحلل المعارف فضفاضة، والعوارف الجليلة مفاضة، حضرة ديباجها ربيعي وامتزاجها بالنفوس طبيعي ولم لا، وقد نظمت المفاخر ونسقتها، وجمعت المآثر ووسقتها، جادتها غر السحب وسقتها :

بلاد بها الحصباء درو تربتها ... عبير وأنفاس الرياح شمول (30)

تسلسل منها ماؤها وهو مطلق ... وصح نسيم الروض وهو عليل

فبقي بفاس، حتى خرج منها قاصدا بلاد المشرق، التي تجول في أرجائها، فزار مصر وبها أقام حتى توفي

26) نفس المصدر ج 136/7.

27) نفس المصدر ج 206/5.

28) نفح الطيب ج 135/7.

29) من مقدمة أزهار الرياض في أخبار عياض لشهاب الدين المقري التلمساني، ضبطه وحققه وعلق عليه : (مصطفى السقا - إبراهيم الابياري - عبد الحفيظ شلبي) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - 1358 للهجرة 1939 للميلاد الجزء الأول، صفحة (4) وما بعدها.

30) العبير : الزعفران، أو هو إخلاص الطيب، والشمول : الخمر، أو ما برد منها.

بالقاهرة، ودفن بمقبرة المجاورين سنة 1041 للهجرة، كما تجول في الديار الشامية والحجازية، ولم تمهله الأقدار حتى يرجع إلى وطنه الذي طالما تغنى به، واشتاق إليه اشتياق المحب المعذب الذي تكويه نار الصبابة والعشق، إذ كان مرغما على تركه ومغادرته، فدفن هناك بعيدا عن الأهل والوطن، بعد أن طلق زوجته الوفائية واخترمت المنون طفلته الوحيدة منها، فاتسعت له مقابر القاهرة، وهي التي ضاق بها لظروف جلها مجهول، وهكذا مضى، وقضى بها رحمه الله تعالى ولسان حاله يقول :

مشينـــــاهـــــا خطى كتبت علينـــــا
ومن كتبت عليـــه خطـــا مشـــاهـــا
ومن كـــــانت منيتــــه بـــــأرض
فليس يمـــوت في أرض ســـواهـــا

المبحث الثالث :
شيوخه وثقافته

لعل أشهر كتب شهاب الدين المقري التلمساني القرشي المالكي، كتابه : نفح الطيب ثم أزهار الرياض، الذي عرف فيه بعالم المغرب وقاضيه ومحدثه : الإمام عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، صاحب كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى وصاحب المدارك وغيرها وهو كتاب ألفه بطلب من جماعة من أهل تلمسان، ومن قرأ مقدمة أزهار الرياض في أخبار عياض سيجد ولاشك حديثا للمقري عن أوليات أخذه لأنواع المعارف والعلوم إذ يقول :

«وقطعنا نبذة من الشباب، في مواطن الأحباب، ما بين دراسة ودراية ورواية، وممارسة أمور تبعد عن طرق الغواية، وتحبير طروس، وملازمة دروس، ومثول بين يدي أشياخ مجالستهم نامية الغروس، وخصوصا شيخهم الذي فضله لا يفتقر إلى دلالـه، عمنا مفتيها سيدي سعيد بن أحمد المقري، شكر الله خلاله...» (31).

إذا فأبو العباس المقري قضى مرحلة من شبابه وهو بأرض تلمسان، ينهل من كل ينبوع من ينابيع العلم والمعرفة، مبتعدا عما يحول بينه والأخذ من تلك العلوم والمعارف المتباينة فلازم دروس الأشياخ، ومثل بين يديهم وجالسهم، حتى يعب من كلامهم ما يشفي الغلة، ويطفئ ظمأ أمثاله من المقبلين على نيل حظهم من الثقافة، وخص بالذكر أول شيوخ تلمسان الذي قال إنه : (شيخهم الذي لا يفتقر إلى دلاله) ـ عمه سعيد بن أحمد المقري، وهو يذكر أيضا في النفح طلبه للعلم بتلمسان إذ يقول : (وبها ولدت أنا وأبي وجدي وجد جدي وقرأت بها ونشأت...) ولم يكتف بما أخذه عن علماء تلمسان ومشايخها، فتركها موليا وجهه شطر فاس، التي كانت يومها تعج بالعلماء، المقيمين والوافدين عليها، ولما حل أحد قواد السلطان أحمد المنصور بها، وهو الفقيه ابراهيم بن محمد الأيسي، أعجب به واصطحبه معه إلى مراكش، وقدمه إلى سلطانها، وهناك التقى بأحد العلماء القادمين من عمق إفريقيا وهو : أحمد بابا التنبكتي صاحب نيل الابتهاج (وأحمد بابا سوداني الأصل مفتن ببلاده لا يبغي عنها بديلا، إلا أن المغاربة يعدونه من علماء المغرب الأقصى نظرا لمتانة الوشائج التي تربطه بهذه البلاد (32).

وقصة أحمد بابا معروفة مشهورة، وقبل ذكرها نعرض لإسمه ونسبه كاملا كما ينقله ليفي بروفنسال وخير الدين الزركلي صاحب الاعلام، وصاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر.

وقد جاء في تعريف ليفي بروفنســـال، المستشرق الفرنسي : (هو أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت التكروري المسوفي الصنهاجي العرق ولد بقرية أروان بضواحي مدينة تنبكتو في (21 ذي الحجة عام 963 هـ أكتوبر 1556م)، وكانت عشيرته الاقيت تسكن بالعاصمة السودانية وتتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة، وتوارثوا بها خطتي الإمامة والقضاء طيلة القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وقد أقبل على طلب العلم منذ المرحلة الأولى من حياته، فأخذ عن أبيه (33) وعن جملة

---

31) أزهار الرياض ج 1 ص 9 ـ 10.

32) مؤرخو الشرفاء تأليف بروفنسال ـ تعريب عبد القادر الخلادي ص 85.

33) نفس المرجع السابق نفس الصفحة.

من المشايخ، فأصبح من صدور المالكية في عصره، وكان مولعا باقتناء الكتب إذ كانت مكتبته الخاصة تضم أكثر من ألف وثلاثمائة مؤلف) (34).

ويفهم من هذا الكلام أن أحمد بابا كان مضطرا للبقاء في المغرب مدة من الزمن بسبب ظروف سياسية قاهرة، أما صاحب الاعلام فيقول عنه : (أحمد بابا بن أحمد بن عمر التكروري التنبكتي السوداني أبو العباس مؤرخ من أهل تنبكت في إفريقيا الغربية) (35) وذكر أصله من صنهاجة وأنه من بيت علم وصلاح، عالما بالحديث والفقه، وأنه عارض في احتلال المراكشيين لبلدته فقبض عليه وعلى أفراد أسرته واقتيدوا جميعا إلى مراكش سنة 1002 هـ فضاعت كتبه في هذه الحادثة، كما سقط عن ظهر الجمل أثناء رحلته فكسرت ساقه، وقد ظل التنبكتي في السجن مدة عامين، فأطلق سراحه بعدها سنة 1004 هـ، وقد كان شديدا في الحق، لا يخاف لومة لائم مهما سمت مرتبته، ويذكر أن هذا الفقيه السوداني مثل إثر تسريحه من السجن بين يدي المنصور الذهبي السعدي، فوجده يكلم الناس من وراء حجاب، وبينه وبينهم كلة ممدودة على طريقة خلفاء بني العباس، فامتنع أحمد بابا من مخاطبته وقال له : (إذا كانت لك حاجة في الكلام فانزل إلينا وارفع عنا الحجاب) فنزل المنصور ورفعت الأستار، وإذ ذاك استنكر أحمد بابا أشد الاستنكار ما فعله به وبعشيرته، كما نقل المحبي في الخلاصة ما كتبه أحمد بابا عن نفسه في نهاية الديباج إذ قال : (مولدي كما وجدته بخط والدي ليلة الأحد الحادي والعشرين من ذي الحجة ختام عام ثلاثة وستين وتسعمائة، ونشأت في طلب العلم، فحفظت بعض الأمهات وقرأت النحو على عمي أبي بكر الشيخ الصالح والتفسير والحديث والفقه والأصول والعربية والبيان والتصوف وغيرها على شيخنا العلامة محمد بغيغ ولازمته سنين وقرأت عليه جميع ما تقدم عني في ترجمتي، وأخذت الحديث عن والدي سماعا والمنطق، وقرأت الرسالة ومقامات الحريري تفقها على غيرهم، واشتهرت بين الطلبة بالمهارة على كلال ومهل في الطلب، وألفت عدة كتب تزيد على الأربعين تأليفا (36)، أما حول منزلته الثقافية والعلمية فيظهر من خلال ترجمته أنه عالم جليل القدر، قد أخذ من صنوف المعارف الكثير، وأنه لم يترك شيئا يستطيع الوصول إليه أو مكن فيه إلا وأخذ منه، وقد وصفه تلميذه المقري وغيره بالقدرة والتمكن والتفوق والمهارة والإدراك الحسن والفهم الدقيق للمسائل التي تعرض له ويتكلم فيها.

وقد أثنى أبو عبد الله محمد بن يعقوب الأديب المراكشي في الفهرست حين ترجم لعالم السودان بقوله : (كان أخونا أحمد بابا من أهل العلم والفهم والإدراك التام الحسن، حسن التصنيف كامل الحظ من العلوم فقها وحديثا)، وقال المترجم أيضا : (ولم ألق بالمغرب أثبت منه ولا أوثق ولا أصدق ولا أعرف بطريق العلم منه) (37).

وفي أزهار الرياض سأل المقري شيخه ومفتي مراكش في زمانه عن الإمام المجدد، أيكون عالما أو وليا أم ملكا من الملوك فقال عنه وقد سمع منه الجواب، وسمعت شيخنا الإمام سيدي أحمد التنبكتي، أبقى الله جلاله، وأدام عزته وحفظ خلاله يقول : (إن ذلك يكون في كل قطر بحسبه وليس من شرطه أن يعم الدنيا أو غالبها) (38) وشهاب الدين كثيرا ما يثني على أحمد بابا في أزهار الرياض، قائلا : (وقد نقلها شيخنا الإمام سيدي أحمد بابا، أبقاه الله في تكميله لديباج ابن فرحون) (39).

إن التنبكتي يعد بحق طرازا للعالم المتفنن، ونموذجا لذلك العالم الإفريقي الأصيل، الذي اتصل بالينابيع الصافية للفكر الإسلامي، وقدوة للإفريقي المسلم الذي لعب دوره بإحكام ودقة متناهية، ولاشك أن أبا العباس المقري تأثر به ولهج بذكره في مؤلفاته، وحسب التنبكتي فخرا أن يكون هذا الوافد على المغرب من تلمسان تلميذه الذي قضى بياض نهاره وسواد ليله في الكتابة والتأليف فبقى اسمه واسم شيوخه مذكورا عالقا بالأذهان كلما ذكرت آثارهم

34) نفس المرجع ونفس الصفحة.
35) الإعلام ج 102/1 مادة أحمد.

36) خلاصة الأثر ج 170/1.
37) نفس المصدر ونفس الصفحة.
38) أعلام العرب عدد 60 صفحة 56 تأليف : محمد عبد الغني حسن.
39) نفس المرجع والصفحة.

ومؤلفاتهم، التي ستبقى أمام القارئ والدارس والباحث تحفة لا تبلى ولا يؤثر فيها الدهر.

ومن شيوخه كذلك (محمد بن قاسم بن علي القيسي الأندلسي الأصل الفاسي، أبو عبد الله المعروف بالقصار) (40) والقصار هو مفتي حضرة فاس ومحدث المغرب في زمانه، وقد قدم أبوه إلى المغرب من غرناطة حين استولى عليها الإسبان وقد بقي بالمغرب يسكن فاس حتى توفي رحمه الله وهو في طريقه إلى مراكش بزاوية ابن ساسي وقبره بمراكش، والقصار هذا كان من الذين وقفوا في وجه الشيخ ابن أحمد المنصور، داعيا لأخذ البيعة لأخيه زيدان، فلما عرف منه الشيخ ذلك وقد ملك مقاليد الملك استدعاه هو وأحد شركائه في الفتوى القاضي ابن أبي النعيم قصد التنكيل بهما، فلم يتمكن منه إذ مات وهو في الطريق.

ومن بين الذين أخذ عنهم الشهاب : عالم المغرب وصاحب القصار السالف الذكر (أبو القاسم بن محمد ابن القاضي، عالم وفقيه مغربي من بني العافية المكناسيين) (41).

ولد هذا العالم سنة 960 هـ وتلقى العلم عن مشيخة الوقت، فكانت له ملكة قوية في علوم متعددة من علوم القرآن والنحو والصرف والعروض والحساب والفرائض والتوقيت، وامتاز على الخصوص باتقان النحو ومعرفة مذاهب النحاة وحفظ أقوالهم، حتى كان الكاتب البارع عبد العزيز الفشتالي إذا أشكل عليه شيء من جهة الإعراب لا يفاوض فيه إلا ابن القاضي، لما تميز به من مزيد الضبط والتحقيق، وذلك عندما تصدر الفشتالي لإقراء مقصورة المكودي بقصد شرحها.

وصاحبنا هذا له فهرسة سماها (تنوير الزمان بقدوم مولانا زيدان) ويذكر صاحب أعلام المغرب العربي في الجزء الثاني من الكتاب سبب هذه التسمية فيقول : (وسبب هذه التسمية أن المؤلف تخيل من السلطان زيدان بن أحمد المنصور مضرة، وخاف سطوته من خروج اخوته عليه، فإن زيدان بن أحمد المنصور السعدي لما بويع فور وفاة أبيه جلس المترجم له بفاس لم يقدم عليه ومقره يومئذ مدينة مراكش، فخاف على نفسه بسبب تأخره، فلما قدم زيدان لفاس لم يلق منه بأسا) (42) ولذلك ألف ابن القاضي فهرسته وسماها بذلك الإسم حتى يتقرب بها إلى زيدان، ويتزلف إليه بها.

ومن شيوخ شهاب الدين عالم فاس وقاضيها وخطيبها ومسندها، أبو القاسم بن محمد ابن أبي النعيم الغساني (43) وأصل هذا العالم من غرناطة، ولد بفاس وأخذ بها عن محمد القصار ويحيى السراج وعالم تنبكتو أحمد بابا السوداني وغير هؤلاء وقد كان الغساني عالما جليلا، وخطيبا بليغا، وحافظا محصلا، متضلعا في الفنون، ماهرا في المنقول والمعقول، يقوم على النحو والبيان والفقه والحديث، والتفسير والمنطق والأصول وعلم الكلام، ورث كرسي التفسير بجامع القرويين عن شيخه يحيى السراج (وكان يعقد مجلسا قرب داره بحي العقبة الزرقاء يحضره كبار الطلبة وتبعاؤهم كأحمد المقري، وعبد الواحد بن عاشر...) (44).

ومما يؤثر عن أسلوب الغساني في التدريس أنه ابتدع وتلميذه أحمد المقري طريقة طريفة للتدريس بالقرويين، فقد كانا يعقدان مجلسا مشتركا يحضره علماء المدينة ونبهاء الطلبة، ويحمل إلى المجلس كثير من المراجع المختارة من مكتبة الجامع، فيتناوب الشيخان في التقرير، ويشارك الحاضرون في المناقشة، وكان هذا العالم ممن شاركوا في الحملة التي نظمها العلماء ضد تدخين عشبة «طابا» والتشنيع على مروجيها فحكم بتحريمها ومنعها وفساد المعاملات في شرائها وبيعها، وإلحاقها في سائر الأحكام بغيرها من المنكرات، وسائر المفسدات والمسكرات، بينما كان أحمد بابا السوداني يعيب عليه ذلك وعلى أمثاله من العلماء، كما يعيب عليهم إيرادهم للأحاديث الموضوعة في خطبهم لأن الحديث الموضوع تحرم روايته كما نص على ذلك العلماء قديما وحديثا،

40) الإعلام لخير الدين الزركلي.

41) أعلام المغرب العربي - عبد الوهاب بن منصور ج 2 (ص) 147.

42) نفس المرجع السابق والصفحة.

43) نفس المرجع (ص) 148.

44) أعلام المغرب العربي ج 2 ص 148.

ولما كان الغساني يقف في وجه أهل الفساد ويفضحهم، تمالئوا على قتله، فرمي برصاصتين فأردوه قتيلا بحي الطالعة عقب رجوعه من صلاته بالسلطان وذلك يوم الجمعة 5 ذي العقدة عام 1032 هـ فدفن بروضة بني عمه أولاد الوزير الغسانيين داخل باب فتوح، بعد أن ثار قتال بين الأندلسيين واللمطيين بسبب موته.

وقد نقل صاحب أعلام المغرب العربي عن سلوة الأنفاس : وهو معروف إلى الآن يزار (45).

والآن وقد ذكرنا هؤلاء الشيوخ، فلنرجع مرة ثانية إلى شيخه وعمه الشيخ سعيد بن أحمد لنختم به الحديث عن ذكرهم، فالمقري كثيرا ما تحدث عنه في أزهار الرياض ونفح الطيب وقد ذكرت في أول هذا المبحث ما وصفه به ابن أخيه وتلميذه، إذ قال بأنه : شيخ أولئك الأعلام ومن

الذين ورثوا العلم من غير كلالة وعمروا ربوع المجد وتفيأوا ظلاله وأرشدوا إلى سبل الهدى وأزاحوا عن الضلالة، وعمرت أرضهم بكل مجد وجلالة (46)، وشهاب الدين لا ينسى في هذا كله ذكر ما كان له مع عمه من مطارحات أدبية وشعرية فنجده يقول : (وأنشدنا فيه لغيره سيدنا ومولانا شيخ الشيوخ وخاتمة أهل التثبت والرسوخ، ملحق الأحفاد بالأجداد المبرز على النظراء والأنداد، مفتي تلمسان وأصقاعها، ومعتمد أهل أقطارها وبقاعها : عمنا سيدي سعيد بن أحمد المقري صب الله عليه شآبيب رضوانه (47).

وأكتفي في نهاية هذا البحث بما قاله المقري في شيخه سعيد، لأن التعرض لما كان بينهما طويل، فما أكثر الروايات الشعرية التي كانت تدور بينهما، والمطارحات الفكرية التي تقوم بين الشيخ وتلميذه، (وما أعذب تلك الأوقات التي يلتقي فيها بشيخه، أيام ممتعة أعطت شخصية لها زاد من العلم كثير، ومن اتقان ألوان من العلوم.

45) سلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر الكتاني.

46) أزهار الرياض مقدمة المؤلف (ص) 10 للجزء الأول.

47) أعلام العرب (ص) 59.

الفصل الثاني :
المبحث الأول :
أسباب رحلة المقري من المغرب إلى المشرق

حل المقري بالمغرب قادما من تلمسان سنة 1009 (إلى أن ارتحلت عنها ـ أي تلمسان ـ من الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف، ثم رجعت إليها آخر عشرة وألف، ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف إلى أن ارتحلت عنها لدمشق أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف) (48) ويظهر أن عمره حينذاك في حدود الرابعة والعشرين كما يذكر ذلك الدكتور احسان عباس في مقدمته تحقيقه للنفح، وهكذا مضى يطلب العلم بفاس على يد شيوخها، كما تصدر فيها مجلس الفتوى والإمامة بعد موت المنصور الذهبي، ولما حل بها الفقيه ابراهيم بن محمد الأيسي أحد قواد السلطان المنصور، اصطحبه إلى مراكش فقدمه للسلطان، وعن هذه الرحلة كتب كتابه روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس (49).

وقد كان في نيته تقديم الكتاب إلى السلطان أبي العباس أحمد المنصور، لولا أن المنية عاجلته سنة 1012 هـ ولم يكن قد عاد بعد من تلمسان، التي قر عزمه على مغادرتها سنة 1013 كما ذكرت آنفا، وقد استقر بفاس وطال بها بقاؤه، إذ أقام بها حوالي خمسة عشر عاما : (وارتحلت منها إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتد الرواق، فشغلت بأمور الامامة والفتوى والخطابة وغيرها...) (50) ويفهم من هذا الكلام أنه اشتغل بأمور دينية عظيمة، مما يرمز إلى أنه أضحى من أكابر العلماء المرموقين، ولعل المقري معبر صادق وأمين في وصف كل شيء يمر بحياته مهما كان صغيرا إلا إذا عاكسته الظروف، فهو يكشف لنا عن زيارته إلى فاس، متتبعا نفس الطريقة التي سلكها جده أبو عبد الله الذي خرج من موطنه تلمسان، متوجها إلى حضرة فاس أيام السلطان أبي عنان

48) نفح الطيب م 136/7.

49) ألف روضة الآس حوالي (1011 ـ 1012 هـ).

50) نفح الطيب 135/7.

المريني في القرن الثامن الهجري، حيث ولاه السلطان قضاء الجماعة بها، وبنى له مدرسة تسمى بالمدرسة المتوكلية، ليقوم فيها بمهام التدريس، إذ يقول في مقدمة أزهار الرياض في أخبار عياض : «فألقيت بها - يعني فاس - عصا التسيار وقاها الله من الافات والاغيار، واقتفيت في ذلك سنن بعض سلفي الأخيار، إذ كان أشهر أسلافنا الشيخ الإمام، صاحب التصانيف الشهيرة التي اقتادت المحاسن بزمام، القاضي الأشهر، العلامة الأظهر سدي أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري القرشي التلمساني النشأة والقبر، أفاض الله الرحمة على مثوى ذلك الحبر (51) ولعل المقري حل بفاس للأخذ عن علمائها، والالتقاء بأعلامها، إذ كانت مركز الثقافة الإسلامية، الحاملة للشعلة وأنوار الهداية، وموطن العلوم والمعارف المتشابكة»وخلال اقامته تلك تقرب إلى السلطان زيدان السعدي الذي خلف والده، فعاش في كنفه، واستفاد من خزانة للكتب كان يمتلكها، وكانت صلته به أمتن وأقوى حيث كانت له اهتمامات بالفقه وتفسير القرآن والمشاركة في الحلقات العلمية.

وقد تعرضت في المبحث الأول من الفصل الأول إلى الفتن الداخلية والاضطرابات المتتالية التي ظهرت بعد وفاة المنصور السعدي، وصراع أبنائه وحقدته على الحكم، وتعرضت مدينة فاس نفسها للمد والجزر في تلك الظروف المتقلبة (52) فتقلبت أحوال الناس، وشعروا بعدم الاستقرار، ورأوا بلادهم تقع فريسة للإسبان والبرتغال، وفي سنة 1016 هـ شهد المقري ما يحزن النفس، ويدمي القلب : شهد المأساة المروعة، والنكبة المهولة، عندما تفرقت الجالية الأندلسية تطلب المأوى بفاس وسلا والجزائر وتونس وغيرها من جهات البلاد المغربية، وشاهد ألوف النازحين من العرب يفطمون عن بلدهم ومهوى أفئدتهم، من أولئك الذين أجبروا على التنصر أولا، وعلى الخروج من قلب بلادهم ثانيا، وبعد هذه الفترة بقليل تمكن الإسبان من الاستيلاء على العرائش بمساعدة من المأمون السعدي.

وأحب هنا أن أنقل صورتين مختلفتين لمأساة الأندلس وأبنائها، الذين رمى بهم الإسبان إلى ما وراء البحر الأبيض، فأفلت شمس العرب بتلك الربوع، ولم تبق إلا رسوم لآثار تدل على أنهم مروا من هناك في يوم من الأيام، أما الصورة الأولى فهي للمقري وهو يصف خروج آخر سلاطين الأندلس منها وقد ضاع ملكه وهو ينزل بمليلية ثم فاس : (بأهله وأولاده، معتذرا عما أسلفه، متلهفا عما خلفه، وبنى بفاس بعض القصور على طريقة بنيان الأندلس : رأيتها ودخلتها...) وفي صورة مأساوية حزينة يصف ذرية سلاطين الأندلس بفاس وهو في هذا حاضر بعقله ووجدانه (يأخذون من أوقاف الفقراء المساكين ويعدون من جملة الشحاذين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم...).

أما الصورة الثانية فهي للأستاذ محمد عبد الله عنان، وهو من أكبر المهتمين بأخبار الأندلس وأدابها، ورغم طول النص فأنقله لأنه بمثابة صورة واضحة المعالم في شأن مأساة الأندلس، حيث يقول : (والآن فلنر بإيجاز ما هي محنة الأندلس، التي صارت في التاريخ مثلا وعبرة من أروع العبر التاريخية : كانت الأندلس الصغرى أو مملكة غرناطة تعيش في عزة وفي رغد، ولم يكن يزعجها سوى عدوها النصراني الرهيب (مملكة قشتالة) التي كانت تعمل بكل ما وسعت على القضاء عليها، وعلى طمس معالم الإسلام فيما بقي من أنحاء الجزيرة، وكان رجال غرناطة الإسلامية ينتظرون هذه النهاية بتوجس وقلق، ولم يكن يساورهم شك في وقوعها عاجلا أو آجلا، وأخيرا فرغت قشتالة من مشاغلها الداخلية، وتأهب ملكاها فرناندو وإزابيلا لتحقيق هذه الأمنية العزيزة، أمنية القضاء على المملكة الإسلامية الصغيرة، والقضاء على ما بقي من آثار الإسلام في إسبانيا، وشهرت قشتالة الحرب على غرناطة وضربتها بكل ما وسعت، وقاومت المملكة الإسلامية الصغيرة ما استطاعت ولكن دون جدوى وسقطت غرناطة وما بقي من مدنها وقراها في يد عدوتها الكبرى، لم يكن هذا كل ما تبقى، فقد كانت قشتالة تبغي القضاء على الإسلام وتحويل الشعب المغلوب إلى أمة نصرانية، ووقع ذلك بالقهر والقوة ولم يفلت من هذا المصير من المسلمين إلا من غادر الجزيرة وعبر إلى المغرب وثغوره، واستعمل الملكان النصرانيان فرناندو وإزابيلا لتحقيق هذه الغاية كل

51) أزهار الرياض في أخبار عياض 54/1.

52) الاستقصا ج 6 ص 53.

ماوسعهممن ضروب القهر والغصب واستعملا لذلك حبرهما الجبار المتعصب الكردينال حمنيس أسقف غرناطة، فأمر بإعدام كل من أبى التنصر أو الخروج من الجزيرة، وأصبحت الأندلس أو كل ما بقي فيها كلها نصرانية، واختفى منها كل ظل الإسلام، ثم توالى الاضطهاد بعد التنصر، فأمر المسلمون بخلع ملابسهم العربية الإسلامية وأن يرتدوا الملابس النصرانية، ويحضروا بها القداس أسوة بالإسبان وأن يتركوا عوائدهم الاجتماعية الخاصة مثل الرقص والموسيقى الأندلسية، وأن يقيموا حفلات زواجهم في الكنيسة على الطريقة النصرانية، ثم تلا ذلك إرغام المسلمين على ترك لغتهم العربية، وعلى تعلم القشتالية لتكون لغتهم القومية، ولاتخاذها لغة التعامل والتحادث، وأنشأ الإسبان للسهر على الشعب المنتصر ومراقبته سرا وجهرا ديوان التحقيق الكنسي (أو محاكم التفتيش) الشهيرة، التي غدت سيفا مسلطا على أعناقهم ترميهم في كل وقت بالمروق والردة، وعدم الإخلاص للدين الجديد، وتقبض على الكثيرين منهم، وتحرق من تحرق منهم، وتجردهم من أموالهم الثابتة والمنقولة عقوبة للردة، وهكذا عاشت الأمة الأندلسية المتنصرة في عذاب لا يوصف واضطهاد لم يلقه شعب في التاريخ، ومع ذلك فإن الكنيسة الإسبانية لم تنجح في القضاء على إيمانهم... ورأت إسبانيا أخيرا أنها أخفقت في سياستها العنيفة، وقررت أن تخرج بهذه البقية الشهيدة من العرب المتنصرين الذين سمتهم منذ التنصر (بالمورسكيين) من أرضها وكان ذلك في سنة (1018 هـ - 1609م) وكان عدد المتبقين من هذه البقية الشهيدة من الأمة الأندلسية يبلغ زهاء المليونين وعبر معظم المتبقين البحر إلى معظم ثغور البحر الأبيض، ولا سيما ثغور المغرب والجزائر وتونس، وتركت حيث نزلت من ذكائها ونشاطها ومهارتها... وتلك هي المحنة التي عاناها المورسكيون الأندلسيون المتنصرون، ولا يعرف التاريخ محنة في مثل روعتها وفظاعتها، ومن ثم فقد أصبحت من أروع الأمثال التي تضرب بها الأمثال) (53) هذه نصوص نقلتها لأنها تكشف عن الصورة الحقيقية التي عانى منها الأندلسيون المسلمون، وما آلت إليه أحوالهم، وتردت إليه حياتهم، قبل وبعد خروجهم من وطنهم.

وإذا كانت هذه النصوص تختلف من حيث زمانها ومكانها، فإنها تدل على أن الأندلس عالقة بالأذهان عند كل الأجيال العربية المسلمة، والصورتان وإن اختلفتا من حيث البعد التاريخي إلا أنهما تتحدان من وجوه ثابتة، كالحقائق التاريخية التي لا ينكرها كل منصف للتاريخ.

ولنرجع بعد هذا إلى المقري الذي عاين هذه الأحداث الجسام، وإن لم يكن قد عايش النكبة من أولها فبقيت على عهده ترن بالمغرب، فكان ما شاهده كافيا للرجوع به إلى الوراء، واستلهام التاريخ لكي ينطق عما جرت به الأقدار فوق أرض الأندلس، ثم تشاء الأقدار أن يترك فاس المصابة بالمخاض ربما في انتظار مولود جديد، ما كان المقري ليعرفه، فاس التي احتضنته، وتمتع فيها بالحظوة، والمكانة الرفيعة سواء من قبل زيدان، أو من علمائها الذين ازدحمت بهم جنباتها، وكان ذلك أواخر رمضان عام 1027 هـ موليا وجهه نحو المشرق، إلا أنه لم يفصل في رحلته الأسباب التي حملته على مغادرة أرض المغرب، غير أن الظروف السياسية المضطربة هي التي حملته ولا ريب على الرحيل، فما كان لعالم مثله أن يبقى وسط هذا الجو المشحون بالمفاجآت المجهولة النتائج، فقد رأى عددا من العلماء يقتلون لأنهم عارضوا رأيا من الآراء، أو أبدوا وجهة نظرهم في قضية من القضايا، أو عذبوا وسجنوا، وشاهد الأمراء يصعدون إلى كرسي الملك اليوم، ليتركوه غدا، وبذلك تمزق جسم الأمة وضعف كيانها، ولم تكن القيادات المتهالكة على الحكم لتحظى بالتأييد الذي يمكنها من إرجاع البلاد إلى سالف مجدها الزاهر، وإعلاء شأنها الغابر، ومما زاد في الطين بلة تلك الفتوى التي أصدرها المأمون في شأن تسليم العرائش للإسبان هدية بدون مقابل من أجل تحقيق ما هو أدنى، يقول صاحب الاستقصا : وكان الشيخ لما خاف الفضيحة وإنكار الخاصة والعامة عليه إعطاءه بلدا من بلاد الإسلام للكفار احتال في ذلك وكتب سؤالا إلى علماء فاس وغيرها يذكر لهم فيه أنه لما وغل في بلاد العدو الكافر واقتحمها كرها بأولاده وحشمه منعه النصارى من الخروج من بلادهم حتى يعطيهم

(53) مجلة العربي عدد 288 - نونبر 1982.

ثغر العرائش، وأنهم ما تركوه يخرج بنفسه حتى ترك لهم أولاده رهنا على ذلك، فهل يجوز له أن يفدي أولاده من أيدي الكفار بهذا الثغر أم لا ؟ (54) وقد أدى صدور هذه الفتوى إلى فرار جماعة من العلماء ـ إذ كانت امتحانا عسيرا بالنسبة لهم خوفا على أنفسهم واستبراء لدينهم وعرضهم، لأن كل من عارض، أو شق عصا الطاعة كان جزاؤه القتل والتنكيل، وقد كان من بين الذين اختفوا أحمد المقري وأبو عبد الله محمد الجنان.

غير أن هذا الأمر لم يكن دافعا مباشرا لخروجه من فاس، بل إنه بقي سنوات أخرى يتصدر مجلس العلم والفتيا، ويحدثنا المقري نفسه في سطور قليلة عن أسباب خروجه من المغرب، لكنها زاخرة بكل المعاني التي لا تدع مجالا للشك، عن تفاقم الوضع بالبلاد فيقول في النفح : (إنه لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب أو رد، ولا محيد عما شاءه سواء كره المرء أو رد، برحلتي من بلادي ونقلتي من محل طارفي وتلادي، بقطر المغرب الأقصى، الذي تمت محاسنه لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصا، وطما به بحر الأحوال فاستعملت شعراء العيث في كل رونقه من الزحاف اضمارا وقطعا ووقصا (55) ويقول في موضع آخر من الكتاب : (ثم ارتحلت بنية الحجاز، وجعلت إلى الحقيقة المجاز...) (56) ويفهم من هذا أن سماسرة الفتن كثروا على مسرح الحياة السياسية، وأنه كلما أطفئت فتنة بمراكش أو تادلة، اشتعلت أخرى بفاس أو سوس، وهكذا... والأمر الثاني أنه ارتحل بنية الحجاز.

كما أن هناك رأيا آخر نقله إحسان عباس في المقدمة التي قدم بها للنفح، وهو رأي للأستاذ محمد حجي متابعا السيد الجنحاني : «وكان خروج المقري من فاس بسبب اتهامه بالميل إلى قبيلة شراقة (شراكة) في فسادها وبغيها أيام السلطان محمد الشيخ السعدي فارتحل إلى الشرق) فخرج المقري من فاس بعد استئذان سلطان البلاد زيدان السعدي، ولم يثنه عزمه عن شيء حتى تلك الأبيات الشعرية التي استشهد له بها بعض أصحابه المغاربة من شعر ابن خاتمة الذي يقول : (57).

أشمس المغرب حقا ما سمعنا
بأنك قد سئمت الإقامه
وأنك قد عزمت على طلوع
إلى شرق سموت به علامه ؟
لقد زلزلت منا كل قلب
بحق الله لا تقم القيامه

فذهب هذا النداء الودي الحار، وتطاير صداه في الهواء كفقاعات صابون، ودون منفعة ترجى، فركب البحر إلى مصر في رحلة مضنية ومخيفة، وصفها وصفا مثيرا في مقدمة كتابه، وهكذا تحدث عن البحر وأهواله ومخاطره، ومخاوف سفره في البحر وشدائده، فأمواج تعلو وتهبط ورياح شديدة هوجاء، وعواصف عالية تزرع الرعب في القلب، فألم اليأس بمن في السفينة، حتى أنهم يئسوا من الحياة وهم يسمعون صوت تلك العواصف والمياه المتقلبة، فأشرفت نفوسهم على التلف من خوفها واعتلالها، وساءت الظنون، وتراءت في صورها المنون، والشراع يصارع بدوره الأمواج حتى ظنوا وهم في السفينة أن ليس في الوجود أغوار ولا نجود، إلا السماء وذلك السفين، وجمعوا إلى الخوف من الغرق، الخوف من مهاجمة عدو ما، لأن السفينة تمر من أماكن غير آمنة.

والصور التي ينقلها المقري من خلال تصويره لهذه الرحلة المثيرة، تعبير عما في نفسه من خوف ورجاء، كل ذلك في أسلوب جامع لفنون الصنعة والبيان، وفي صور أدبية ممتعة تدل على براعته في تناول موضوعاته، وقدرته في رسم معالم صوره التي يعمل على إيصالها إلى القارئ بكل دقة. وما زالوا كذلك حتى رست بهم السفينة على شواطئ مصر فنزلوا إليها سنة 1027 هـ.

وحصل بعد الشدة الفرج، وتابع رحلته إلى بلاد الحجاز، أواخر سنة 1028 هـ ثم عاد إلى مصر سنة 1029 هـ وقصد زيارة بيت المقدس بعد ذلك في أحد الربيعين من نفس السنة، ودخل المسجد الأقصى فشاهد جماله وبدائعه،

---

54) الاستقصا ص 21 ج 6.
55) من مقدمة نفح الطيب.
56) نفس المصدر 135/5.

57) جعفر بن خاتمة أديب أندلسي عاصر ابن الخطيب.

وسأل عن محل المعراج فأرشد إليه، كما شاهد المكان الذي أم فيه الرسول ﷺ الرسل الهداة، ثم عاد إلى مصر، ومنها قصد البقاع المقدسة سنة 1039 هـ فدخل مكة التي حصلت له بالمجاورة فيها المسرات، وأملى بها دروسا عديدة، كما أملى الحديث النبوي بمرأى ومسمع، ثم قفل راجعا إلى مصر بعد الحج، فلازم خدمة العلم بالأزهر الشريف، وعاد مرة أخرى إلى بيت المقدس فأقام بها نحو ستة وعشرين يوما، وألقى دروسا بالمسجد الأقصى والصخرة وزار عدة مزارات كمقام إبراهيم الخليل ومن معه من الأنبياء، ومن هناك عن له أن يرحل إلى دمشق الشام، تلك المدينة التي أعلت من شأنه ومكانته، والتي سأبسط فيها القول من خلال الحديث عن علمائها وأعيانها الذين التقى بهم الشهاب، والمكانة التي حظي بها عندهم، مما كان سببا في تأليف كتابه القيم نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب...

نداء إلى أساتذتنا وعلمائنا

مجلة دعوة الحق مقبلة على تطوير موضوعاتها وتجديد شكلها استجابة للدور المسؤول والهام الذي تضطلع به بلادنا نصرة لقضايا الامة الاسلامية ودفاعا عن توجهاتها المصيرية.

واذا كان الفكر الاسلامي الذي انشأ حضارة انسانية اعطت للعالم ينابيع متدفقة لا ينضب معينها ارشدته الى الطريق الضامن لتقدمه وتطوره في اجواء يهيمن عليها الهدوء النفسي، وتطبعها الفضيلة والاخلاق المثلى، فان من آكاد الواجبات على مثقفينا ومفكرينا ان يوالوا الاسهام الجاد والمبدع في المسيرة التي تنهض بها امتنا الاسلامية في مختلف اصقاع العالم لكي يبقى عالمنا الاسلامي عالما تظلله الحكمة والفضيلة والتعاون والوئام.

ودعوة الحق وهي توجه هذا النداء الفكري الى اساتذتنا وعلمائنا لتنتظر منهم المشاركة المتواصلة على صفحاتها في مجال الفكر والثقافة الاسلاميتين.

صور من إسهام المغرب الوسيط في تنظيم الشباب ومغامرات الشباب.

الأستاذ محمد المنوني

يصادف هذا العدد بالذات موعد عيد الشباب ليحول اتجاهنا إلى مساهمة مناسبة، ولهذا سنتناول الموضوع من بدايته، ونتحدث عن الانطلاقة الأولى لحركة الشباب.

وقد كان الموحدون أول من تنبه في الغرب الإسلامي إلى الاهتمام بالشباب، وجاءت هذه المبادرة من طرف عبد المومن بن علي، وهو الذي أحدث المدارس بالمغرب، وأسس فيها الألعاب الرياضية، كما ألحق بها فرقا للكشافة أطلق عليها اسم الكاشف، ليستخدمها في ميدان التربية، والعمل على نشر الفضيلة وقمع الرذيلة، وبهذا يكون المغرب سبق أوروبا لهذا الابتكار، ويكون عبد المومن هو المؤسس الأول للكشفية، بينما يبقى «لِبادن باول» فضل تنظيم هذه الفرق وبعث مناهجها في العصر الحديث.

وسوى هذا : فإن العاهل الموحدي منح إعداد الشباب عناية خاصة : ولنستمع إلى مؤلف الحلل الموشية يتحدث عن منهاج المدرسة الموحدية حسب الفقرة التالية :

«وربى (عبد المومن) الحفاظ بحفظ كتاب الموطأ وغير ذلك... من تواليف المهدي، قد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريده فيأخذهم يوما بتعلم الركوب، ويوما بالرمي بالقوس. ويوما بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه. ويوما يأخذهم بأن يجذفوا على قوارب صنعها لهم في تلك البحيرة، فتادبوا بهذه الآداب : «تارة بالعطاء وتارة بالأدب»

وقد أعطت هذه التجربة الموحدية نتائج ملموسة في دنيا الشباب، ولمع في هذا العصر نوابغ مبكرون في مختلف فروع المعرفة، وفي الوقت نفسه صار الجهاز الموحدي يزدان بإطارات فتية اضطلعت بمهمات على مختلف المستويات، ومن بين الأسماء الفتية في نفس العهد يذكر الكاتب ابن عطية، وأخوه أبو عقيل، وابن رشد الحفيد الذي تولى القضاء في سن سبعة وعشرين عاما، ثم أبو بكر ابن زهر الطبيب الأول للناصر الموحدي، وعبد الواحد المراكشي مؤلف «المعجب».

ومن بين الشعراء المبكرين الذين كانوا يتقدمون بين يدي عبد المومن : نذكر إثنين إستمع إليهما نفس العاهل عند جوازه للأندلس، وكان الأول هو محمد بن غالب الرصافي الذي قدم في هذه المناسبة قصيدة مطولة ولا يزال لم يكتمل عشرين سنة، ثم كان الثاني هو أبو حفص بن سعيد العنسي : في قصيدته عامرة انتزعت إعجاب الجميع بالفتى الحدث السن.

وقد وازى هذا الاهتمام الموحدي طموح شعبي تمثل في انسياق الشباب المريني للمغامرات السياحية، ويتعلق الأمر بثلاثة شبان يتمثلون في ابن رشيد السبتي، وأبي القاسم التجيبي السبتي، وابن بطوطة الطنجي.

وقد ابتدأ هذا الأخير رحلته من عام خمسة وعشرين وسبعمائة، حيث كان في مقتبل شبابه : من اثنين وعشرين عاما.

ومع هذه السن المبكرة فإن الشاب المغربي استطاع أن يقوم بأكبر رحلة استطلاعية في العصر الوسيط، ويزيد في أهمية هذه المغامرة أن ابن بطوطة يسجل عن رحلته معلومات لم تكن معروفة إطلاقا عند الناس.

فهو يذكر عن مصر استعمال شبه ورقة الجواز للسفر ببعض مناطقها، ويقول عن مدينة دمياط : وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج منها إلا بتوقيع الوالي.

وعن الصين يذكر استعمال الفحم الحجري، ويسجل أقدم إشارة إلى استخدام ورق النقد في التعامل، وهو يقول في هذا : وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم، وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد، كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان، وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا، فأخذ عوضها جديدا ودفع تلك، ولا يعطي على ذلك أجرة ولا سواها.

وقد أعجب الرحالة ببعض أنظمة التأمين الاجتماعي في هذه البلاد، حيث إن العامل أو الصانع كان يعفى من العمل وتنفق عليه الحكومة إذا بلغ الخمسين.

ومن أمتع ما في الرحلة حديثه عن جمعيات الفتيان، وكانت منتشرة في جميع البلاد التركية، وهي جماعات تضم الشبان الأعزاب الذين ينتخبون أحدهم رئيسا عليهم، ويتخذون مقرا لجمعيتهم، وقد أثارت هذه الظاهرة إعجاب الرحالة فكتب عنهم يقول :

«ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس، وأسرع إلى إطعام الطعام، وقضاء الحوائج، والأخذ على أيدي الظلمة، وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر».

وهو يذكر ـ بعد هذا ـ أن رئيس هذه الجمعية يجتمع عليه أهل صناعته وغيرهم من الشبان الاعزاب والمتجردين، ويحتفلون في تجهيز مركزهم بما يحتاج له من التجهيزات الكافية، وهم يعملون بالنهار في طلب معايشهم. ليأتوا إلى رئيسهم بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام وما إلى ذلك، فإن ورد في ذلك اليوم مسافر أنزلوه عندهم، ولا يزال في ضيافتهم حتى ينصرف، وإن لم يرد مسافرا اجتمعوا على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغد.

وهكذا تقدم هذه اللقطات الموحدية والمرينية صورا من إسهام مغرب العصر الوسيط في تنظيم الشباب ومغامرات الشباب، وهي ظاهرة ستتطور في القرن العشرين لتأخذ أعياد الشباب مقامها المرموق بين الأعياد الوطنية بالمغرب وسائر جهات المعمور.

الرباط **محمد المنوني**

عيد الشباب

للأستاذ محمد التدرجاوي

تحتفل الأمة المغربية هذه الأيام عن بكرة أبيها بمناسبة من أطيب المناسبات الوطنية، وأخلدها ذكرا، وأبعدها أثرا في تكوين المغرب الجديد وتوحيده، وإحلاله المكانة المرموقة التي يحتلها بين دول العالم. نعم تحتفل الأمة المغربية من أقصاها إلى أقصاها في التاسع من شهر يوليوز الجاري بعيد الشباب المجيد، عيد ميلاد صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله.

المولد السعيد والإعداد :

ففي مثل هذا اليوم من سنة 1929 ازدانت رحاب القصر الملكي العامر في الرباط بطلعة مولود سعيد اختار له والده جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه من الأسماء أحسنها : الحسن، ورباه في كنفه أحسن تربية، وأعده أفضل إعداد لتحمل المسؤوليات الجسام والقيام بالأعمال العظام، فطفق الأمير الصغير سليل الدوحة النبوية الشريفة ينهل من مناهل العلوم والعرفان، وهو لا يزال فتى يافعا، فدرس القرآن الكريم وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف على يد جماعة من جهابذة العلماء والفقهاء بالقصر الملكي العامر، ثم شرع في تحصيل الثقافة العصرية من أكبر معاهدها حتى حصل على أرفع الشهادات من جامعة بردو في فرنسا، مستكملا بذلك تكوينه العلمي والفكري.

الأمير المناضل :

لم يكن طريق المجد والشهرة في ذلك الوقت مفروشا بالورود خاصة بالنسبة للأمير الجليل الذي سيتقلد فيما بعد ولاية عهد المغرب. فقد كان المغرب في تلك الفترة خاضعا للحماية ومقسما إلى مناطق نفوذ أجنبي متعددة. وكان على الأمير أن يشارك والده أولا في تحرير البلاد من براثن الاستعمار. وقد تحمل في سبيل ذلك المشاق وركب الصعاب. فعبر عن وطنيته ومساندته لحركة التحرير الوطني ولما يزل تلميذا في المدرس المولوية عندما شارك وزملاءه التلاميذ في المظاهرة التي نظمت بالمشور السعيد في الوقت الذي كانت فيه المظاهرات التحريرية تندلع في جميع ربوع المملكة غداة تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال يوم 11 يناير 1944.

لقد أغضبت مساندة الأمير مولاي الحسن للوطنيين سلطات الحماية كما أغضبها كفاحه من أجل استقلال البلاد، فأعلنت معارضتها الشديدة لمواقفه الوطنية هذه. لكن ذلك لم يثنه عن عزمه القوي ولم ينل من إرادته الصلبة، بل ظل يساهم بمجهود مضن ومتواصل إلى جانب والده والشعب المغربي قاطبة في مكافحة الاستعمار ومجابهته.

الأمير في المنفى مع والده والأُسرة المالكة :

لما رأى المستعمرون إصرار الأُسرة المالكة على مساندة الشعب المغربي في مطالبته المشروعة بالاستقلال، والتحامها به، وكفاحها إلى جانبه، أيقنوا أنه ليس هناك ما هو أخطر على وجودهم في المغرب من الحب المتبادل بين هذه الأُسرة الملكية وشعبها. واعتقدوا أن لامخلص لهم من تحقيق المطالبة بالاستقلال إلا إذا نفوا الأُسرة المالكة بعيدا وفرقوا بينها وبين هذا الشعب المتعلق بها.

وهكذا نفوا الأُسرة الملكية سنة 1953 إلى كورسيكا أولا ثم إلى مدغشر في أقصى إفريقيا بعد ذلك. فعانى الملك الصالح محمد الخامس تغمده الله برحمته من النفي والغربة في سبيل الدفاع عن حرية المغرب واستقلاله، وكان أفضل رفيق له في غياهب المنفى السحيق سمو الأمير مولاي الحسن.

النفي يقوي وشائج الصلة بين الأُسرة المالكة وشعبها :

لكن هيهات ثم هيهات أن يتم للسلطات الاستعمارية ما أرادت، فلا الملك ولا الأمير تراجعا عن مساندتهما للوطنيين، وما زادهم النفي إلا تشبثا بمطالبهما العادلة، مما زاد الشعب تعلقا بهما وتأجيجا لنار الثورة على المستعمرين الذين اضطروا أخيرا إلى الرضوخ أمام تصاعد المقاومة. فعادت الأُسرة الملكية إلى المغرب ظافرة منتصرة يوم 16 نونبر 1955 وتم الإعلان عن استقلال المملكة المغربية في ثاني مارس 1956.

سمو الأمير مولاي الحسن يعين ولي عهد للمملكة المغربية :

وفي مثل هذا اليوم الذي نحتفل فيه بهذه الذكرى الغالية، ذكرى عيد الشباب المجيد من سنة 1957 عين بطل التحرير جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه، فلذة كبده ورفيقه في الكفاح سمو الأمير مولاي الحسن وليا لعهد المملكة المغربية، وقد ألقى خطابا توجيهيا أثناء حفل التعيين نقتطف منه الفقرة التالية :

«أوصيك ببلدك المحبوب، وطنك المغرب، أرض الأمجاد وأمانة المكتسبات الحديثة والقديمة. حافظ على استقلاله ودافع عن وحدته الترابية والتاريخية، ولا تسمح بالنيل من حريته وبتجزئ أراضيه»

ولم يمكث الأب الحنون مع الإبن البار بعد ذلك إلا سنوات يسيرة، ثم اختاره الرفيق الأعلى إلى جواره في 26 فبراير 1961 تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته.

جلالة الملك الحسن الثاني :

اعتلى عرش أسلافه المنعمين يوم 3 مارس 1961، وبذلك يكون الملك السابع عشر من سلالة العلويين الأشراف الذين تعاقبوا على حكم المغرب،

لقد أنهى مرحلة الجهاد الأصغر من أجل التحرير والاستقلال ليبدأ مرحلة الجهاد الأكبر من أجل بناء صرح المغرب واستكمال وحدته الترابية وتبوئه المكانة اللائقة به بين شعوب الأرض. وأقسم على نفسه أن لا يهدأ له بال حتى يحقق هذه الطموحات البعيدة كلها، وينفذ ما أوصاه به والده كاملا غير منقوص، فحالفه التوفيق والنجاح، وحقق كل آماله وزيادة.

☆ ☆ ☆

إننا إذ نخلد اليوم هذه الذكرى الجليلة، ذكرى عيد الشباب بما يناسبها من الاحتفالات والمهرجانات والقيام بالأعمال التطوعية، والاستعراضات الرياضية، والسعادة تغمرنا، والإعجاب يملؤنا... فإنما نخلد في الحقيقة حدثا غير مجرى التاريخ بالنسبة لنا. إننا نخلد في عيد الشباب ذكرى ميلاد محرر المغرب وضامن وحدته واستقلاله، ونخلد فيه أيضا ذكرى ميلاد باني صرح المغرب الجديد ورائد نهضته الحديثة، كما نخلد فيه ذكرى ميلاد قائد إسلامي كبير، وزعيم عربي عظيم، ونخلد في عيد الشباب كذلك ذكرى ميلاد رجل عالمي طبقت شهرته الآفاق وسارت بذكره الركبان في كل الأنحاء :

جلالة الملك الحسن الثاني يستكمل الوحدة المغربية :

وعندما استقل المغرب سنة 1956 بقيت أجزاء كبيرة منه تحت النفوذ الأجنبي. فصمم الحسن الثاني على مواصلة

الكفاح من أجل استرجاع هذه الأجزاء واستكمال الوحدة الوطنية. وقد تمكن من تحرير إقليم طرفاية من الإسبان سنة 1958 كما استرد منهم مدينة سيدي إفني في 30 يونيو 1969.

وفي سنــــة 1975 أعلن عن تنظيم المسيرة الخضراء المظفرة التي شارك فيها 350.000 متطوع ومتطوعة مسلحين بالإيمان الصادق والعزائم القوية، حاملين المصاحف الشريفة. والأعلام المغربية، فعبروا الحدود الوهمية إلى الصحراء المغربية التي لم تكد تطؤها أقدامهم حتى سارع أشرافها ونبلاؤها وأهل العقد والحل فيها إلى إعلان ولائهم وإخلاصهم للعرش العلوي المجيد، مجددين للجالس عليه البيعة التي كانت تطوق أعناق آبائهم وأجدادهم من قبل. وبذلك عبر سكان المناطق الجنوبية من المملكة، فرادى وجماعات، عن مغربيتهم التي لايماري فيها إلا جاحد، كما عبروا عنها أخيرا أصدق تعبير من خلال ذلك الاستقبال الرائع الذي خصصوه لرمز الوحدة المغربية وصانعها، جلالة الملك الحسن الثاني أثناء زيارته الميمونة للأقاليم الجنوبية في مارس 1985.

بناء صرح المغرب الجديد :

لم يكن الاستقلال هدفا في حد ذاته بقدر ما هو وسيلة للبناء والتشييد، فقد كان المستعمرون الأجانب ينهبون خيرات البلاد دون أن يقيموا فيها أي تجهيزات أساسية، اللهم ما كان يتطلبه استغلال الخيرات وتهريبها. لذلك كان على الدولة المغربية بعد الاستقلال أن تقوم ببناء الموانئ وتشييد المدارس والجامعات والمستشفيات وتعبيد الطرق والمطارات وإقامة السدود على الأنهار والتنقيب عن المعادن والثروات الباطنية... وغير ذلك من الميادين التي اعتنى بها المغرب، وحقق فيها خلال العقود الثلاثة الأخيرة نهضة اقتصادية واجتماعية لم يسبق له أن عرفها من قبل بفضل السياسة الرشيدة لجلالة الملك الحسن الثاني، وبفضل التصاميم الإنمائية التي وضعها.

كذلك نعم المغرب في ظل الملكية الدستورية بتجربة ديموقراطية رائدة، وبتعددية حزبية لا مثيل لها في دول العالم الثالث.

الاهتمام بالقضايا الإسلامية :

لقد واكب الاهتمام بالبناء والتشييد اهتمام كبير بالناحية الروحية من طرف أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني، فانتشرت الكتاتيب القرآنية في ربوع المملكة لتحفيظ كتاب الله العزيز لناشئتنا. كما تم تشييد آلاف المساجد، ليس فقط في مدن المغرب وقراه، وإنما أيضا في العديد من الدول الإسلامية خاصة في إفريقيا حيث كان الإشعاع الحضاري المغربي دائما منارا يهتدي به.

وفي ميدان إحياء التراث الإسلامي المغربي تم تحقيق ونشر مئات الكتب من ذخائر المخطوطات النفيسة، إلى جانب إنشاء المجالس العلمية وعقد حلقات دراسية في شهر رمضان الكريم، يتبارى فيها فطاحل العلماء في شتى علوم الدين من تفسير وحديث وفلسفة ومنطق وغير ذلك.

لم يكن اهتمام أمير المؤمنين بالقضايا الإسلامية منحصرا في حدود المغرب، وإنما كان يهتم بقضايا العالم الإسلامي كله، لذلك نراه يبادر سنة 1969 إلى الدعوة لعقد أول مؤتمر إسلامي ليتدارس القادة المسلمون خلاله قضية إحراق المسجد الأقصى. وكان هذا المؤتمر النواة الأولى لقيام منظمة المؤتمر الإسلامي الذي انبثقت عنه لجنة القدس فيما بعد.

القائد العربي الملهم :

إن مواقف جلالة الملك الحسن الثاني من القضايا العربية، وفي طليعتها القضية الفلسطينية، مواقف ثابتة لا تتزحزح، وتتمثل في الدعم اللامشروط والتأييد المطلق. وأصدق شاهد على ذلك الدماء المغربية الزكية التي سالت على أرض سيناء وفوق مرتفعات الجولان دفاعا عن الحق العربي خلال سنة 1973.

كما أن أهم قرار سياسي اتخذ حول القضية العربية، وهو القرار التاريخي الذي نص على أن منظمة التحرير الفلسطينيـــة هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، قد صدر عن مؤتمر القمة العربي الذي ترأسه جلالة الملك الملهم في الرباط سنة 1974.

هذا فضلا عن الكثير من المواقف العربية الشجاعة، واستضافة العديد من مؤتمرات القمة والدعوة إليها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، كما فعل جلالته في الشهر الماضي (يونيو 1985) عندما أوفد مبعوثين إلى ملوك ورؤساء الدول العربية يدعوهم إلى عقد مؤتمر قمة طارئ لدراسة ما يجد من الأمور. وقد تلقى القادة العرب الدعوة الملكية بقبول حسن.

الرجل العالمي المحنك :

إن جلالة الملك الحسن الثاني بما حباه الله به من خصال حميدة ومناقب حسنة، يعتبر من أبرز رجالات عصره، والمغاربة إذ يحتفلون اليوم بعيد ميلاده، فإنما يحتفلون بمولد أحد عظماء التاريخ الذين أنجبتهم هذه الأرض الطيبة. إنه يتوفر على ذكاء خارق ورأي سديد وعقل راجح وبلاغة نادرة، وهي صفات جلبت له الاحترام والتقدير من جميع قادة العالم، كما أعطت للمغرب وزنا كبيرا في المحافل الدولية كمنظمة الأمم المتحدة وكتلة عدم الانحياز ومنظمة المؤتمر الإسلامي وغيرها.

قال أحد مبعوثي صاحب الجلالة إلى أمريكا اللاتينية : كنا نعتقد أن المغرب غائب تماما عن هذه القارة، لكننا وجدنا رؤساء الدول فيها يعرفون مواقف صاحب الجلالة ويعرفون آراءه ويقدرونه حق قدره، ويكنون له بالغ الاحترام والإعجاب.

ملك سعيد وشعب أسعد :

قال جلالة الملك في إحدى خطب عيد الشباب :

«حقا شعبي العزيز إنني سعيد وفخور بعيد ميلادي لأنه كان في الإمكان أن ازداد في حقبة أخرى من الزمن، سعيد لأنه كان في الإمكان أن لا أعيش في هذه الظروف أو هذه الحقب من الملاحم، سعيد لأنه لو تقدمت أو تأخرت لما شاهدت ما شاهدته، لما شاركت فيما شاركت فيه، ولما أعطيت من نفسي وجهدي وشبابي وقوتي ما أعطيت وما بذلت، فخور بأن ولدت في المغرب، وأن أكون فردا من الأسرة الكبرى الأسرة المغربية، لأن الشعب المغربي جدير بأن يطمح بأن ينتسب إليه كل عظيم عظيم، ويعد في سجل مواليده كل حكيم حكيم».

وإذا كان الملك سعيد بعيد ميلاده فإن الشعب المغربي بهذا الميلاد أسعد نظرا لما للمولد من أيادي بيضاء لا تعد ولا تحصى.

«فاهنأ أمير المومنين ولا تزل
تعطي السعادة في البقاء وتنصر»

«عمت فواضلك البرية فاستوى
فيها المقل مع الغني والمكثر»

الرباط **الدرجاوي محمد**

عيد الشباب الأغر

ذكرى 9 يوليوز الذكرى المجيدة

للأستاذ الحاج أحمد معنينو

بمناسبة هذه الذكرى المجيدة التي اتخذت فور حصول المغرب على الاستقلال والحرية فتأسست هذه الذكرى الغالية تتويجا للاستقلال واعترافا بجميل الذين كافحوا من أجله وتعرضوا لأخطر المسؤوليات وزهدوا من أجله في ملاذ الحياة ومظاهرها الخلابة.

وجلالة المولى الحسن الثاني في مقدمة الركب حيث كان لجانب والده المقدس محمد الخامس طيب الله ثراه العضد الأيمن والسند القوي فوجب اتخاذ يوم ولادة جلالته عيدا من الأعياد الوطنية يعتبره الشعب المغربي اعتبارا كبيرا ويقدس الجالس على العرش كلما حل هذا اليوم المجيد...

أما وقد هل هلاله والشبيبة المغربية متشوقة، ومتشوقة للتعرف على الأحداث الوطنية والهزات النفسية التي سايرت عهد النهضة الفكرية واليقظة العلمية والوطنية منذ نشوء الحركة البربرية (16 ماي 1930) تلك الهزة النفسية الكبرى التي أيقظت النوام ومنها أصبح المغاربة يخطون لطريق التحرير من كابوس الاستعمار البغيض، وها هو الشعب المغربي يسير في الطريق لبلوغ الأهداف السامية في العهد الحسني الزاهي.

فلقد اعتلى عرش المغرب بعد وفاة الملك المفدى وذلك في يوم 3 مارس وأصبح الشعب المغربي يقيم الحفلات ويشيد بالذكريات كلما حل هذا التاريخ المجيد، وكيف لا وهو تاريخ ميلاد ولي العهد وثمرة الجهاد ورفيق الغربة وما مات من خلف الأبناء البررة والخلفاء الرشداء...

منذ اعتلاء المولى الحسن الثاني عرش أسلافه الميامين وهو حفظه الله يسمو ويشمخر في الإشادة والتعمير والتكوين والتهذيب ونشر الوعي واليقظة في كل ميادين الحياة...

وان جل الذين يتكلمون على مقومات الشعب في ترقية هذه الحياة تتناول في الميادين الاقتصادي والسياسي أما كلمتي هذه فإنها تتعرض إلى الناحية الروحية التي يهيم بها سيد

البلاد هيا لا مثيل له فعمله الدائب جمع الشمل بأطراف البلاد والسهر على وحدتها الكبرى وتطهيرها من الأجانب الدخلاء والذود عن المكتسبات بكل نفيس وغال. مهما كان الثمن غاليا...

أجل انني أخص بالتسجيل والاعتبار في هذه المناسبة الخالدة ما سجله ويسجله جلالته في ميدان العناية بالقرآن وبالسنة وبالأمجاد الإسلامية في هذه الربوع، فلقد أبدع وأجاد في إنشاء (دار الحديث الحسنية بالرباط) المؤسسة الإسلامية الرفيعة التي اشتهرت في أقطار العالم الإسلامي أجمع وأصبح الإقبال عليها من أطراف العالم الإسلامي وظهر منها علماء محدثون نبلاء وهي تسير سيرا محكما سويا...

كما أبدع جلالته في إنشاء (دار القرآن) برباط الفتح أيضا لتكوين قراء مجيدين يحسنون تلاوته طبق المطلوب شرعا مع الفهم واحكام الاتجاهات...

ونود مخلصين أن تتاح الفرصة لتوسيع برامج هذه المؤسسة القرآنية الإسلامية كسابقتها دار الحديث الحسنية لصنع قراء أكفاء بررة عارفين بقيمة القرآن وأحكامه وأسرارهوتلك قرة عيون مؤمنة.

كما نود مخلصين أن تتاح الفرصة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لتشيد على منوالها مدارس ومدارس حسب نهجها القويم وطريقها المستقيم، ومدينة سلا الجارة التوأمة للرباط تتوق إلى هذه المكرمة حيث تتوفر بها بناية جاهزة وصالحة على ملك الأحباس الإسلامية وتحت تصرفها وهي مؤسسة مثالية انتجت النتائج الحسنة في جو المدرسة الحرة فأبرزت نخبة من الأبناء والبنات في الميدانين العلمي والأدبي التربوي والخلقي (مدرسة سمو الأميرة للا عائشة بحي طالعة سلا) فكانت النتائج حسنة ومشرفة... نعم أصبحت هذه المؤسسة تحت نظر الأحباس من لدن المنشئين لها حتى تدوم وتستمر مدرسة لتعليم كتاب الله ونهج القرآن إلى قيام الساعة وفق مبدأ «من بدل أو غير فالله حاسبه».

كما نود أن تكون الكتاتيب القرآنية أيضا تحت هذا الإشراف حتى تعطي النتائج المرجوة منها وفق ما أراده سيد البلاد ورائدها حين دشن أول كتاب ليتلقى فيه ولي العهد كتاب الله وليعم كافة أبناء شعبه، فدعا الأمة المغربية قاطبة بتحسين أحوال الكتاب القرآني النموذجي بأطراف المغرب !؟

ولكن الفكرة لم تسر سيرها المطلوب والآن أستسمح وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في العصر الحاضر أن تتكرم وتبادر بإصلاحات جوهرية للكتاتيب القرآنية بالإشراف عليها ماديا ومعنويا وذلك بتهويتها التهوية الصحية ومجاري الماء الحار وجلب الماء للشرب والتطهير والوضوء والفرش بأحسن من جهة، واختيار المعلم الصالح لتنشئة الأبناء من جهة ثانية طبق رغبة سيد البلاد، الذي يسهر على السير المحكم لهذا التعليم الأصيل وانه لأكبر دليل وأسطع برهان على الاقتداء والاهتداء بهدي الإسلام وتعاليم القرآن، هذا الميدان المتبع لمغربنا العزيز منذ عهد إدريس الأول مؤسس العرش المغربي المسلم ولا ريب أن ذرية النبوة وسلالة الرسول الأكرم هي الأولى بالحفاظ على هذه التقاليد الكريمة، والعمل الدائب على تكوين التنشئة المومنة التقية...

ان جلالته لم يقف عند اتجاه واحد بل عدد وجدد حرصا من جلالته على السلوك القويم الذي يعد الركيزة الأساسية في تنشئة أبنائها على سن الهدى والرشاد وسبيل الله ورسوله فلقد أشار جلالته يوم تدشين الكتاب القرآني النموذجي لفلذة كبده الأمير المحبوب المولى الرشيد أصلحه الله مع زمرة من أبناء شعبه الكبير واحتفل أعز الله أمره على مرأى ومسمع في ركب ضم علية أصحاب الفضيلة من العلماء والشرفاء إلى جانب رجال الدولة، فأعطى جلالته المثل الأعلى للتكوين الإسلامي والتربية القرآنية بأبنائه البررة لكي يفسح المجال أمام أبناء الشعب الوفي وليخط له الطريق لتربية الأبناء وفلذة الأكباد طبق واجبات المسلم.. فلقد ورد عنه عليه السلام انه قال :

«ربوا أبنائكم على ثلاث خصال» :

حب نبيكم، وحب آل بيته، وتلاوة القرآن أو كما ورد... فلقد شاهد الشعب أجمعه على الشاشة الصغيرة ما حبا به جلالته هذا الطفل الميمون من عناية ورعاية وتكوين خلقي حيث أمر أعزه الله الابن البار أن يتفضل بالتحية والسلام على أصحاب الفضيلة الذين شرفهم جلالته بالمجلس، ودشن عهد الفتوة الصالحة، نعم أصدر أمره لابنه البار أن يسلم على السادة العلماء والشرفاء وأن يطلب منهم صالح أدعيتهم لسموه بالفلاح والنجاح.

لقد وجب التذكير في هذا اليوم الأغر بما سنه صاحب الجلالة في تعليم وتهذيب أبنائه على بركة الله بالشروع توا بفاتحة الكتاب (باسم الله الرحمان الرحيم) هذا السلوك القويم المتوارث في البيوتات الملكية على تعاقب الزمان، وهي سنة الشعب المغربي قاطبة إلا ما وقع في عهد الحماية من دس ومكر لهدم هذه التربية القويمة واستبدالها بتعجيم الألسنة ومسخ الأفكار ومسخ الأفئدة والتنكر لأمجاد الإسلام ولغة العروبة تلك الخطوة المدسوسة المدروسة التي عمل لها المستعمر فهيأ لها الأجواء وزين طريقها باستلام المناصب ولو بسيطة وإسناد المراتب ولو ضعيفة وضئيلة وتزين الحياة المادية الدمية المنحطة الخسيسة لكن ملوكنا الأشواش في كل العصور كانوا يقدمون العلاج الواقي للشعب من الوقوع في الفخ أو المكيدة المبيتة فعلى شعبنا الكريم الاقتداء والاهتداء بسنن الأمجاد ولقد أطلت في هذا العرض لأنه مفتاح حياة الطفولة وتكوين الأجيال.

فالطبيب والمهندس والمحامي والفيلسوف والأستاذ والميكانيكي والمخترع والفلاح والتاجر والصانع : كل هؤلاء وجودهم ضروري لحياة الشعوب ولكن شعبنا المسلم الذي مرت عليه عشرات القرون في المجد والإسلام، وتعاليم القرآن يجمل به أن لاينفر عن مبادئه الأولى وخصاله الحميدة وتربيته للعائلة البيتية بالتهذيب والتنظيم وبالخلق الكريم والطهارة الحسية والمعنوية التي يجب أن تسبق تلك الصفات السالفة الذكر وفي دائرتها يحسن السير والسلوك....

فنحن لسنا أعداء التقدم والازدهار في العلوم الكونية والعقلية لأن السلف الصالح سباق إلى الميدان وناجع في الرهان ولا ننكر فضل العلوم الحديثة ولا الاختراع والابتكار، ولكن شرطنا الأول والأخير تكوين أطفالنا وبناتنا على مبادئ التربية الإسلامية والخلقية، وفي دائرة ذلك ندرس ما شئنا من اللغات والمهن والاتجاهات والشؤون العامة والخاصة حتى لانفقد مقوماتنا كشعب مسلم مجاهد ضد الكفر والإلحاد والزندقة والانحلال **لتعود أمجادنا**، وتجدد الذكريات لصاحب الجلالة الحسن الثاني، القدوة الحسنة في التربية الإسلامية والخلقية القرآنية وكفانا مفخرة موقف جلالته بالاحتفال بمرور أربعة عشر قرنا على نزول القرآن في الذكرى المجيدة الذي اهتز لها عطفه وافتر لها ثغره واوقف لها وقته الثمين واستدعى العلماء الأجلاء من أطراف المعمور فمرت الاحتفالات والتكريمات بها في جو من الصفاء والوفاء للقرآن ومبادئه... وهذه إحدى أمجاده ومواقفه النبيلة كما أن عناية جلالته بالدروس الرمضانية وجلب علماء العالم الإسلامي للمساهمة فيها بآرائهم وأفكارهم، كل هذه الصفات المجيدة نعدها طريقا واضحا لتربية الشعب على سنن القرآن ونهج السنة....

أسعد الله جلالته بهذه الذكرى المجيدة وأطال حياته ووفقه للمزيد من هذه الموازين الحسنى والمواقف المشرفة وجعل التوفيق الإلاهي محيط بحركاته وسكناته وحفظه بما حفظ به الذكر الحكيم وسهل له كل وعر وحفظه في ذريته الأمراء الشرفاء النبلاء في حياة كلها مجد وعز وشرف، آمين.

سلا　　ج أحمد معنينو

في أفق عيد الشباب

تطلعات رائدة

للأستاذ : أبو مهدي

□ الذكرى السادسة والخمسون لميلاد أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وذكرى عيد الشباب، تهل طلعتهما على هذا الوطن العظيم وصرح كيانه الموحد من سواحل المتوسط الى أقاصي الصحراء، في أتم مظاهر حصانته، واوفى مقامات مناعته، وفي أقوى ما يكون عليه بلد أصيل مكين، من صلابة البنيان، ورسوخ القواعد والأركان.

□ تهل اشراقات هذه المناسبة العظيمة وهذا المغرب الذي انجبته المسيرة الخضراء، وقد تلاحمت — من منطلق تلك المسيرة — أمتن ما يكون التلاحم، مقومات وحدته، وتكامل أقوى ما يقع به التكامل — قوام حوزته، وترسخ كل الرسوخ، اجتماع شمله، والتآم اجزاء بنيته، وتفتح بذلك الأفق رحب الجنبات وشاسع الاكناف، امام مساره التاريخي في ظل التكاملية الطبيعية والتاريخية، التكاملية المادية والبشرية التي كرست وجوده على مدار الأيام، وتطاول الازمان، والتي حددت له الملامح المتعينة بها صورته الحضارية المتميزة.

□ يطل محيا المناسبة على البلد، وشبابه المتوقد حماسا، الوطيد ارادة، المتوثب عزما، المتحفز لكل عمل هادف، لكل اسهام ناجح، لكل اضافة مفيدة الى بناء الوطن. هذا الشباب، يستشف أجمل الرؤى من خلال ما تحقق من حرية لبلاده، وما تسنى لها من كمال وحدة، وما تأتى لها من تمام سيادة، وقوة منعة يستلهم هذا الشباب من ذلك مزيدا من الأيمان بقدرات أمته، والثقة بخصوبة موهبتها في استقطاب اسنى التصورات الابداعية المحددة لمنهجية الفعل وبسعة مجال استطاعاتها في الممارسة والانجاز واستدرار أقصى مكامن ايجابياته واستخلاص أطيب الثمرات المتوخاة منه والوثوق ايضا بما لهذا الشعب في أمره هذا من متين الاقتدار على مواجهة الصعاب المعترضة وتذليل منعرجات السبل المتمنعة، وتجاوز شتى الحوائل والعقبات.

□ ان الشباب المغربي، شباب المغرب في رحاب الجنوب الفيحاء المشارفة آفاق افريقيا الشاسعة والشباب المغربي في الشمال المترامى اطرافا بمقابلة الضفة الاوروبية للمتوسط ان الشباب المغربي هنا وهناك بجنوب المغرب وبشماله ووسطه، ليعيش في جو ومضمون المناسبة التي بزغ فجرها عليه صورا متجددة عن روعة هذه الوحدة التي ينعم بها وطنه الغالي يعيش

هذه الروعة بكل ابعادها النفسية والفكرية والحضارية، وبكل ما تجسده من معان ودلالات وما تجسمه من مثل وقيم واقعة في الصميم من فلسفة الوجود المغربي وطبيعة هذا الوجود وتفاعله مع الحياة.

□ يتنسم الشباب فيما يظله من بيئة هذه المناسبة نكهة التاريخ ونفحاته التي وسعت كل لمعان هذه المعاني والمدلولات، والمثل والقيم نفحات التاريخ التي استوعبت — على امتداد الدهر، وتوالي الحقب — المآثرات العملاقة، المتأتية للوطن بما أوتي من سجايا المعية، وما وهب من عبقري الخلال والصفات.

يستجلي الشباب في غمرة انفعاله الجميل بعيد الشباب، رؤى هذا التاريخ الذي كان — ودوما — اطارا للقيمة السياسية والحضارية لبلاده، ومستودع بذور الاشعاع الفكري والثقافي لامته ورافدا غني الموارد لاثراء وعيه وبصيرته، وخبرته بتجارب الحياة.

□ يستشرف شبابنا في أفق احتفائه هذا الرؤى الموصولة بمأثرات الماضي، وتفتحات الحاضر والمستقبل، فيتبين في ثنايا ذلك — مفهوما للمناسبة — هو خلاصة ما خاضه هذا البلد — على المدى الطويل — من غمرات نضال في سبيل مثالياته الوطنية وما قدمه — بطواعية على هذا الدرب، من غالي الضحايا وما بذله من جسيم التضحيات وما تحمله — في كل ذلك من عناء تقصر عنه همم غيره وتنوء به عزائم ذلك الغير.

□ كان الهدف عند الاستعمار، تحديد حيوية هذه النزوعات النضالية عند الشباب المغربي وعزل أثرها في فكره ووجدانه ووقف ما يرفدها من ينابيع وما تتفتح عليه من منطلقات واعدة، ثم، التوصل في النهاية — من وراء ذلك — الى اصطناع قطيعة بين الشباب وبين جذوره الثقافية والحضارية حتى يسهل — بالتالي — امتصاص الطاقة النابعة من ادراكه عمق دلالات انتمائه، واستلابه استلابا يخفت به وهج هذه الطاقة وتغيض منه روافدها.

□ وفي هذا المضمون كانت الاستراتيجية الاستعمارية، قد ارتكزت — في أساس ما ارتكزت عليه — على العمل من أجل تجميد فيض التفتح عند الشباب على ذاتيته القومية وكبت تطلعاته وجموح حماسه للمساهمة في إثراء المحتوى النضالي والحضاري لهذه الذاتية كما انبنت هذه الاستراتيجية كذلك، على محاولة النيل من روح المبادرة عند الشباب، مما يستنفره اليه حماسه الوطني وتلقائية الاستعدادات التي يفجر طاقاتها لديه تيار هذا الحماس.

ومن هذا المنطلق، تحددت على مدى الأشواط التي إستغرقتها المعركة ضد المستعمر، معالم حاسمة للصراع معه معالم تعينت بها طبيعة هذا الصراع، ومحاوره وملابساته، وكان لما يعمر فكر ووجدان الانسان المغربي، من شحنات روحية وثقافية، توارثتها أجياله — جيلا في أعقاب جيل — عبر ماضيه الطويل — اثره الموضوعي في ترسيخ موقف الشباب، وتأكيد نضاليته — فكريا وحضاريا — . في خضم المعركة، وتعزيز حصانته ضد ما يراد إيقاعه به من استلاب.

كان عجز الاستعمار عن تحقيق ما ابتغاه من هذا الاستلاب للشباب، من بين أبرز مظاهر الاخفاق التي منيت بها استراتيجيته ، ولم يكن هذا الاخفاق مجرد نتيجة لخطأ في التكتيك لديه، بقدرما كان ناجما عن حتمية منطقية تنكر مبدأ تلك الاستراتيجية على الاطلاق باعتبار أنها مقامة على إفتراضات لا وجود لها، إفتراضات تجهل أو تتجاهل طبيعة الكوامن التاريخية والحضارية للنفسية المغربية لنفسية شباب المغرب. الذي صاغته — فكرا، وشعورا، ومزاجا، وحوافز — هذه البيئة الطبيعية والتاريخية، وملابساتها السياسية والاجتماعية، التي تحددت بها منطلقات ومصاير وطنه. وتعمقت بها قدرة هذا الوطن على معايشة واستيعاب تيارات الحياة، وتمرسه بها، وموالاة نضالاته — المعززة بعمق الوعي، ورسوخ المواقف، دفاعا عن كينونته وهويته، ومصارعة كل دخيل عليه.

وقد إنتهت هذه المصارعات الملحمية مع الاستعمار في مرحلتها الأولى، الى تكريس هذا الاخفاق الاستعماري تكريسا، كان منه أن تحرر الجزء الأكبر من الوطن شماله ووسطه وبعض جنوبه، ثم كان بعد ذلك — وفي نطاق حتمية ترابطحلقات مسلسل التحرر — بروز المرحلة الثانية التي دشنتها إنطلاقة المسيرة الخضراء، والتي افضت بالوجود الاستعماري في الجنوب الى نهايته، وتمكين البلاد مما عليه حالها الآن، حيث ترفل في بحبوحة من الاعتزاز بأن قد تمت لها نعمة إستتمام الوحدة، والتآم الشتات، والوحدة قوام وجود هذا الكيان المغربي كما عرفته الحياة، وبلوره التاريخ، قوام مدلول هذا الكيان، فيما له من مدلول جغرافي وبشري وحضاري وغيره، إنها مناط إكتمال القيمة الذاتية والموضوعية لهذا الكيان، وتكامل صورته وجوهره ومكونات شخصيته.

يعيش الشباب المغربي مشاعر الاعتزاز هذه، ورصيد بلده هذا الرصيد الزاخر بعطاءات النضال، إنعتاقا وتحررا، وانبعاثا، وتطورا، ونماء، وطموحات المعية، ليس من حدود تحد إفقها الواسع العريض، أو تضع دون إنطلاقاتها قيدا من القيود. يعيش الشباب في غمرة هذا الاعتزاز الاحساس السعيد بقيمة حصيلة بلده هذه بما توج به كفاحنا من نجاحات، وصلت

الاشعاع التليد لهذا الوطن، بتألقات إشعاعه الراهن، واغنت موضوع هذا الاشعاع ، واطاره، ومؤثراته اغنته على كل مستوى يتوهج فيه سناؤه، وتزدهر اقباسه، نجاحات افسحت ورسخت موقع هذا الوطن في ساحة النضال وطنيا وإسلاميا وعربيا وإفريقيا وعالمثاليا، والى المدى الارحب من كل هذه السمات والمعالم.

وهذه إطلالة عيد الشباب لهذه السنة، التي شهدت الزيارة الملكية الميمونة للأقاليم الجنوبية، والاستقبال التاريخي المشهود، الذي خصصته مدينة العيون لمحررها العظيم، وموحد الوطن من طنجة الى الكويرة جلالة الملك الحسن الثاني أعزه الله.

عيد الشباب لهذه السنة، التي سجلت — فيما سجلته من تطورات هامة إكتمال حلقات المناعة الدفاعية للأقاليم الصحراوية، وترسخ هذه المناعة وتطورها في إرتباط موضوعي برسوخ ومتانة مواقف المغرب على صعيد عام بمواجهة مناوئي وحدة ترابه وباستمداد من مقدرة العمل والانجاز لهذه البلاد التي أهلتها إبداعية فكرها الحضاري لأن تقيم من الصحراء، نموذجا حيا ولامعا ينبض بدينامية الحياة المتمدنة المتطورة ويتألق بما بث فيه من مظاهر البناء والتشييد وما تزود به من وسائل التعمير والتجهيز وما إكتسى في كل ذلك من حلل حضارية بهيجة، وارتداه من معالم نضاحة بدفق الرونق والبهاء.

يعيش الشباب في عيد الشباب فيض هذه الغبطة الغامرة الغبطة بما اوتيه هذا الشعب — في التحامه النضالي مع العرش القائد — من حسن الأحدوثة ومتانة الموقع، وحصانة الجانب وما إنفتح له — في ظل هذا الالتحام — من آفاق غير محدودة في إيجابياتها، وشمولية عطاءاتها، عبرالحاضر والمستقبل.

إنها لحظات في قمة هرم الزمن المغربي — قوميا وسياسيا ونضاليا وفكريا وحضاريا وتاريخيا — هاته التي يعيشها شبابنا بالشمال والجنوب، في احتفائه بذكرى ميلاد صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله.

لحظات رفعة وتألق، هاته التي يحياها شبابنا بعقله ووجدانه وضميره وهو يشهد المغرب وطنه الغالي، واقفا على أرض صلبة فيما يعمل له، ويناضل من أجله واقفا على أرض صلدة من وضوح أهدافه وحرارة إيمانه بها وقوة إستعداده لقبول إبهظ التحملات في سبيلها أرض صلبة نتيجة لثراء حصيلة مكاسب المغرب ومتانة مواقع دفاعه عن هذه المكاسب، وشدة تصميمه على أن يضيف اليها — باستمرار — المزيد تلو المزيد، أرض صلبة كذلك، وقد اتخذت وجهة المغرب — بعد إسترجاعه صحراءه — مسارها الطبيعي، كهمزة وصل بين عالم المتوسط وبين إفريقيا، وتضافرت بذلك أكثر من أي وقت — شروط وقواعد أدائه لرسالته الايجابية في هذا السبيل.

لقد أمضى المغرب عهوده في التاريخ كلها وهو ذو التطلعات الرائدة. التطلعات العبقرية التي أهلته لما تأهل اليه منذ أن أخذ بزمام السياسة والمدنية في قطاع مهم من قطاعات العالم هو حوض البحر المتوسط وما توفر له في هذا المضمار من قدرة مكينة على خدمة القيم الانسانية، واحتضان نفائس التراث العربي الاسلامي وانها لنفس التطلعات — رائدة عبقرية كذلك — هاته التي تحدو مغرب المسيرة الخضراء مغرب الكيان الموحد، والشمل الجميع، المغرب الكفؤ للاضطلاع بدوره الفاعل في خدمة مقاصد العمل العربي والاسلامي والافريقي، والتلاقي الايجابي مع كافة البلدان في العالم، على صعيد التعاون والسلام والوئام.

سلا — أبو مهدي

وفي كل يوم من حياتك آية

للشاعر عبد الفتاح إمام / من علماء الأزهر

على جدكم صلى الالـــه وسلمــا ... فمن مثلكم يا لابس المجد معلما

رأى المجد في مغنـاك عزا ومنعـة ... فألقـــى عصاه في حماك وخيمــا

وزهر رياض الفضل من طيب نشركم ... تفتـــح عن أكمامـــه وتبسمــا

مفاخـــر آباء وطـــيب أرومـــة ... حبـاك بها رب العبـــاد وأنعمــا

طلـعت على الاسلام نورا ونعمـــة ... وجــددت من اركانـــه ما تهدمــا

وفي كل يوم من حيـــاتك آية ... تسير مع الافـلاك شمسا وأنجمــا

فأنت عسوب المؤمـــنين وقــطبهم ... وأنت لهم أمن اذا البؤس ضرمـا

دعوت الى ضم الصفوف على الصفا ... فأشرقت بدرا في زمـــان تجهمــا

وحقــقت للديـــن الحنيـــف مراده ... وقلدت جيد الدهر عقدا منظمـا

كذالكـــم الاشراف في كل أزمـــة ... نجوم منيرات اذا الأمـــر ابهمـا

وأرجـــعت عصر السابـــقين ومجدهـــم ... ونـــورت للساريـــن ما كان أظلمـا

وأحيـيت للقـــرآن عهـــدا اماتـــه ... زمـــان تولى بالجهالـــة مفعمـا

فأرضيت رب العـــالمين بحفظـــه ... واسست للأطفـــال ذخـرا ومـغنما

وشيـــدت للأجيـــال صرحـــا معـــززا ... وأعربت بالقـــرآن ما كان اعجمـا

فحسب المعالي ما بعثت من البلى ... وما كان ميتا في زمـــان تصرمـا

ويا لك من شهم غيور على العلى ... ولـلــه ما أعلى مقامـــا واكرمـــا

مليك كساه المجد والعـــز حلـــة ... مذهبـــة فيها الكمـــال تجسمـا

سلوا نهضة الفلاح من خط نهجها ... سوى الحسن الثاني اعد واحكمـا

وأنشأ للأمـــواه سدا يحوطهـــا ... لتروى بها القفرات من غلة الظما

وكم مسجد للنـــاس شيـــد صرحـــه ... فعز به الديـــن الحنيـــف وعظمـا

وأنقـــذ افنـــي من براثـــن غاصب ... وما سل سيفـا للنضـال ومارمـى

سوابـــق فضل لا تتـــاح لغيره ... تفنـى بها حادي الزمـــان وهيمنـا

ستبقى لدى التاريخ يحيا بحصرهـا ... فقـــد جل ما أسداه فذا وتوأمـا

مدحـــتك إنصافـا وحبـا ورغبـــة ... ومـــن مدح الأشراف عاش مكرمـا

لـــن وافت الاقـــدار آمـال أمـة ... فكـل رجانـــا أن تعـيش وتسلمـا

عليك سلام اللـــه أهديـــه كلمـا ... على جدكم صلى الالـــه وسلمـــا

ودانت لك النعمـــى ودمت موفقـــا ... وعـاش ولي العهد شبـلك انعمـا

عيد الأمانة والمسؤولية

للشاعر محمد بن محمد العلمي

هو العيد بين العرش والشعب تلتقي ... لديه أيادينا بأكرم موثق:
لقد جدد التاريخ أسمى تجاوب ... لقاعدة في قمة المجد ترتقي!
علاقاتنا تبقى وتزداد قوة ... من المثل الاعلى لنا في التعلق
محبة هذا الشعب للعرش فذة، ... بتعبئة قصوى، لسعي موفق:
مسيراتنا خضر، يعم ربيعها، ... فتحتفل الدنيا بأحسن رونق!
هو (الحسن الثاني) يضم مكاسبا ... لأخرى ويمضي في النضال المعمق
هو التاج، تاج المؤمنين، وهالة ... لقد توجت بالنور قلبي ومفرقي
فلا أفق أصفى أو أجل رحابة، ... من العرش في نيل العلا نحلق!
يقابل بالتكبير في المحفل اسمه: ... فقد كان أحلى من رحيق معتق
من الخلفاء الراشدين سلوكه: ... يكمل منهم في الملاحم ما بقي
فباسم جميع المسلمين تحدثت ... قريحته الحسنى بأشرف منطق
لقد هتفت هنا القلوب بمن غدا ... مقيما بها، في نوره المتألق
وإن جهاد العرش والشعب عبرة ... لمفهوم مجد في الخلود محقق
وتكريسنا للجهد قلبا وقالبا، ... بشير بعهد باهر النصر مشرق
من (الخامس) المبرور كان مثالنا ... لأسمى ثبات في الفداء المشوق
لقد وحد الراعي الرعية كلها، ... ليعصمها من فتنة وتمزق
وسار بها في حكمة وتبصر، ... لتجتاز ما يتنابهامن معوق
وأغلى رصيد للكنوز بشعبنا ... هو (الحسن الثاني)عظيم التفوق
يباهي الثريا ما يشيد من العلا، ... فنهضته قد زينت كل مرفق
وللدين والدنيا بأقوم خطة ... لقد جدد الذكرى لقلب المصدق
إذا جاءنا عيد الشباب تفجرت ... عواطفنا بالكوثر المتدفق
وقمنا لميدان الكفاح بهمة ... تضاعف مسعى وعينا المتعمق
يعيش (ولي العهد)عنوان عزنا، ... ويحيا (الرشيد)الفذ سامي التخلق
فنحن من (البوغاز) بالعيد نحتفي ... إلى تلكم (الصحراء) بعشق منسق
نوطد عهدا للولاء، ببيعة ... علينا جميعا بالضمائر نلتقي

يا أمة الاسلام

للشاعر المدني الحمراوي

ياويحنا من هذه الازمات
يا أمة الاسلام، هذه صحوة؟
يا أمة قد كنت قبل عرفتها
ماذا دهاك اليوم حتى غيرت
فالدين أصبح بالتفرق واهيا
وكتابه لحن، ونغمة مطرب
وحدوده مهجورة، وحرامه
يرمى جهارا بالعقوق، ولا نرى
لا زاجر من وازع أو ناصح
نبهائنا شغلوا بدنياهم؛فلا
والله سائلهم غدا عن شرعه
ماذا أعدوا للجواب؟ فليتهم
حملوا الأمانة،واستهانوا بالذي

كدنا نعد بها من الاموات
أم نكسة دهمتك بالعثرات؟
كونا أصيل الدين والعادات
قيم لنهجك جمة الحسنات؟
بل معبرا لمروج الدعوات
في مجمع الأخلاط والطرقات
لا يتقى من ذاهب أو ءآت
ذا غيرة يغتاظ للحرمات
أو منته عن تلكم السوءات
يتلفتون لهذه الآفات
وكتابه في موقف الحسرات
خافوا وعيد الله في الآيات
حملوه من عبء ومن تبعات

ماذا نرى من موبقات لم تزل … موصولة الهجمات والشطحات

رفع النساء لواءها، وأقرها … أهل النهى، فغدت من الرغبات

ركب الاناث متونها في جرأة … فكشفن ما يخفى من الزينات

متبرجات في الشوارع كالدمى … متوقحات بيننا عطرات

ذهب الحياء من الفتاة وأمها … ومن الفتى والكهل والجدات

فالكل في مرعى السفاهة راتع … والكل جن باجتن اللذات

والنشء يبصر ما يراه فيقتفي … تلك الخطى مسترسل الخطوات

كان البنون لوالديهم عدة … فغدوا لهم من أعظم النكبات

مرضت قلوب الناس حتى أصبحوا … يتناكرون تناكر الضرات

فالهم عند الناس نفع حاصل … لا واجب لمروءة وصلات

***

ومن الأنام جماعة صاروا على … نهج الرشى وتصيد الغفلات

ما أنصفوا قانونهم لما غدوا … يتوسلون به الى الثروات

ضاع الحق، ونال إثمه مبطل … يسعى إليه برشوة وهبات

ءاثامنا جلبت علينا شقوة … وقلوبنا في غفلة وسبات

فتلك الغلاء بنا؛ فكل يشتكي … من سوطه، ويعيش في إعنات

وذوو الغنى لا يبذلون عطاءهم … وبطونهم مرضى من التخمات

ما أنصفوا عرق الفقير، ولا رعوا … حقا له في واجب الزكوات

بل همهم جمع القناطير التي … تنهال من سحت، ومن شبهات

هذا جزاء من استهان بشرعة … عصمت من الأغراض والهفوات

يشقى، ويحسب أنه في نعمة … والله يمهله إلى ميقات

حدنا عن النهج القويم وترتجي … ان نسترد القدس بالكلمات

فالحرب بين المسلمين جريمة … ولهيبها متوقد الجمرات

وعدونا بالوضع يفرح شامتا … وصفوفنا في فرقة وشتات

إيران ضلت عن سبيل صلاحها … واستسلمت لو ساوس النعرات

والجرح في لبنان دام مترع … والكرب حول القدس ذو فتكات

والخطب في الافغان هول فادح … متفاقم مسترسل الهجمات

وثنية الطاغوت هب وباءها … يسري هناك بافظع الويلات

ويعيش في الاسلام كيف تخيرت … أحقاده متمرد الوثبات

يا أمة الاسلام ! عودي للهدى … قبل الفوات، وفجأة الهلكات
فالأمر جد، والعدو مبيت … لك في الخفاء مساوىء النيات
هذا إمام المسلمين وقطبهم … قد صاح فيك بأنبل الصيحات
شقت رسالته غياهب ليلنا … فلنستجب بتجرد وثبات
وانصطف الحسن المؤيد رائدا … يسري بنا في هذه الغمرات
يا أمة الاسلام هيا نحوه … كي تستردي ضائع الصولات
لم يبق غيره راعيا متبصرا … جل الرؤوس فواتر الهمات
فالبعض صعر خده في غلطة … متصلفا، مستوعر الجنبات
والبعض في قفص التردد حائر … والبعض معتكف على اللذات
ومنائر الاسلام تهدم حولهم … وكأنهم في مسرح الفرجات
عجبا لنا، ندع العدو مسلطا … يردي ويهتك حرمة الأبيات
ويبيد ءالاف النفوس بناره … وتهاب منه غوائل السطوات
ونشب حربا بيننا مسعورة … نصلى بها عشرا من السنوات
قل للجزائر يالها من سبة … رضيت بها في أحلك الأوقات
جرت على الاسلام أفدح نكبة … وعلى العروبة أوجع الضربات
لم يثنها احساننا عن جرمها … كلا، ولا استمعت الى أصوات
إنا نمد يد السلام؛ فإن تشأ … عدنا إلى نهج من الخيرات
وإذا استمر مريرها فصفوفنا … مرصوصة البنيان في الجبهات
ما كان مغربنا سوى قبر لمن … أعمته أطماع من الومضات
بلد الأصالة والامامة قلعة … فوق النجوم حصينة العتبات
العرش فيها قائد متحمس … والشعب جيش ساهر المقلات
غاب من الاساد دون مرامه … هول يموج بأوخم القتلات
أنهاب من كنا نداوي جرحه … بالأمس، ثم هفا إلى نزوات
كلا؛ فلا يغرره حلم واسع … منا، ولا يحتك بالحيات

الرباط
المدني الحمراوي



الوعظ والإرشاد

من خلال جهاد ملوك الدولة العلوية الأمجاد

○ بقلم : علال البوزيدي ○

• واجهات الجهاد متعددة في تاريخ الدولة العلوية المجيدة وتعتبر الساحة الإسلامية إحدى الواجهات العريضة التي شملها جهاد العرش المغربي العتيد دفاعا عن الإسلام ورفع رايته وتعزيز كيانه وعبر التاريخ لم تنطفئ شعلة هذا الجهاد المظفر، بل تواصلت حلقاته خلفا عن سلف، مما يؤكد استمرارية عناية ملوك المغرب بالشؤون الدينية تربية وتعليما وتوعية ووعظا وإرشادا، ترسيخا للعقيدة الإسلامية في نفوس أبناء الوطن وصوتا وحفاظا على هذه الروح من عبث العابثين وحماية القيم النصوص السنية من الاستهتار وكم هي كثيرة مواقف الشرف في هذا المجال التي تصدت بعزم وأباء لكل المحاولات اليائسة التي ما نفكت تحبك ضد الإسلام من طرف دعاة التبشير وغلاة الصليبية الواهمين في اعتقادهم الضال، بأن دعوتهم ستجد سبيلا تتسلل منه إلى عقول النشئ المغربي غافلين بأن للإسلام في هذه الديار أرضية صلبة وقوية محصنة ومعززة بقوة من الله وبفضل عناية وجهاد العرش المغربي الأثيل، والحقائق التاريخية تؤكد هذه العناية المتسلسلة من قادة الأمة المغربية المحروسة بعناية وإرادة الله والمعززة بالعرش والمسترشدة بتوجيهات الأئمة الإعلام من ملوك الدولة العلوية. ولنتأمل في وقفة سريعة وقراءة مختصرة بعض هذه المواقف التي ترسم للقارئ وتصور جوانب واضحة وملامح بارزة من الأحداث التاريخية، ومن خلال ذلك يتضح مدى الاهتمام بالوعظ والإرشاد والتربية الدينية وغرسها في قلوب الخاصة والعامة من أفراد الأمة ومن هذه المواقف والصور ما هو قديم وحديث وتسلسلا للكلام يجدر الاستشهاد بما هو مسجل في جيد الشخصية المغربية وفي قلادة ماضيها المجيد الذي به نباهي ونفاخر الأمم والشعوب والذي هو الرصيد الهام المتوارث عبر الأجيال.

• الصورة الأولى يرسمها عصر الملك المنعم سيدي محمد بن عبد الله رحمة الله عليه، الذي جعل الوعظ والإرشاد والتربية الدينية في طليعة اهتماماته وتعميق البحث في سياسته بهذا الخصوص يوقفنا على أن عنايته الفائقة بالشؤون الدينية كانت تستقطب ثلاث عناصر أساسية هي :

- تطبيق التشريع الإسلامي حسب ما ورد في الكتاب والسنة.
- القيام بحملات الإصلاح لدرء الشعوذة واستئصال جذورها والقضاء عليها في مهدها والإحالة دون تفشيها

وشيوعها في الأوساط.

- ازدهار التأليف في المجالات العلمية والحديثة وتوجيه الرسائل إلى الأقاليم للتنبيه ولقمع المناكر والانحرافات الأخلاقية المخالفة للدين.

• والمستخلص من هذه الصورة بجوانبها الثلاثة المذكورة، هو إصالة التفكير والتشبع بروح الإصلاح والمحافظة على القيم الروحية والأخلاقية والسعي إلى تكوين الإنسان والأسرة والمجتمع في جو من التكامل والمثالية بعيدا عن الأمراض الاجتماعية والانحرافات السلوكية.

والذي يهمنا بحثه وتحليله في هذا الحديث هو الشطر الثالث والأخير من الصورة الملمح إليها لكونه يتوافق مع صيم الموضوع ونعني به مهمة الوعظ والإرشاد والاجتهاد في سبيل استمرارية الدعوة الإسلامية والوقوف في وجه كل التيارات والتحديات المتواجدة في طريق هذه الدعوة، وذلك بتنشيط حملات التوعية وتوسيع نطاقها ومسايرة مختلف الاتجاهات والميولات الشعبية وتقويم ما اعوج منها، وإصلاح ما فسد نتيجة البدع والافتراءات التي تمس العقائد وتهدف إلى إقحام السادجين وضعاف الإيمان في مراتع الرذيلة والفساد.

• والباحث في عطاءات عصر الملك سيدي محمد بن عبد الله يتضح له بأنه كان سيفا من سيوف الله ومتعه الحق سبحانه وتعالى بقوة الإيمان ونور اليقين الصادق والعلم النافع مما جعل الرؤوس تنحني أمامه والهامات تخضع لتعليماته وتعمل بتوجيهاته وما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل فكانت مسيرته الظافرة في مجالات الدين وزرع الإيمان في قلوب المسلمين مسيرة متواصلة ثابتة هادفة إلى اعلاء كلمتي الحق والدين فكانت مجالسه العلمية حافلة بجهابذة العلماء لاثراء النقاش وتعميق أصول العلم والمعرفة والغوص في الأهداف البعيدة المرامي التي لا تحوم حولها إلا الهمم العالية والأفكار السامية والعقول السليمة المستنيرة وكانت هذه التوجيهات الصائبة موضوع رسائله إلى الولاة حافزة لهم على مواصلة العزم والحزم في الأخذ بزمام الأمور وتقبل النقد الاجتماعي والعمل بالتوجيه الأخلاقي في حدود الشريعة الإسلامية الخالدة، ومثل هذه السياسة الرشيدة تحي القلوب وتبعث فيها الأشراق وتبعد عنها الأهواء والعقائد الفاسدة المخربة، وتقي الأفراد والجماعات شرور الانحراف والزيغ عن المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

• تلكم كانت لمحة مقتبسة وصورة مرسومة عن عصر ملك شهم مصلح سجل له تاريخ المغرب صولات وجولات سارت بذكرها الركبان.

• وهاكم صورة حية ومشرقة يزداد بها عصرنا هذا الذي نحياه ونعيش في بحبوحته ونمارس فيه أدوارنا في بناء الوطن على أساس القيم الأخلاقية والروحية بتوجيه من قائد مسيرة الظفر والاستمرار جلالة الملك الحسن الثاني الذي نحتفل بعيد شبابه في عصر عرف فيه المغرب البعث الإسلامي ولبست البلاد حلة قشيبة من مظاهر التقوى ومعالم الإصلاح سالكا نهج الأباء والأجداد وسائرا على أثر أسلافه الأبرار الأمجاد باعثا الإسلام في هذا العصر الذي استبدت فيه الحياة المادية وطغت طغيانا محسوسا على الحياة الروحية متكالبة ظروف المادة مع مختلفات العصر وتطوراته العلمية والمذهبية والإيديولوجية لتغزو الفرد المسلم بكل ما تملك من مفاتن ومغريات ووسائل وإمكانيات غير أن أساليب التحصين والحماية والوقاية حالت دون تسرب أوبئة الألحاد والأباحية، بل فإن حملات الوعظ والإرشاد بالمرصاد لكل المحاولات الهدامة التي تسعى لإقحام الفرد في عالمها المظلم وإبعاده عن الإشراق القلبي والاطمئنان النفسي الاستضاءة بنور الإيمان الصحيح.

• فالهدي الديني في العصر الحسني مضرب الأمثال وتجليات ذلك تبرز في النشاط المكثف الذي تقوم به وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والمجالس العلمية والمؤسسات الدينية التي غطت مختلف أنحاء البلاد مما يعكس العناية الفائقة والاهتمام الكبير الذي يوليهما حامل الأمانة العظمى والمطوق بالبيعة الكبرى جلالة الملك الذي يعزز بتوجيهاته حملات الوعظ والإرشاد والتوعية الدينية وتفهيم العقيدة الإسلامية وتعميق الأخلاق المحمدية وفق الكتاب والسنة وما طبع المصحف الحسني وأنشأ المجالس

العلمية وتوجيه الرسالة الملكية إلى العالم الإسلامي، مناسبة طلعة القرن الخامس عشر الهجري وتنظيم المؤتمرات والندوات والخطب والمحاضرات وتأسيس مؤسسات تحفيظ القرآن الكريم والمحافظة عليه والكتاتيب القرآنية وإرسال البعثات في نطاق برامج الوعظ والإرشاد إلى مختلف الجهات من العالم بعد تكوين الدعاة والوعاظ والمرشدين وتمكينهم من المعرفة العميقة بأصول الدعوة الدينية والإطلاع الواسع على قواعد الإسلام وأركانه حتى يكونوا على خبرة وفقه في شؤون الدين وإقناع المستهدفين للوعظ والإرشاد بالحجة والبرهان وجعل الوعي يحل في قلوبهم محل الصدأ واليقين مكان الشك والتشكيك وذلك هدف كبير من أهداف الوعظ والإرشاد وتلك ولاشك رسالة الحق المبين وروح الخلق الكريم وهي خصال جبل عليها الإنسان المغربي عبر تاريخه الحافل بالبطولات ومواقف الشرف، وازداد مع الأيام هذا السلوك رسوخا كرسوخ الإيمان في القلوب، وتطالعنا ملامح ذلك في كل الخطوات التي يخطوها المغرب بقيادة عاهله في درب الجهاد عبر الساحة الإسلامية وهي ملامح تضيئ الطريق للعاملين في المجال الإسلامي ورؤية جديدة لتاريخ الأمة المحمدية التي تحاول بعض التيارات الموجهة والتحديات الصليبية تحريف وتشويه حقائق هذا التاريخ بعد أن أدرك خصوم الإسلام بأن الإنسان في كل مكان أصبح على اقتناع تام بضرورة رجوعه إلى الإسلام وأن حاجته أكيدة لخوض هذا الاتجاه عقيدة أساسية في ممارسة حايته الإنسانية كاملة وطريق لا محيد عنه للبناء الفكري الذي يقام على أساسه البناء الحضاري بكل مقوماته.

كلمة أخيرة

• وإذا كانت من كلمة تقال في ختام هذا الموضوع فهي أن الحوافز الروحية هي التي وطدت العلائق ورسخت التجاوب والتلاحم بين العرش والشعب وربطت بينهما رباطا وثيقا روحيا وصوفيا وعلى أساس ذلك نشأ وترعرع الحب والوفاء، ونماء عبر الأيام بالإخلاص والولاء فأصبحت إرادة العرش من إرادة الشعب وإرادة الشعب من إرادة الله وإرادة الله لا تقهر :

• ولقد أدركت الإرادة الحسنة للقادة العرب والمسلمين أن جلالة الملك الحسن الثاني مجاهد أمين في سبيل إعلاء كلمة الله فاجمعوا على إسناد رئاسة لجنة القدس الشريف لجلالته ولم يدخر وسعا في القيام بهذا الواجب، بل أرخت المرحلة الراهنة مواقف مشرفة وإيجابية بهذا الخصوص.

• وما من سبيل يظهر عظمة الإسلام وعبقرية أبناء الأمة الإسلامية الا وخاض فيه رفعة لمعالم الدين الحنيف وترسيخا لأمجاده وتعزيزاً لسلطانه.

• وإبرازا لما خلدوه إعلام الفكر الإسلامي من آثار في مجالات التفسير والحديث والشريعة الخالدة.

• وتجدر الإشارة إلى طبع سلسلة من الكتب النفسية لأحياء التراث والثقافة الإسلامية واعتباره لذلك أمانة الجيل الحاضر ورسالة الأجيال القادمة.

• ونظرا لأهمية النشاط الإعلامي في تعزيز حملات الوعظ والإرشاد وتبليغ محتواها إلى الرأي العام باعتبار وسائل الإعلام جسرا هاما من جسور الاتصال الجماهيري ومن هذا المنطلق تجدر الإشارة إلى الدور الحيوي والفعال الذي تقوم به مجلتي الإرشاد ودعوة الحق في نشر الثقافة الإسلامية وبلورة فكرة الوعظ والإرشاد والعمل على تغطية هذا الجانب المهمخصوصا بالنظر إلى الصحوة الإسلامية.

• وخلاصة القول أنه لن يتم النصر للحاضرين إلا بالحفاظ على المكاسب والسير في منهج السابقين وتلك هي الأصالة والأمانة الفكرية التي لا ينبغي عنهما بديلا.

ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

علال البوزيدي

من الأدب المراكشي المنسيّ عند الشباب

للأستاذ أحمد متفكر

تمهيد : منذ كانت مراكش وهي قبلة العلماء والدارسين يفدون إليها أفرادا وجماعات من جميع البقاع والأصقاع لترويج بضاعتهم العلمية، أو طلبا للعلم والمعرفة، والاحتكاك برجالاته الذين تعج بهم الحضرة المراكشية، أو رغبة في نيل الحظوة عند السلطان لتشجيعه العلم والعلماء.

وقد تميزت هذه المدينة عن باقي المدن المغربية بعطائها أكثر للحضارة المغربية عموما، والعربية خصوصا، فقدمت للتاريخ مشاهير الأعلام في : اللغة والنحو والأدب والعلوم، وقادة الفكر من مبدعين في شتى أصناف المعرفة، وبإمكان المرء تلمس أهمية هذه المدينة من خلال صفحات التاريخ المشرقة المنبعثة عطاءا، فهي من خلال المصادر واضحة المعالم، غنية في مساهماتها، سواء ذلك في الحقوق الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، منذ فترة تأسيسها أيام المرابطين مرورا بالموحدين والسعديين، وفترة من العصر العلوي.

وانطلاقا من هذه المعطيات بقيت مراكش مهبط القريض، وموحى الشعر الرصين، تجذب إليها بواقع من أرجاء العالم الإسلامي عموما، والمغرب الكبير والأندلس خصوصا، فتقيم لكل واحد ما يستحقه من الاستقبال الرائع، والعناية الشاملة، والتكريم اللائق. ومن بين الذين كرمتهم هذه المدينة - وما أكثرهم - ورحبت بهم أيما ترحاب، العلامة الأديب السيد الطاهر الافراني (1).

ففي 28 رجب من سنة 1354 هـ (موافق 1935) فتحت مدينة مراكش صدرها الرحب الواسع لتستقبل أديبا كبيرا من أدباء سوس وأي استقبال كان ؟ أنه استقبال ثلة من الأدباء المراكشيين للأديب السوسي، استقبال جمعتهم فينياء الألفة، وانسجام الطبع، والكلمة الساحرة، الهادفة، فأقامت له مهرجانا أدبيا رائعا، نابضا بروعة الحياة الصاخبة المتجددة، وحافلا بكل ما هو سام في ذاته وجليل.

وربما لم يبلغ صداه يومئذ إلى أطراف المغرب للظروف الاستعمارية التي كانت تهيمن على المغرب، وتحول دون أي تجاوب فكري بين أبناء هذا الوطن، فما أكثر ما حالت الرقابة الاستعمارية بين المواطن المغربي

1) ترجم له المختار السوسي في كتابه المعسول جـ 7 ص 67 ترجمة حافلة.

وبين أي تظاهرة فكرية جادة تثير الحماس، وتوقظ الهمم، وتذكي روح الوطنية.

وقد حاولت في هذا الموضوع أن أعرف بهذا المهرجان، وأن أخرج هذه الأشعار من مرقدها، وانفض عليها غبار النسيان إشفاقا عليها أن تظل مقبرة بين العديد من الاضبارات (2).

يقول المختار السوسي : (...تلقته مراكش بكلتا اليدين، وأدباء الشباب متوافرون في (الرميلة) (3) فتدفقت القوافي والحفلات في أسبوع سميناه (أسبوع الأدب)، وقد كان أسبوعا أدبيا رائعا) (4).

ويقول : (ومن نوادره إذ ذاك، أنه كان يسبح في أنواع من الأطعمة الحضرية المتنوعة أسبوعا كاملا، فقلت له يوما : إن أجمت من هذه الأطعمة نوصي من يصنع لك عصيدة ؟.

فقال مبتسما بسرعة : وهل سفرنا من بلدنا إلا هروبا من العصيدة التي هي طعام بلدنا الوحيد) (5).

أما ابن المحتفى به فيصف روعة الاستقبال فيقول : (ورحبوا به، وفرحوا، بمقدمه المبارك، ولقوه من الكرم ما يزري بالسحب، وخاطبه كل واحد من أولئك الأدباء بقصيدة أبان بها اقتداره، وأعلت في رسوم الأدب قيمته واقداره) (6).

وأول من قام للترحيب بالضيف الكريم وتصوير ما لقيه الشيخ من عناية وتقدير من طرف الأدباء المراكشيين، والتذكير بالماضي المشرق الزاخر بالعطاءات، هو تلميذ المختار السوسي (7).

ما للوجوه تهللت قسماتها
وتألقت في المنتدى بسماتها

ولنكهة الحمراء عادت مثلما
هبت على زهر الربى نسماتها
قامت بها الأفراح حتى أنها
لتكاد تمرح غبطة شرفاتها
صفح السرور فلا تشاهد غير ذي
نفس تكاد تطيرها غبطاتها
حتى الخمائل أزهرت أفنانها
ويد الخريف تمعضنا قرصاتها
وتمايلت أغصانها طربا ولا
ريح يميل بعسها عزباتها
فكأنما طافت على مراكش
من كأس راحة صرخه نشواتها
من تلق من أدبائها تشهد بما
مرت عيونهم به نظراتها
فكأنما عادت لهم مراكش
مراكشا إذ توجت هاماتها
إذا كانت الآداب فيها حفلا
تستوقف الأبصار منتدياتها
ويجيل فيها المفلقون بلاغة
أعيت على أقرانهم غاياتها

☆ ☆ ☆

حقا لقد عادت إلى مراكش
أيامها وتجددت ليلاتها
وأتى لسان الدين يكتب ثانيا
ببراعة سيالة أسلاتها
وابن المجير يجيد فيها واصفا
فلتهنأن بالوصف مقصوراتها
والمقري يجول في أربااضها
حتى تفوز بحظها أغماتها
حتى القصور أتى أخو فشتالة
فلتسمعن مديحه ساحاتها
ولتسمعن لدى البديع قصائدا
نبرية قد أعجزت آياتها

---

2) أشكر الفقيه بلفقيه البشير بن الطاهر الافراني الذي أمدني بهذه القصائد، بعد أن يئست في البحث عنها.
3) الحي الذي يوجد فيه سكنى المختار السوسي والمدرسة التي كان يدرس فيها.
4) المعول ج 7.
5) نفس المصدر.
6) نفس المصدر.
7) فهو غني عن التعريف توفي سنة 1963.

يـــا حضرة الشيــخ التي قـــد شرفت

مراكش الحمراء إنشـــاءاتهـــا

وســط القلــوب نـزلت قبـل ريــاضهــا

وحــوتــك قبـل الفرش مكنــونـــاتهــا

حتى العيــون تــود لـــو فرشت على

ممشى خطـــاك كرامـــة مقــلاتهــا

ثم تلاه الأديب العلامة الشريف محمد بن عبد الله الروداني (8) ليرسم انطباعه عن الحفاوة التي لقيها الافراني فيقول :

حضرة الأستاذ الكبير، والشيخ الجليل، زعيم الأدب، عالي الرتب سيدي الطاهر بن محمد الافراني :

السلام عليكم ورحمة الله

أما بعد : فهذه كلمة تتضمن عاطفتي نحوكم خصوصا، وعاطفة الحمراء عموما، فأرجوكم التفضل بقبولها ولكم مني دوام الشكر وهي :

تستغرد الحمرا خطيب البـــان

ليـذيـع عنهـــا البشر بـــالألحـــان

من كــل صـــداح تعـــود نـــاشئـــا

بث الـــذي في النفس من وجـــدان

فـــأتى البنفسج بعـــد ذاك مصغيـــا

والـــورد بـــالاكمـــال لا الأذان

واليـــاسمين جرى ليحرز مقعـــدا

قرب المنصـــة مهبـــط التبيـــان

تخـــذت كراسيهـــا الـزبرجـــد إذ رنت

نحـو الخطيب بطرفهـــا الــوسنـــان

فبـــدا الهــزار على الحضــور مسلمـــا

ومرحبـــا من منبر الأغصـــان

ثم انبرى للقـــول في صـــوت لـــه

شرف على الأنغـــام بـــالعيـــدان

مراكش الحمراء عـــدت يــومهــا

هـــذا من الأعيـــاد للسكـــان

فرحـــا بـــأسنى بغيـــة نـــالت بهـــا

فخرا على الأمصـــار والبلـــدان

8) يعمل الآن بالخزانة الحسنية بالرباط، أمد الله في عمره.

ويتيمـــة من بعـــد طــول غيــابهــا

طلعت طلـــوع الشمس من إفران

☆☆☆

بــل إن مـــا فـــازت بـــه مراكش

لاجـــل من درٌ ومن عقيـــان

شيـخ العلـــوم الطـــاهر بن محمـــد

نشـــارهـــا عن محكم العرفـــان

فقضى حيـــاتـــه في المعـــارف بـــاحثـا

يُرقي فكرة الإنســـان

لاسيمـــا الآداب أولاهـــا حجى

يمضي مضـــاء السيف يــوم طعـــان

آثـــاره فيهـــا تقـــاصر دونهـــا

شـــأو البليــغ زعيم كـــل بيـــان

☆☆☆

إذ ذاك خـــاطبـــه الهزار بقـولـــه

في حشمـــة تـــومي لفرط حنـــان

لتـــدم حيـــاتـــك للفضيلـــة والعـلا

والمجـــد والإحســـان لـــلأوطـــان

وليبـق فـوزك بـــالسعـــادة دائمـــا

في كــل مـــا زمن وكــل مكـــان

وإلى اللقـــاء ولست أنسى عهـــدكم

أشـــدو بـــه في بـــاسق الأفنـــان

☆☆☆

وهنـــاك رفرف في الفضـــاء مُيمّمـــا

حيث المعـــاش الحر في الـــوديـــان

أما الشاب الأديب شحرور مراكش أحمد بن العربي الدكالي (9) ـ الذي يعرف في الأوساط المراكشية بأحمد

9) انطفأت شعلة هذا الشاب، وخمدت جذوته، بسبب المرض العضال الذي ألزمه البيت منذ سنوات طوال أسأل الله له الشفاء والعافية.

شوقي - لا يريد أن يترك هذه الفرصة تمر دون أن يدلي بدلوه بين الدلاء فيقول .

أيها الشيخ

هب النسيم وغرد الشحرور
وتبادلت كأس الرحيق بدور
وتفتحت زهر الربا فكأنما
بسمت من الوجه الوسيم ثغور
وتمايلت من بينهن أوانس
تنقد من أردافهن خصور
أهفت بهاتيك القدود ترنحا
أيدي النسائم ؟ أو هنا وسرور ؟
أم هو مقدمك السعيد أعارها
ما يستفز بمثله المسرور ؟
طلعت علينا إذ طلعت سعادة
لم يبق بعد بنورها ديجور
كنا نسيم بمرتع محل إذا
روض أريض مزهر ممطور
فالزهر مشموم كما شاء الهوى
والغصن مقتطف الجنى مهصور
يا أيها الشيخ العظيم تماده
كدنا بمقدمك السعيد نطير
أهلا وسهلا بالإمام ومرحبا
أهلا بمن هو في العلوم النور
لله يوم زرتنا فيه كما
قد زير هب مغرم مهجور
يوم تجللت البشائر روحه
وغدت تنافس اشمس وبدور
طارت بمقدمك السعيد خلائق
حنو إليك وكلهم مسرور
طافوا بكم وتنافوا في قربكم
إن التنافس فيكم لكبير
والناس كلهم إليك شواخص
والقلب من فرط الخشوع كسير

قد أكبرتك صغارهم وكبارهم
وحوتك من قبل الديار والصدور
قد شادوا ما شاهدوا من حكمة
أنت الخليق بمثلها وجدير
منك البلاغة والفصاحة والحجى
منك المجادة والهدى والنور
في الشعر والتبيان أنك واحد
وكذا البلاغة ليثها المشهور
فاسعد هنيئا فالزمان مساعد
والسعد مكتنف وأنت ظهير

وفي فاتح شعبان أقيمت له نزهة بعرصة البياز (10) - وفي اصطلاح أهل مراكش شعبانة (11) - بين أحضان الطبيعة الجميلة، والمناظر الخلابة، والسواق ذات المياه العذبة... أقيمت هذه النزهة لتوديع سفير الأدب السوسي، وما أقسا لحظة الفراق التي لا يقوى عليها الإنسان، فتفتحت القرائح بغرر الشعر، وانسابت العواطف الصادقة، والمشاعر النبيلة، لتصور مدا التجاوب الروحي والأدبي بين أبناء البهجة وأبناء سوس.

يقول شاعر الحمراء (12) أثناء توديعه للأديب اللبيب الطاهر الافراني :

قد طال بي شوق إلى لقياك
واليوم وافاني الزمان بذاكا
إني لأشكر للزمان صنيعه
ما كنت أعهدها له لولاكا
رحبت بمقدمك الصدور فهل مشى
فصل الربيع لصدرنا بخطاكا
يا طاهر القلب الرحيب وطاهر النـ
ـسب الحسيب وطاهر اسم تداكا
قد زرتنا فكشفت عنا غمه
ما كان يكشفها سوى مرآكا

---

10) وهو المكان الذي شيدت فيه المحكمة الابتدائية قرب عرصة الحامض.

11) اعتاد أهل مراكش قديما وحديثا كلما حل شهر شعبان أن يقيموا حفلات في المنتزهات والعراصي المتواجدة بمدينة البهجة، احتفالا بهذا الشهر، واستعدادا لاستقبال شهر رمضان الأبرك.

12) فهو غني عن التعريف، إذ شهرته تخطت حدود المغرب، توفي سنة 1955.

وتضـــوعت مراكش مسكـــــا بكم
لـو ضـاع من مسك شـذا كشـذاكـا
ترتـــد عين النـــاظرين كليلـــة
يـــا شمس أن نظر لنـور سنـــاكـــا
قـــد كنت أكبر شخصـــه بـــالعلم والآ
داب مستمعـــا لحـــاك حـــاكى
وأوابـــد في الشعر لم تلحـق ومـــا
خشيت بتيهـــاء الخيـــال شراكـــا
من كـــل معنى مـــودع في لفظـــه
كعقـــود در أودعت أســـلاكـــا
حتى ظفرت برؤيـــة من وجهـــه
فرأيت شخصـــه فـوق ذاك وذاكـــا
نـور الهـــدى إن حـل بـــاطن مهـد
لا تستطيـــع لكنهـــه إدراكـــا
يـــامن رءاه ومـــا رءاه وإن غـــدت
مملـوءة من شخصـــه عينـــاكـــا
حسبي وحسبـك مـــا أقـول ومـــا تقـو
ل وليس من يبكي كمن يتبـــــاكى
اللـــــه يعلم أنني لــــك مشـــوق
لاكن تقـــاصر عنـــدنـــا مشواكـــا
فـــذهبت في كنف الإلاه وحفظـــه
واللـــه جـل جـلالـــه يرعـــاكـــا
أما القصيدة التي ودع بها المختار السوسي أستاذه فلم أعثر منها إلا على مطلعها الذي يقول فيه :
لكـــل شيء يطـــاق إلا الـــوداع
صـــدمـــة في القلـوب لا تستطـــاع
أمـــا نـابغـة مراكش الأديب الفنـان مـولاي أحمـد النور (13) فيودعه بقصيدة قالها ارتجالا :
لي نحـــو ســـوس تشـــوق
يعتـــادني في كـــل حين
كم يـــذكر الخبراء مـــا
حـــازت من المجـــد المبين
فيـروقنـي التحـريـر مـن
علمـــائهـــا المتضلعين
ويهـــزني الإبـــداع من
شعرائهـــا المتفننين
ويسرني حتى أكـــــاد
من المسرة لا أبيـن
مـــا ليس يبرح سـائـــدا
في النـــاس من خلـــق ودين
تـــاريـــخ ســوس عـــامر
برجـــالهـــا المتفـــوقين
في الطـــاهر النحرير منـ
ـهم صـــورة للبـــاحثين
العلـم والآداب والأخـ
ـــلاق والـــذوق الرصين
مـــاذا أقـولـــه بعـــد هـــاذا
في صفـــوف المـــادحين
عـــذري وقـــد قصرت يـــا
مـولاي عـــذر القـــاصـــدين
أما الأديب المبدع عبد القادر حسن (14) فيقول :
ترحيب عند الوداع !!
نحـــاني دهري اليـوم عن أدبـائـــه
فكـــأنني مـــا كنت من شعرائـــه
مـع أنـــه كـــان القريض مطـــاوعي
قبـــلا وكنت أجـول تحت لـوائـــه
قـــد كنت ـ والشعر البليـغ مصـاحبي ـ
أسمـو بفكري في خيـــال سمائـــه
وأصرف القـول البليـغ كمـــا أشـــا
في كـــل مـــا أبغيـــه من أنحـــائـــه
فـإذا أتى ريـح الصبـا أغـدو إلى الـ
حبستـــان أشـدو في لطيف هـوائـــه
أشـدو بمـــا يهتـــاج قلبي في الريـــا
ض وقـــد أبيت أهيم في أرجـــائـــه

13) أديب مراكشي ضليع في اللغة، حائز على ناصية القوافي، له معرفة بالموسيقى، توفي سنة 1944.

14) من مؤسسي الحركة الوطنية بمراكش، أديب وهب حياته للشعر، لازال على قيد الحياة أمد الله في عمره، نظم هذه القصيدة وهو في ريعان الشباب.

فإذا تغنى بلبل في روضة
لاشك أني باعث لغنائه
وإذا تأوه عاشق فأنا الذي
أوريت زند الوجد في احشائه
واليوم ماذا يبتغي دهري فقد
أعياني شعري اليوم في إنشائه ؟
ولربما سمح الزمان وإنما
رب القوافي راعني بنائه
فسكتت عن نظم القريض ثلاثة
لكن شعبي ناب عن أبنائه
تأتيه في كل الأيام قصائد
منه ويشدو طيره بثنائه
وتطل فامات الغصون تميل من
كأس وذاك الكأس من صهبائه
والزهر يهزأ من تمايل قدها !
أرأيت كيف يكون في استهزائه ؟
متبسما للزائرين وثغره
يسبي الخلي بحسنه وصفائه
ويظنه العشاق ثغر معشق
يفتر لما عمهم برضائه
لكنما هو في الحقيقة معرب
يجلو من المكنون بعض خفائه
وأرى لهذا الزهر ثغرانا طلقا
في صحبه يلقى وعند مسائه
هذا رسول المغرب الأقصى أتى
من سوس الأقصى إلى حمرائه
أهلا وسهلا بالذي قد زارنا
أهلا بمن قد راعني بنائه
فتأخرت عني القوافي مرغما
حتى سمعت البين من جلسائه
فأتيت أنشد في مقام وداعه
إن فاتني الإنشاد عند لقائه

ثم يأتي دور الشاعر الحسن التناني (15)

أتيت وطير الشعر فوق يغرد
فهز جوانب البلاد المغرد
تلقتك قبل أن تلقاك من ترى
قصائد كانت قبل مثلك تفقد
إذا بسمت زهر الرياض فإنما
كما يمده إشعار مدحك تنشد
وإن ماست الأغصان منها فإنما
تميس ابتهاجا لا القدود تقلد
فعبر كل الناطقين عن الذي
يكنون حتى الطير قام يغرد
فهزني البشر الذي كان طافحا
فقلت ومن ذا بعد يا ناس يجمد
أطاهر يا شيخ العروبة إنها
وحقك في شوق يقيم ويقعد
ولاكن جزيت الخير أثلجت ما بها
وقد حل فيها منك شيخ ممجد
بمقدمك الميمون جرت ذيولها
وقد زرتها والوصل لا شك يحمد
فقد عرفت منك شغوفا بسمعها
بما كان يثنى من يؤم ويورد
لئن كنت عنها نازحا فلطالما
غدا صيتكم فيها يغير وينجد
فها أنت ذا قد جئتها فرأيتها
كأن لك فيها قبل منشا ومولد
طلعت عليها والجلالة سجفها
عليك فقامت فعل من بك يسعد
وكل بني العرب الكرام يرون في
مقامك صرحا للسان يشيد
بثثت لسان العرب في الشعب بعدما
يكاد لسان العرب من قبل يفقد
بنو العرب هم أبناء نعمتك التي
قضيت عليها زهو عمرك ترشد
تقوم لإحياء المعارف مفردا
ولم يثن منك العزم أنك مفرد

15) أديب سوسي توفي سنة 1943.

فلولاك مـاكـان النبوغ ولا اهتـدى
إلى الشعر منـا سيف فكر مهنـد
مننت على النشء الجديـد فجـاء من
يراعتـه هـاذا الثنـاء المخلـد
سيعلم في التـاريخ من كـان ذاتيـا
بـأن أنت في ذا العصر فرد مـوحـد
وأنـك وطـدت العلا بعـزيمـة
درت وحدهـا بـالحزم كيف تـوطـد
سيعرفـك المجـد الـذي أنت ربـه
ومثلـك من يسمو ويعلو ويمجـد
وأنـك قرت منـك عينـك بـالـذي
رأيت وهـاذا مـا بنتـه لـك اليـد
تعلم حتى قـام من كنت رشتهم
إذا ذلـك السهم الـذي رشت يقصـد
فهـا نحن يـا أستـاذ أستـاذنـا كمـا
ترانـا تـلاميـذ لـديكم شهـد
بثثت بنـا أستـاذنـا من علـومهم
معـارف لا لهـو ثنـاه ولادد
تراه لـدى التـدريس بحر معـارف
يفيض بمـا لـولاه مـا كـان يـوجد
تحـل لـه الحمراء حبـوتهـا ومن
بحـق يعـزز والمجـد يـويـد
ادامهمـا الرحمـان حتى يشـاهـدا
من النشء مـا يـأتي بـه اليـوم والغـد
أمـا الشـاب النشيـط الـذكي مـولاي عبـد اللـه
إبراهيم (16)
وداع يـالـه......... (17)
وهـل يطيـق القلب أن يحملـه ؟
...... (17) في الصبر ريـاده
مـا زاد في الصبر ولـو انملـه

بينـا نردد نشيـد اللقـا
صـونـا نردد نشيـد الفراق
فيـا لهـا من لمحـة عـاجلـة
كم خلفهـا من ذكريـات رقـاق

☆ ☆ ☆

كلمـة نطقهـا الطـاهر
فكـان منهـا مثـل سـائر
قـام لـه الكـاتب والشـاعر
وكـان منـه أدب زاهر
يـا بسمـة الأيـام مـا أسرعـك
وأكثر الآداب لـو تصبرين
..... (17) مـا أكبرك
فـأنت أنت أنس روح حـزين

☆ ☆ ☆

كم صـورا رائقـة تلهم
ونحن من إلهـامهـا كـالصـدى
يـا هـل تراك حلمـا هـادئـا ؟
لـه على آدابنـا كم يـدا

☆ ☆ ☆

وأسفـا على ريـاض نضير !
فـاليـوم هـا أوراق تنتشر
قـد ضوح الـزهر بـه والنـدى
لم يبـق غير أدمـع تنهمر

☆ ☆ ☆

الف من أوراق ادمعـا
مصفرة رجراجـة في الفضـاء
فهي دمـوع وهي صب معـا
يـا ويحـه أو فقـد كـل الرواء

☆ ☆ ☆

ألف من أوراقـه أدمعـا
والدمع مع ما يجدي في صد الحبيب
وإنمـا لابـد من نفثـه
يلفـظ فيهـا الصب.....(17).
يـا فخر سـوس بـل فخر الأدب
وكم على سـوس لكم من منن

---

16) من مؤسسي الحركة الوطنية بمراكش رفقة زميله الأستاذ عبد القادر حسن، شاعر وكاتب كبير، نظم هذه القصيدة وعمره لا يتجاوز سبع عشرة سنة، وقد أثبت هذه القصيدة رغم أن الأستاذ لن يكون راضيا عنها، لكن أهميتها التاريخية فوق كل اعتبار.

17) خرم في الورقة.

سطرهـــا الـــورد على الأفئـــدة
أسطر مجـــد بـــدمـــوع الـــوطن

☆ ☆ ☆

يـــا فخر ســوس قـــد عـزمت الرحيـل
وانطبعت ذكراك في الافئـــــــدة
يحـــل أن يستـــــوحش القلب شي
وفيـــه ذكرى منكم خـــالـــده

☆ ☆ ☆

يـــا فخر ســوس وفتـــاهـــا الأريب
وكم ســـــوس فيكم من أمـــــل ؟
معـــــذرة قصرت في الـــواجب
وكنت فيـــه مكرهـــا لا بطـــل

ونختم جولتنا الأدبية بقصيدة للأديب محمد التناني (18)

نـزلت نـزول القطر في مجـــدب التربِ
فزحزحت مـا بالأرض من قـاتم الجـدب
حللت حلول الروح في الجم فـاهتـدت
مبـــاهـج نحـو الأذن والعين والقلب
تغـــار من العينين كـــل جـــوارح
تقـــابلكم والنـــور من وجهكم ينبي
سمعنـــــا بكم من ثمت زرتنـــــا
فكـان الشهـود فـوق مـا ظن في الغيب
كـذاك البحـار الزاخرات شهـودهـا
على مـــا أتى الأذنين في غيبهـــا يربى
فقـــد كنت أحجـو سيـــدي مثـل معشر
كـــأنهم بـــالكبر يمشـون في السحب
إذا بـــك يـــا جلف التـواضـع من رأى
جميـع المـزايـــا والفخـــار على الترب
تملكتنـــا بـــاللطف حتى كـــأننـــا
إذا انتـدينـا ظـــامئـون على عـــذب
رزانـــــة أخـــلاق بلطف شمائـــل
كمـــا فـاحت الأزهـــار من قمم الهضب
أحـــاديث بحث في علـوم كـــأنهـــا
نسيم صبـــا من نجـــد يسري إلى الصب
بفكر لـــــه فهم الشبيبـــــة حـــدة
وإن كـــان يجلى في تثبتـــه الشيبي
الا هكـــذا فليغـد من كـــان عـــالمـــا
بعيـــــدا عن الإدلال والغميـــز والثلب
بحقـــك يـــا فرد الـزمـــان أقم لكي
تكـون مثـــالا عنـــدنـــا لبني الشيب
فـــــإنهم والعلم جم لـــــديهم
يشيرون لـــلآداب بـــالـــزرى والعيب
إذا انشـــدت من بينهم قطعـــــة رأوا
نشيـد قصيـــد الشعر من أعظم الـــذنب
فيـــاليتهم يـــا أيهـــا الشيـخ ادركـوا
نظيرك مـــا للشعر في صقـــل القلب
قـــدم للقريض الغض تنشر طيبـــه
وتنظمـــه في الطرس كـــاللـؤلـؤ الرطب

الطاهر في سوس :

وبعـد عـودة الشيـخ الافراني إلى بلدتـه وأهلـه، بعث برسائل الشكر والاعتراف بالجميل، امتثالا لقوله ﷺ : «من أولى معروفا فلم يجد إلا الثنا فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره»، نعم، بعث برسـائـل إلى شـاعر الحمراء محمـد بن إبراهيم، والمختـار السـوسي، وأحمـد شـوقي الـدكـالي، وإلى أدباء مراكش عموما.

ومما خاطب به أهل مراكش :

يـــا ســـادتي يـــا فتيـــة (الحمراء)
أنتم نجـــوم بـــل بـــــدور سماء
يهنـــاكم العلم الـــذي صرتم بـــه
في العصر غبطـــة ســـامـــع أوراء
قـــد فـــزتم من كـــل علم طـــارف
أو تـــالـــد بـــالكـــل والأجـــزاء
وجمعتم مـــا لا أخـــال وجـــوده
من كـــل دان أو غريب نـــــاء
مـــا بين منقـــول ومعقـــول ومن
أدب كـــــوشي الروض غب سماء
وظفرتم من سيـــدي المختـــار بـــالمختـ
ـــار بين ايمـــة العليـــاء

18) أديب سوسي توفى سنة 19.

نسب كما اطردت أنابيب القنا
ولد توارث جلة الابناء
علم كما فاض للعباب وهمة
في عفة كالماء في الصهباء
إلى أن قال :
ولقد حللتم سادتي من عبدكم
هذا محل الروح في الاحناء
ولتحفظوا عهدي فإن الضيف في
عزم الوداع فودعوا بهناء
لازلتم في غبطة وسعادة
تأتي بكل سنا وكل سناء
ثم خاطب شاعر الحمراء :
يا شاعر (الحمراء) حزت ثناءي
فاغبط به يا شاعر (الحمراء)
فالشعر يشهد أن فكرك ظافر
بكا الكساء وفروة القراء
شهد الزمان اليوم أن بديعه
بك رد الدنيا يراه الرادي (19)
ثم أفرد شاعر الحمراء برسالة يقول فيها :
عليك ابن إبراهيم يا شاعر (الحمرا)
سلام اشتياق ثار عن كبد حرى
سلام أخ عبدت بالود قلبه
وقد كان قبل اليوم يدعونه حرا
أخيك الفقير الطاهر بن محمد
بقطر إذا رخمت سميته أقرا (20)
رءاك اختلاسا بعد شوق فلم يزد
لقاؤك إلا ما تزيد الصبا الجمرا
وزودت بكر الفكر فتانة النهى
وما كنت أدري قبلها الفتكة البكرا
فيا (شاعر الحمراء) جليت سابقا
وفقت بفضل الشعر حتى على الشعرى
فته فأمير الشعر ولاك خطته
من الحوزة(الحمرا)إلى الحضرة(الخضرا)(21)

19) المعول ج 7 ص 147 - 148.
20) يعني إيفران.
21) يعني تونس.

إلى خلق كالمزن لطفا وكالحيا
صفاء وكالمسك الذكي الشذا عطوا
وعزة نفس لا تلين لغامز
ولا ترتضى منا ولو أجروا النهرا
وبيت كريم النسبتين مؤسس
على كل أمر يورث المجد والفخرا
فدم يا ابن إبراهيم للمجد تجتني
جني روضه غضا وتشتمه زهرا
ومهما دجا ليل الجهالة واختفت
بغيم الهوى زهر النجوم فلح بدرا
وسر هكذا تعلو وتتلو مرتلا
على الشعرا مهما انتدوا سورة الاسرا
وحافظ على رعي الوداد فرعيه
بمثلك من أحرار أهل الوفا أحرى
عليك سلام الله ما خطت الصبا
على النهر ما قام الحمام له يقرا
يردده إليك شوق مبرح

من (فران) الأقصى إلى حضرة (الحمراء) حضرة الأخ المحب الحبيب، الري النسيب، العالم الأديب، الكامل اللبيب، سيدي محمد بن إبراهيم المراكشي، حفظ الله كماله، وأصلح أعماله، وسلام عليه، (هذا) ولا أنسى لا أنسى بنات أفكارك، وعرائس بكارك، وغرائب أشعارك، وبدائع أسمارك، فكتبت هذه النفاثة تجديدا للعهد، وتأكيدا للود، ولا نيأس من روح الله أن يمن باللقاء ثانيا (22).

ثم كتب إلى الأديب الشاب أحمد شوقي الدكالي :
إذا شب عمر والشوق يوما عن الطوق
فطول النوى قد شب شوقي إلى (شوقي)
غذى لبان العلم نخبة سادة
حووا بالقضاء بالندى قصب السبق
سلالة قاضي المسلمين محمد
إلى العربي يسمو به كرم العرق

22) المعوّل ج 7 ص 149.

على كلهم من والـــــد وسليلـــــه
سلام يودي البعض من واجب الحق (23)

كما راسل تلميذه الأديب المختار السوسي برسالة يقول فيها :

إذا حوى حلبة الاخيار مضمار
فطرف سيدنا المختار مختار
بدر ثوى حضوة (الحمراء) منزله
في طالع السعد نعم البدر والدار
مني عليه سلام مثل ما نفحت
في الروض ريح الصبا والروض معطار
ثم على فتية غر هناك سموا
نورا على علم في رأسه نار
فالله يكلؤهم حفظا ويسعدهم
حظا ويحمي حماهم كيفما داروا

السلام والرحمة والبركة على الأخ العالي كعبه، المنقاد لهمته من الأمل صعبه، الفقيه المدرس العلامة، المخصوص بكرامة التحقيق وتحقيق الكرامة، سيدي محمد المختار بن شيخنا سيدي الحاج علي بن أحمد الالغي ساكن (مراكش الحمراء....) (24).

وفي الختام :

أكرر ما قلته سابقا من أنني ما قمت بهذا العمل إلا إشفاقا على هذه الأشعار، وخوفا عليها من الضياع، أو النسيان إن بقيت راكضة بين الاضبارات.

كما أسأل الله أن يوفقني إلى التعريف ببعض المهرجانات التي عرفتها مدينة الحمراء، كمهرجان بلوغ شاعر الحمراء الأربعين من عمره، ومهرجان الشيخ أبي شعيب الدكالي وغيرهما كثير.

مراكش : أحمد متفكر

---

23) نفس المصدر ص 150.

24) ينظر تماما في المعول ج 7 ص 150 ـ 151.



للأستاذ محمد بنعمارة

تتداخل الأسئلة المتصلة بفحص الأدب، ويمثل ترتيبها حقيقة أولية ليتحقق مشروع المتابعة بطريقة منطقية تراعي المقدمات وما يليها من نتائج، وتشمل البحث عن معرفية شبه تامة يراعى فيها السابق واللاحق...

ومن هذا المنطلق يمكن أن نعتبر مرحلة البحث في هوية الأدب يشكل ضرورة أولى قد يتبعها البحث في غاياته وأهدافه.

والهوية تتحدد داخل النص الأدبي بمختلف أجناسه، ومفاتيحها ملتحمة بالخطاب الموضوعي فيه، وقد نضيف لذلك البنية الشكلية التي ترتبط جدليا بمختلف البنيات الأخرى التي تجتمع لتكون النسيج العام للمضمون...

وإذا كان طرح السؤال مقترنا بالظرف التاريخي. فإن مساءلة المكتوب الأدبي - الذي يندرج في قائمة الأدب العربي. في مرحلة الاتصال والمثاقفة مع الغرب - تصبح ضرورة نقدية من خلالها يمكن أن نصل إلى نتائج معرفية تتضح من خلالها الهوية العميقة لهذا الأدب. ويظهر فيها الميل إلى الانتماء أو الذوبان في مفاهيم الثقافة الوافدة.

وقبل أن نتوغل في طبيعة مثل هذا السؤال، علينا أن نضع بعض الحقائق لنستعين بها في استنطاق الأدب العربي الحديث وأولها أن وسائل التعبير الفنية مهما ظهرت جميلة فإنها من جهة أخرى تكون خطابا فكريا يتعامل مع المتلقي كجهة يغزوها هذا الخطاب وقد يسيطر عليها بما يتوفر للفن من عناصر القبول. ذلك أن البعد الجمالي يشكل قناة تمر من خلالها الأفكار المضادة للقارئ من أجل توجيهه والسيطرة عليه بشكل نهائي.

وأدبنا العربي الحديث يعيش لحظة الصراع بين الاتجاه نحو الخطاب الغربي الوافد مع الثقافة والفن والفلسفات الوضعية الغربية. وبين الميل إلى الذاتية الحضارية والموروث الثقافي الإسلامي العربي.

وصراع كهذا لا يمكن أن ننظر إليه نظرة مثالية، لأن طبيعته تحددها حركة حضارية ومبدأ يندرج في إطار الصراع المستمر بين الحضارات المتضادة. الذي يتعقد فيها التضاد نتيجة للاختلاف الوجداني والسياسي والديني. ويكون التفوق من نصيب الثقافة التي تتوفر لها عناصر

الانتشار والذيوع. وتتسلل من خلال التخطيط المدروس فـ : «الأدب والصحافة هما أعظم قوتين خطيرتين... وبهذه الوسيلة سنعطل Neutraliser التأثير السيء لكل صحيفة مستقلـــة، ونظفر بسلطـــان كبير جـــدا على العقل الإنساني» (1) إن هذا البروتوكول يوضح بشكل قاطع المهام التي تروج لها الثقافة ولا تنفصل عن العلاقات بين الأمم المتصارعة.

والأدب العربي الحـــديث لا يمكن أن نفصلـــه عن التبعيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. إذا لم نقل إنه وسيلة ضمن وسـائل أخرى تحقق هذه التبعيات. وهو في نفس الوقت يجسد ذيلية ثقافية ناجمة عن الشعور بالانبهار بكل ما هو غربي في الثقافة من فلسفة ومذاهب أدبية، ومناهج نقدية.

وإذا كان المرتبطون بثقافة الغرب يقومون بدور تغريب الأدب. وإحداث ثنائية فيه بين لغته العربية ومضامينه المستوردة. فإن فريقا آخر من المثقفين استطاع أن يفهم خطورة هذا الموقف وعمل - أولا - على توضيح الخلفيات التي تتحكم في التواصل الثقافي، والوقوف عند ظاهرة التوجيه الفكري والأخلاقي فيه. وتفوق الخطاب الأوربي في بنيته الموضوعية التي تمثل محور الثقل في النص الأدبي واستطاع هؤلاء أن لا ينخدعوا بأداة الكتابة اللغة - إذ استبطنوا المكونات الداخلية التي جعلتهم يصلون إلى أن الفن السامي نتاج العقيدة التي تستهدف الوصول بالإنســان إلى إنسـانيته. والفن الساقط من نتاج النكوص الإنســاني والتوتر والقلق والشك في حقيقة الإنسان، وكينونته وقدراته وتغلب المطالب الترابية والشهوانية فيه. وبالتالي إفراز إنتاج أقرب إلى الهذيان منه إلى الفن. فمن شروط التأمل الفني الإحساس المرهف الذي قد يفقده المتحاورون مع الجســد الـذين لا يملكون القــدرة على المناجاة والاستشراف والحدس.

وانطلاقا من هذا الموقف ينقسم المبدعون إلى «فريق مع الله إيمانا وطهرا وصدقا وتضحية، وفريق مع الشيطان كفرا وفجورا وزيفا وضياعا» (2).

وبنفس هذا المعنى الذي وصل إليه الأديب يوسف العظم من المشرق العربي، نجد أديبـا من المغرب الأقصى هو الشاعر محمد المنتصر الريسوني يقسم الفن في قوله : «... وخلاصة الحديث أن الفن فنان :

أ - فن إسلامي، وهـو يمثـل عقيـــدة المعسكر الإسلامي وقد أخذ فجره - والحمد لله - ينشر أطاليله الوريقة صوب الآفاق، وتتحدد خصائصه في أنه رباني، كوني، إنساني، روحي، مادي، ثوري تقدمي بالمفهوم الحق للثورية والتقدمية، يدعو إلى تغيير العالم، وصياغته صياغة جديدة في إطار المبدأ الإسلامي الخالد «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»...

ب - فن جاهلي وهو يمثل المعسكر الجاهلي وتتحدد خصائصه بإيجاز في أنه لا يتلقى إيحاءه عن الله ولا يجد حرجا في أن يتلقاها عن العبيد الذين تخبطوا أيما تخبط في خلق مذاهب فنية... عبأت قواها لتدمير الأخلاق وإشاعة الإباحة» (3).

إن محمد المنتصر الريسوني في مقدمة ديوانه «على درب الله»، يبين مميزات الأدب الإيماني الذي يعني به الأدب النابع من الوجدان الجماعي للأمة الإسلامية العربية. ويحدد من جهة أخرى خصائص الأدب الغربي والذي إن ظهر إنساني السطح فإنه وسيلة خطابية لتدمير الأخلاق ودعوة إلى الشك والقلق. وإن سعينا في توضيح ما يقصده الأديب الشاعر محمد المنتصر الريسوني. فلنا مثلا أن نتأمل هذا المقطع من قصيدة بعنوان «إلى أين» للشاعر المرحوم كامل الشناوي كنموذج لما نعنيه، إن المقطع يقول :

إلى أين نمضي ايها الدهر ؟
بعدما نصير هباء
لا ضجيج، ولا صمت ؟
وينسل منا الحب والخير والهدى
وينسل منا الشر والغي والمقت ؟
إلى أين يمضي شيبنا وشبابنا ؟
إلى أين يمضي الومض والنبض والصوت (4) ؟

وقد يغنينا هذا النص الشعري عن الشرح فنزعة الشك واضحة وهي ولا ريب ترجع إلى أصل غربي مرتبط بالتفكير الوجودي المنطلق من العبث والقلق والاضطراب النفسي.

وإذا انتقلنا إلى نص شعري آخر لنفس الشاعر لنمثل به سنجد النزعة الدهرية في صورتها الجديدة الوافدة مع آداب الغرب وتياراته :

ثم ماذا يا دهر ؟
هل من جديد ؟
أجتني منه لوعتي وعنائي ؟
.... هات ما قدر القضاء علينا
ولتفض كأس عيشنا بالشقاء
لست أخشى القضاء
إن قصد العدل
ولكن
أخاف ظلم القضاء
.... سخريات هذه الحياة وسر
لم يزل غامضا على الأذكياء (5)

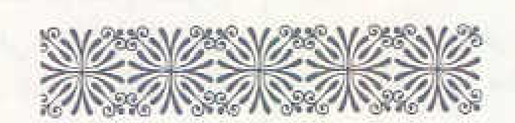
وإذا سبرنا أغوار المضمون، سيتضح الموقف الفكري في شكل أسئلة عبثية الطرح، عدمية النتيجة، لتظهر لنا الحياة مجرد عبور في المجهول. وهذا الأمر يتنافى مع التصور الذي تملكه أمتنا للحياة والمستقى من كتاب الله العزيز المسطور، ومن آياته المنظورة. وحسبنا أن ننهي موضوعنا بأبيات شعرية لشاعر من شعراء الإسلام القدامى حميد بن ثور الهلالي الذي يقول :

حتى أرانا ربنا محمدا
يتلو من الله كتابا مرشدا
فلم نكذب وخررنا سجدا
نعطي الزكاة ونقيم المسجدا (6)

وجدة : **محمد بنعمارة**

إحالة

1) محمد خليفة تونسي (ترجمة) - الخطر اليهودي (بروتكولات حكماء صهيون - الخانجي - القاهر - مطبعة السنة المحمدية ص : 176.
2) يوسف العظم - ديوان (في رحاب الأقصى) من مقدمته ص : 6.
3) محمد المنتصر الريسوني - ديوان (على درب الله) من مقدمته، ص : 8 و9.
4) كامل الشناوي - ديوان (لا تكذبي) - الدار القومية للطباعة والنشر من قصيدته «إلى أين» : ص : 96.
5) (م. ن) - من قصيدة : ثم ماذا ؟ ص : 98.
6) ورد في موضوع «شعراء النبي» - عبد الغني حسن «الهلال» - 1392 هـ. العدد 10.



دراسات في فلسفة التوحيد :

الإيمـان وأثره في الحيـاة

للأستاذ
أحمد بودهان

خلق الله الإنسان في هذه الأرض ليحيا وليعيش وليشقى في كبد مستمر من أنة الوضع، إلى أنة النزع مصداقا لقوله جلت قدرته : ﴿**لقد خلقنا الإنسان في كبد**﴾ ـ البلد آية 4 ـ وطبقا لما تقتضيه مشيئته بخصوص سنن هذه الحياة الفانية ونواميسها الطبيعية، ووفقا لإرادته تعالى وحكمته الأزلية حتى يتحمل الإنسان مسؤولية وجوده في هذه الأرض كي يعمرها تنفيذا لرغبته يوم تولى تحمل عبء هذه الأمانة التي يخبرنا بها الله في قوله : ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها، وحملها الإنسان...**﴾. ـ الأحزاب آية 72 ـ وبالتالي حتى يعرف الله بفطرته وعقله قبل أن يعرفه عن طريق رسالات رسله، وحتى يعلم أنه تعالى لم يخلقه عبثا، ولم يوجده في هذه الأرض سدى، قوله : ﴿**أم حسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون...**﴾ ـ المومنون آية 115 ـ وقوله : ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**﴾ ـ القيامة آية 35 ـ وحتى يعلم أيضا أنه تعالى خلقه كذلك كي يبتليه ويمتحنه ويختبره ويجربه هل يتعظ ويحمد ويشكر ويصبر ويحتسب ويعمل صالحا ؟ أم يطغى ويتكبر ويتجبر ويكفر بسبب ما يلقاه من معاناة وكبد وفقر ومرض وغنى وموت وحياة مجهدة ؟! فقال جلت قدرته : ﴿**تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا، وهو العزيز الغفور**﴾ ـ الملك آيتان 1 ـ 2 ـ.

وبهذا يستطيع الإنسان أن يحدد مكانه ومكانته في هذا الوجود، وأن يجد للحياة معنى ولذة، فيوازن بين الجانبين : المادي والروحي فتخف همومه، وتهون عليه مشاكله وبالتالي يعيش في سلام حتى يلقى ربه. إلا أنه مع الأسف الشديد، لوحظ أن هذا الإنسان قد أخذ في

نسيان الهدف الذي من أجله وجد، فإذا به يرى خطأ أو جهلا أو تجاهلا أنه خلق ماديا ليعيش ماديا، ثم يموت ويفنى ماديا وينتهي كل شيء، ومن هنا أصبح لا يرى حوله إلا المادة التي عليه أن يتصارع ويتفانى ويتهافت ويتقاتل من أجلها إلى أن فقد لذة هذه الحياة ومعناها ومغزاها بفقدانه الجانب الروحي المعنوي الذي يجب أن يسير دائما جنبا إلى جنب مع الجانب المادي.

أجل... إنه بالرغم مما حققه الإنسان ولا يزال يحققه في ميادين الرقي العلمي الفكري المادي الحسي فإنه قد فقد - مقابل ذلك - أعز شيء عنده، الا وهو انعدام الإحساس بلذة السعادة والسكينة والطمأنينة والاستقرار النفسي الداخلي الباطني، فإذا به مثله كمثل من يبحث عن شيء ولا يدري ما هو ذلك الشيء على وجه التحديد، بقدر ما يحس أنه ينقصه شيء بالتأكيد رغم وجود كل ما يحتاج إليه من الوسائل المادية، ولن يكون هذا الشيء الذي فقده سوى «الإيمان» «الإيمان المطلق بالخالق» الإيمان بمفهومه الواسع الشامل المهيمن على سلوك الإنسان وتصرفاته وأقواله وأفعاله وعقيدته... الإيمان المطلق الذي يواكب مظاهر الحياة الدنيا والآخرة ومقتضياتهما معا حسب ما جاءت به تعاليم السماء، وكما نجده في الآثار النبوية الفعلية منها والقولية والتقريرية، وكما نعرفه عن السلف الصالح تاريخيا وحضاريا وعلميا وتقدميا... تلك التعاليم الإيمانية الصحيحة التي سنحاول بحول الله. وعلى قدر المستطاع - أن نوردها هنا ولو من باب التذكير على كل حال... التذكير بحقيقة الإيمان وأثر هذا الإيمان في حياة الإنسان. ويا ما أحوجنا إلى هذا ونحن في عصر أصبح الحديث فيه عن الإيمان يتهم بالرجعية رغم أن انعدامه سلب الإنسان كل شيء...

أولا : الإيمان في اللغة والشرع :

تطلق كلمة «الإيمان» في اللغة على التصديق بالشيء مطلقا والاعتقاد به وجودا أو عدما... أما الإيمان في الشرع أو الاصطلاح الديني الإسلامي فمعناه العام التصديق بعوالم الغيب، والإقرار بوجودها إقرارا قلبيا اعتقاديا خالصا، مع الالتزام الفعلي قولا وعملا لتبعات ذلك التصديق من أجل تطبيق تعاليم تلك العوالم الغيبية امتثالا واجتنابا، وبتعريف أوضح أن الإيمان الشرعي هو ما يعتقده القلب، وينطق به اللسان، وتعمله الجوارح بخصوص الإقرار بالله وبوجوده ذاتا وصفاتا وأفعالا، وبخصوص تطبيق أوامره واجتناب نواهيه في المعتقدات والعبادات والمعاملات...

والإيمان أو التصديق بوجود عوالم الغيب يشمل عدة أمور، أعلاها وأهمها وأولها الإيمان المطلق بوجوده تعالى. لأن الإيمان به جلت قدرته اعتقادا وقولا وفعلا هو الأصل الاعتقادي الأساسي الأول، الذي يستتبع الإيمان بكل المعتقدات الغيبية الأخرى تلقائيا بعد الإيمان به تعالى، كما أن الإيمان بتلك الغيبيات الأخرى دون الإيمان بالله يكون إيمانا مرفوضا من أساسه، كما سيأتي توضيح ذلك في حديثنا عن اقسام الإيمان المتفرعةعن الإيمان بالله،والتى هي أقسام وقواعد معروفة من خلال نصوص القرآن والسنة، وقد بينها الرسول محمد ﷺ في الحديث الشهير بحديث جبريل الشامل لقواعد الإسلام وقواعد الإيمان وقواعد الإحسان باعتبارها الدين كله، ومن هذا الحديث ما جاء فيه على الخصوص بقواعد الإيمان في جوابه ﷺ لجبريل إذ يقول : «...أخبرني عن الإيمان، قال الرسول ﷺ : «ان تومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخروبالقدر خيره وشره...» والملاحظ أن كل هذه القواعد الإيمانية هي معتقدات قلبية، غيبية كانت أم سمعية كما يلي :

ثانيا : أقسام الإيمان أو قواعده بين العقل والنقل : (الغيبيات)

أ - الإيمان بالله :

هذه هي القاعدة الإيمانية الأساسية الأعلى الأولى التي يأتي الإيمان بكل القواعد الغيبية الأخرى تلقائيا بعد الإيمان بها كما أشرنا. والإيمان الراسخ القوي بالله هو ذلك الإيمان الذي يأتي عن طريق العقل والنقل معا وهو إيمان المجتهد الذي يعتبر أرقى من إيمان المقلد... إلا أن الإيمان العقلي بوجود الله اجتهادا وتأملا وتدبرا، ذاتا وصفة وأفعالا، لا يمكن أن يحصل مباشرة أو مشافهة أو برؤية حسية مادية لذاته تعالى، بل يجب أن يحصل بكيفية غير مباشرة، أي بالتأمل في الظواهر الكونية الدالة عليه تعالى

لأنه تعالى : ﴿**لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير**﴾ ـ الأنعام آية 104 ـ ويقول عليه السلام : «تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا». والنصوص التي تحثنا على إعمال الفكر والنظر والتأمل والتدبر في مخلوقات الله لاستجلاء وجوده عقلا ونقلا هي نصوص كثيرة، وهو أمر معروف في فلسفة التوحيد، وقد يطول بنا الحديث فيه إذا تناولناه بالتفصيل، لأن مرادنا هنا هو التذكير بعجز العقل عن الوصول إلى «كنه الله والوقوف على ذاته وصولا حسيا»، بل وحتى الذين كانوا يقولون بالأمس إن الانطلاق من القاعدة التي تقول : «كل مخلوق له خالق، وكل مصنوع له صانع فمن خلق الأول ؟» وقالوا إنها قاعدة لا نهائية أصبح الآن قولا غير صحيح عقليا ورياضيا بدليل حتمية انغلاق الدائرة وبالتالي الوصول إلىالنهايةانطلاقا من البداية،أي مادام أن كل مخلوق له خالق تصاعديا فلابد من الوصول إلى الخالق الأزلي بلا بداية والآخر بلا نهاية وهو الله. فإذا انطلقنا من القاعدة تصاعديا ابتداء من نقطة الدائرة المغلقة فلابد وأن ندور كونيا حتى نصل إلى نقطة البداية فتنغلق الدائرة وتنعدم اللا نهائية المزعومة، وبالتالي تثبت أن لهذا الكون بداية ولخالقه الأزلية بلا بداية، كما تثبت في نفس الوقت أن للكون نهاية، ولموجده البقاء بلا نهاية...

والحقيقة أن محاولة العقل الوصول إليه تعالى وصولا حسيا ماديا علميا هو نوع من المغامرات العقلية التي تجد محنة العقل أمام عوالم الغيب، والتي لا تأتي بأي طائل، لأن العقل البشري قاصر فقط على إدراك الماهيات الحسية، والظواهر المادية، والصور المجسدة، وعاجز تماما عن إدراك الصور الروحية الغيبية الماورائية الميتافيزيقية، لذا حذرنا الله من الخوض في هذا المجال رحمة وشفقة بنا وبعقولنا، وحثنا في نفس الوقت على البديل، وهو التأمل والنظر في مخلوقاته للاستدلال عليه، لا للبحث في كنهه وذاتيته وطبيعته، وحتى هذا التأمل في الظواهر الكونية للاستدلال عليه مرهون بهدايته وتوفيقه تعالى، بحيث قد يقتنع العقل ولا ينطق اللسان ولا يؤمن القلب، وقد يقتنع الوجدان ولا يقتنع العقل كما حصل للكثير خلال مراحلهم الشكية والفكرية فآمن من هداهم الله، وكفر من أضلهم الله على علم ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة...**﴾ ـ الجاثية آية 22. والله تعالى حجب عنا الغيبيات وأمرنا أن نؤمن بها دون مشاهدتها، ولو أراد أن يكشف لنا الحجاب لمشاهدتها لعايناها، ولكنه استأثر بعلمها وحده، كما استأثر بمعرفة كنهه وماهيته وحقيقته دون سواه، واكتفى جلت قدرته بذكر بعض أسمائه الحسنى وذكر بعض صفاته الكمالية وأمرنا أن نؤمن بها بعد الإيمان بوجوده...

والحكمة في كونه تعالى حجب عنا الغيبيات ثم أمرنا أن نؤمن بها دون مشاهدتها تنحصر في :

1 ـ كونه تعالى أراد أن يختبرنا ليعرف مدى استعدادنا للإيمان به غيبيا عن طريق النقل لأن الإيمان بالغيب أمر صعب بالنسبة للعقل الذي قد لا يؤمن إلا بالمحسوس، ولهذا نوه الله بالذين يؤمنون بالغيب في أكثر من آية منها قوله تعالى : ﴿**آلمّ. ذلك الكتاب لا ريب، فيه هدى للمتقين الذين يومنون بالغيب...**﴾ ـ البقرة 1. 2. 3 ـ.

2 ـ كونه تعالى يعلم أن طينتنا وطبيعتنا البشرية المادية تختلف عن طبيعته وكنهه تعالى لقوله : ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ وقوله : ﴿**قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد**﴾.

3 ـ كونه تعالى يعلم أن طبيعتنا تلك المخالفة لطبيعته لا تستطيع الصمود والوقوف أمام تجليه لنا بأنواره الساطعة ﴿**الله نور السماوات والأرض...**﴾، وقصة موسى كليمه تدل على هذا : ﴿**قال رب أرني انظر إليك، قال لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا...**﴾ الاعراف آية 143 ـ.

4 ـ وأمام هذا الضعف البشري أشفق الله علينا وجعل عقولنا عاجزة عن إدراك كنهه الذاتي مادام أن العقل لا يقتنع إلا بالمحسوس، ولا يستطيع تجاوزه إلى الكنهيات الروحية... والإيمان بالله وبوجوده يستلزم الإيمان بصفاته الكمالية التي لا حد لها، والتي حاول علماء التوحيد

حصرها في عشرين صفة اعتمادا على استقراء نصوص القرآن والسنة.

والاعتقاد بأن الله متصف بكل هذه الصفات واجب على المكلف البالغ، كما يجب عليه الاعتقاد بأضدادها المستحيلة في حقه تعالى. وهناك بعض علماء الكلام من يرى عدم وجوب الإيمان بهذه الصفات ما دامت أنها «عين الذات» وما دامت «أنها هي هو وأنه هو هي». إلا أن السلف الصالح من أهل السنة والجماعة يرون أن الإيمان بهذه الصفات واجب، لأن هناك زيادة واجبة في الاعتقاد بين من يؤمن بشيء فقط، وبين من يؤمن به وبقدرته أو شجاعته مثلا، وهذا موضوع طويل لا نريد الخوض فيه رغبة في الاختصار، وتحاشيا للجدل الديالكتيكي الكلامي العقيم... **﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلا﴾** الكهف آية 54.

والإيمان بالله على النحو الذي ذكرنا اعتقادا وقولا وفعلا، هي القاعدة الاعتقادية الأولى والأساسية التي بدأ بها الرسول جوابه على سؤال جبريل حين قال ﷺ : «أن تؤمن بالله...» وهذه القاعدة الاعتقادية الأساسية هي عقيدة «قلبية» أولا وقبل كل شيء، بحيث يجب على المؤمن الحق اعتقادها اعتقادا قلبيا جازما صادقا في باطنه وداخليته ونفسيته ونيته ونواياه التي لا يعلم صدقها أو عدم صدقها إلا الله **﴿الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور...﴾** وهذا بغض النظر عن النطق بها باللسان نفاقا أو صدقا، أو عدم النطق بها اختياريا أو مجبرا، لأن مسألة النطق بها باللسان تأتي في المرتبة الثانية بالنسبة للإيمان بها قلبا وإخلاصا، لذا خصها الرسول هنا في باب الإيمان بالاعتقاد القلبي الخالص، وخصها في باب قواعد الإسلام بالنطق اللساني عند القادر على النطق حين قال : **﴿أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله﴾**. لأن صحة الاعتقاد القلبي الخالص تستتبع تلقائيا صحة النطق وصحة الفعل في أداء العبادات والمعاملات، وفساد الاعتقاد القلبي النفاقي يستتبع فساد الأقوال والأفعال. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الإيمان باعتباره الجانب القلبي الخفي هو الأصل، وأنه أعلى مرتبة من الجانب القولي اللساني والفعلي الذي يعتبر من الفروع القولية والعملية التابعة للأصل الأول الإيماني القلبي الخالص» وهذ المسألة معروفة في العلاقة القائمة بين مفهوم الإسلام ومفهوم الإيمان كما جاء ذلك في قصة بني أسد في قوله تعالى : **﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تومنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾** الحجرات آية 14 ـ 15 وقصة قوم من الأعراب أيضا في قوله تعالى : **﴿ومنهم من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾** ـ سورة الحج آية 11 ـ.

ب ـ الإيمان بالروحانيات :

ويندرج تحت هذه القاعدة الإيمانية الثانية الإيمان بكل الروحانيات وخاصة الملائكة كجبريل وعزرائيل واسرافيل وميكائل وحملة العرش الثمانية. وكذلك الإيمان بالروحانيات الغيبية المحجوبة الأخرى كالإيمان بوجود الجان والشياطين وأرواح بني آدم وأرواح كل كائن حي مادي محسوس، ونصوص القرآن والأحاديث التي تحثنا على الإيمان بهذه الروحانيات الغيبية المحجوبة عنا. نصوص كثيرة، وقد استأثر الله بعلم ومعرفة حقيقة هذه العوالم الروحانية كما استأثر بكنهه وحقيقته، واستأثر أيضا بعددها **﴿يسالونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾** ـ الإسراء آية 85 ـ ثم إقرأ سورة الجن إلى آية 16 وقوله : **﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو...﴾** ـ سورة المدثر آية 31 ـ.

وقد ينكشف الحجاب للبعض فيرى بعض الملائكة أو الجان أو الشياطين كما حصل لبعض الرسل، كمحمد ﷺ وسليمان وغيرهما، وقد بسطنا الكلام عن الروحانيات في بحثنا المنشور تباعا في «الإيمان» مؤخرا. وصحة أو عدم صحة الإيمان بوجود هذه الروحانيات يتوقف أساسا على صحة أو عدم صحة الإيمان بالأصل الأول الله ما دام أن الله تعالى هو الذي أخبرنا بوجودهم وبانحجابهم عنا...

ج ـ الإيمان باليوم الآخر :

هذه القاعدة الإيمانية الثالثة المتعلقة باليوم الآخر،

هي عقيدة غيبية أيضا، وصحتها أو فسادها متوقف على صحة أو فساد الإيمان بالله قلبا وإخلاصا وتصديقا، أو العكس...

وينطوي الإيمان باليوم الآخر على العديد من الغيبيات كالإيمان بمقر الأرواح بعد الموت الذي هو «البرزخ» بالنسبة للمؤمنين، والإيمان بعذاب القبر للعصاة بعد سؤال منكر ونكير، والإيمان بأشراط الساعة وقيامها من حشر ونشر ووقوف وصراط وميزان وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار بعد البعث، وشفاعة للمؤمنين، ودوام الحياة الأخروية ورؤية الله عيانا بالنسبة لعباده المؤمنين...الخ... وكلها كما نلاحظ غيبيات أمرنا الله بالإيمان بها نقلا وعقلا، والنصوص الواردة في باب البعث أكثر من أن تحصى، ولك أن تقرأ على سبيل المثال لا الحصر ما جاء في سورة القارعة ـ الزلزلة ـ التكاثر ـ القيامة ـ الإنسان ـ الواقعة ـ الانشقاق ـ التكوير ـ المرسلات ـ النبأ ـ الملك ـ العاديات ـ الفجر... إلى غير ذلك من سور القرآن الأخرى...

ثم تأمل في قصة عزير وقصة أهل الكهف وقصة إبراهيم مع ربه حين طلب منه أن يريه كيف يحيي الموتى...

ومن الصعب على العقل أن يؤمن بمثل هذه الغيبيات إيمانا عقليا أو علميا مجردا إذا لم يؤمن بوجود الله وقدرته وجميع صفاته، وكذلك إذا لم يكن هناك توفيق من الله وهداية منه تعالى الذي يهدي من يشاء، لأن الاستدلال العقلي أو العلمي على البعث استدلالا مجردا محضا قد لا يتأتى نظرا لقصور العقل وعجز العلم في هذا المجال، وقد قمنا بمحاولة في هذا الصدد للتوفيق بين رأي الدين ورأي العلم في موضوع البعث وقيام الساعة وبداية الكون ونهايته في بحثنا الذي نال جائزة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لسنة 1404 هجرية...

د ـ الإيمان بالقدر خيره وشره :

لم يعد الإيمان بهذه القاعدة القدرية التابعة للعقيدة الإلهية الأم ـ إيمانا ذا إشكال كما كان يظن الإنسان قديما، بل إن البحث والتقدم الفكري والتطور المنطقي والفلسفي ومعاصرة الفكر الإسلامي الحديث بدأ يؤمن بها عقلا ومنطقا بعد أن آمن بها نقلا. ومن هنا لا ضرورة لطرح ذلك الطرح التقليدي الإشكالي التناقضي المزعوم الذي كان يطرح من حين لآخر، والذي كان يقوم على أساس أنه إذا كان الله هو الذي يقدر علينا الأقدار من خير وشر وكفر وإيمان وشقاء وسعادة منذ أن نولد أو قبل ذلك ـ فلماذا نعذب يوم القيامة ونعاقب بخطايانا ؟؟

أجل... إن مثل هذا «الاحتجاج بالقدر» لم يعد إشكالا، وذلك أن الآيات القرآنية التي قد يفهم منها أن الإنسان مسير، والآيات التي قد يفهم منها أن الإنسان مخير ـ هي كلهاآيات لاتناقض فيها معاذالله أن يكون فىالقرآن تناقض ـ بل إن وجود هذه الآيات على النحو المذكور دليل قاطع على أن الإنسان مسير ومخير في نفس الوقت أي أنه حر في أفعاله وإرادته ولكن داخل ناموس الكون وطبيعة الحياة والظروف والعادات والتقاليد والمعتقدات... (انظر بحثنا المنشور في الإيمان عدد 91 ـ 92 بعنوان «الحرية والجبرية»)...

وهذه بعض الآيات والأحاديث الواردة في موضوع «القدر» أو القضاء والقدر والحرية والجبرية أو حرية الإرادة عند الإنسان أو الإنسان مخير أو مسير... الخ : ﴿**فمن شاء فليومن ومن شاء فليكفر**﴾ الكهف آية 29 ﴿**لا إكراه في الدين**﴾ البقرة آية 256 ﴿**ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها**﴾ السجدة آية 13، ﴿**وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى**﴾ فصلت 17، واقرأ أيضا آية 72 من الأحزاب 30 البقرة، 38 المدثر، الطور 21، الإسراء 13، سبأ 25، محمد 17، البقرة 10، غافر 34، الصف 5، الأحزاب 5، الأعراف 28، وحديث الرسول : «إذا ذكر القدر فأمسكوا».

هـ ـ الإيمان بالكتب السماوية : (السمعيات)

ويتدرج الإيمان بهذه القاعدة الخامسة في الإيمان بالعقائد السمعية النقلية، والإيمان بهذه القاعدة لا إشكال فيه بالنسبة للعقل،اللهم إذا تعنت وكان إيمانه بالعقيدة الأم (الله) مهزوزا أو مشكوكا فيه، لأن الإيمان بالكتب السماوية أمر مسموع، والعقل في استطاعته أن يميز بين الكلام السماوي والكلام الوضعي مضمونا وشكلا، وإنما الإيمان بالكتب يتجلى أساسا في أنها وحي من عند الله لرسله عن

طريق الوحي بكل صوره المعروفة،وأن كل ما جاء فيها هو حق ويجب الامتثال له أمرا ونهيا. أما الإيمان بهذه الكتب السماوية عن طريق النقل، فهناك آيات قد لا تعد في هذا المجال. الحديد 13 ـ الشورى 13 ـ إبراهيم 4.

و ـ الإيمان بالرسل :

الرسل بشر اختارهم الله واصطفاهم فأرسلهم إلى خلقه من البشر مبشرين ومنذرين كي لا يكون للناس على الله حجة يوم القيامة، وكي يؤكدوا للبشر أن ما توصلوا إليه بفطرتهم وتفكيرهم من وجود إله خالق لكل شيء إنما هو اجتهاد عقلي فكري مرغوب فيه ومطلوب، وأن رسالاتهم إنما جاءت تأكيدا لذلك وتوضيحا له، ومزيلة للشك، وتجديدا لأمر الدين وتذكيرا بتعاليمه حتى لا يطويها النسيان، ويعتريها الغموض والجهل، ويحل محلها الشرك والإلحاد. والرسل مؤيدون بالله بالمعجزات التي تناسب كل الأزمنة التي وجدوا فيها، ومن أهم هذه المعجزات الباقية إلى الأبد معجزة القرآن الكريم بالنسبة للرسول محمد ﷺ الذي تعتبر رسالته رسالة عالمية وخاتمة، وشريعته ناسخة لكل الشرائع، وحاجة البشر إلى الرسالات السماوية أمر معروف لدى الجميع، والشيء الذي نريد أن نصل إليه في هذا السرد الموجز لقواعد الإيمان، وخاصة الإيمان بالرسل هو أن الإيمان الصحيح برسالاتهم متوقف على صحة الإيمان بالعقيدة الأم التي هي «الإيمان بالله» لأن الله هو الذي أرسل هؤلاء الرسل والإيمان بالمرسل ـ كرا ـ يستتبع الإيمان بالمرسل ـ فتحا ـ وعدم صحة الإيمان بالأول يستتبع عدم صحة الإيمان بالثاني، وهذه القاعدة مطردة وثابتة وقائمة ورابطة بين حلقات سلسلة قواعد الإيمان... والنصوص الدالة على رسالات الرسل كثيرة منها الآية 13 من سورة الشورى.

ثالثا : الإيمان بالله هو أساس العقائد كلها :

أجل... إن الإيمان بالله وجودا وذاتا وصفاتا وأفعالا يستتبع تلقائيا وبسهولة عقلية ومنطقية الإيمان بالملائكة لأنهم رسله تعالى بينه وبين خلقه وخاصة الرسل، والإيمان بالرسل يستتبع تلقائيا الإيمان بالمرسل وهو الله كما أشرنا، والإيمان بهم هو الإيمان بكتبهم، وهكذا في كل القواعد المذكورة، إذ الكل راجع للإيمان بالله.

رابعا : شعب الإيمان :

إن ما سنذكره في هذه النقطة بالذات، والنقط الموالية لها هو «بيت القصيد» في حديثنا هذا... ذلك أن ما أشرنا إليه من حقيقة الإيمان ومفهومه العام، وقواعده الست التي أساسها الإيمان بالله ـ إنما هو أمر معروف لدى الخاص والعام ولو شكليا، ولكننا بدأنا به رغبة في التذكير ولو من باب تحصيل الحاصل، ورغبة في ضبط المنهجية ووضوح الرؤية، والا فإن مفهوم الإيمان كما سيوضحه لنا الرسول والسلف الصالح من علماء الحديث وعلماء السنة والجماعة ـ هو مفهوم شامل لتعاليم الإسلام كلها التي تنظم حياة الفرد بينه وبين ربه، وبينه وبين نفسه، وبينه وبين غيره من أسرته وأهله وبيئته ووطنه والمجتمع الإنساني ككل دنيا وأخرى، وخاصة فيما يتعلق بالحقوق والواجبات والصالح العام والاهتمام بأمور المسلمين في المعاملات والسلوك انطلاقا من قوله عليه السلام : «الدين المعاملة» ـ «الدين النصيحة....» الحديث ـ.

وتوضيحا لحقيقة الإيمان الشاملة لأمور الحياة الدنيوية والأخروية يقول الرسول الكريم محمد ﷺ في الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة : «الإيمان بضع وستون شعبة» وفي رواية «الإيمان بضع وسبعون شعبة» ثم يوضح الرسول هذه الشعب باختصار فيحدد طرفيها الأعلى الأول والأدنى الأخير قائلا في نفس الحديث : «...أعلاها لا إله إلا الله... وأدناها إماطة الأذى عن الطريق». وقد اتفقت كلمة العلماء خلفا عن سلف أن هذا الحديث جامع للدين كله... والبضع في لغة العرب ـ بكسر الباء على الأرجح ـ هو ما بين الثلاثة إلى التسعة، وقيل إلى العشرة، واختيار الرسول لعدد ستين أو السبعين حسب الروايتين الصحيحتين جرى من حيث الشكل مجرى تقاليد العرب الذين كانوا يطلقون غالبا هذين العددين قصد تعظيم الأمر وتضخيمه وشموليته، كما جرى من حيث الجوهر مجرى الحكمة الإلهية في كون الرسول كان لا ينطق عن الهوى ولو في أحاديثه وخاصة مثل هذا الحديث، حيث سيتضح لنا أن أفعال الطاعات عددها لا يكاد يزيد كثيرا عن بضع

وستين، ولا يكـاد ينقص كثيرا عن بضـع وسبعين (صـدق رسول الله)... وقد شبه عليه السلام الإيمان بشجرة أصلها وجذورها وعروقها «العقيدة الكبرى» الأم. وهي الإيمـان بالله المتمثل في «لا إله إلا الله» اعتقادا ونطقا وتطبيقا، وهذا يستتبع الإيمان بكل العقائد الأخرى منها الشطر الثاني من الشهادتين (محمد رسول الله)، ثم باقي القواعد الإيمانية على النحو الذي ذكرنا كسلسلة مترابطة الحلاقات انطلاقا من الحلقة الأصلية الأساسية الأولى وهي الإيمان بالله. وبعد هذا الأصل الإيماني المستتبع للقواعد الإيمانية الأخرى، والذي يمثل جذور الشجرة، تأتي الفروع المتفرعة عن أصل الشجرة والمتشعبة إلى شعب حصرها الحديث ما بين كذا وستين، إلى كذا وسبعين شعبة...

وقد اهتم العديد من علماء الحديث خاصة بتفسير هـذا الحـديث النبوي الشريف المتعلق بشعب الإيمـان، محاولين تحديد وشرح وحصر «المراد بهذه الشعب» فوجدوا أن عدد أنواع الطاعات من اعتقادات وعبادات ومعاملات وآداب وأخلاق وسلوك وغير هذا من التعاليم الإسلاميـة والإنسانية التي أمرنا بها الدين امتثالا أو اجتنابا حسب ما هو معروف في «أقسام الحكم الشرعي» - هو عدد ينحصر ما بين البضع والستين إلى البضع والسبعين، تماما وكما أخبر بذلك الرسول ﷺ وأجمله في قوله : أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، ويـدخل في شعب الإيمان هذه كل أعمال «القلب» من المعتقدات الخالصة المتعلقة بالغيبيات والروحانيات على النحو الذي ذكرنا في أقسام الإيمان والجزئيات والتفرعات المتفرعة عن كل قسم على أن يكون إيمان«القلب»بكل ذلك إيمانا خالصا صحيحا جازما منطلقا أولا وقبل كل شيء من صحة الإيمان بوجود الله كقاعدة اعتقادية كبرى هي الأساس لكل القواعد الإيمانية الأخرى...

وأعمال القلب هذه والمتمكنة في النيات والنوايا والخفايا والسرائر والاعتقاد الصحيح بما ذكرنا - هي لأساس الأول لشعب الإيمان الباقية القولية منها والفعلية...

وبعد أعمال القلب الإيمانية النظرية تأتي أعمال اللسان المتمثلة في النطق بالإيمان بتلك المعتقدات كالنطق بالشهادتين مثلا وما تستتبعانه من نطق بغيبيات أخرى وكل ما يتعلق «بالكلم الطيب» بمفهومه الشامل في المعاملات القولية اللسانية التي أمرنا الله بها واجتناب ما نهانا عن النطق به حسب ما هو معروف في معنى قوله تعالى : ﴿**ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء....**﴾ ويدخل في أعمال اللسان هذه كل نطق حسن كما أثرنا، واجتناب كل نطق خبيث...

ويأتي بعد أعمال «القلب» الاعتقادية وأعمال «اللسان» القولية - أعمال «الجوارح» التطبيقية الفعلية الشاملة لكل أفعال العبادات والمعاملات البدنية منها والمالية والحركية، والتي تعتبر «الترجمة» المعبرة الصحيحة لنوعية أعمال القلب وأعمال اللسان من حيث صحة الاعتقاد وصحة القول، أو فساد كل منهما، فبالنسبة لأفعال العبادات المفروضة وعلاقتها بأعمال القلب واللسان - نجد أن الشخص المسلم إما أن يؤديها على الوجه الأكمل أداء مقبولا يدعمه الاعتقاد الصحيح والتقوى والخشوع والطمأنينة وحضور القلب كحافز إيماني قلبي خالص قولا وفعلا نتيجة الإيمان الصحيح، وإما أن يؤديها أداء شكليا سطحيا ظاهريا كلاسيكيا تقليديا كتعبير منه عن ضعف الإيمان وانعدام حافز التقوى والخشوع وحضور القلب والخوف من الله، وإما أن لا يؤديها إطلاقا أو يتهاون في أدائها، حيث يكون هذا أيضا دليلا على نوعية إيمانه القلبي المهزوز الذي يكاد يكون منعدما إن لم نقل فعلا منعدما لأن قوة الإيمان تكون حافزة للمسلم على أداء الشعائر، وضعفه يكون سببا في تهاونه في أداء تلك الشعائر...

أما بالنسبة لعلاقة أفعال وأعمال وأقوال «المعاملات» بأعمال القلب - فإن هذا يتجلى أساسا في نوعية سلوك الإنسان في معاملاته مع الغير، بحيث إذا كان يتقي الله ويخشاه في كل شيء في متجره، في معمله، في حقله، في منزله مع أهله، في مكتبه في شغله... الخ. فإن هذا دليل

على قوة إيمانه وصحة اعتقاده وأعماله القلبية واللسانية وإلا العكس، أي أن أثر الإيمان تعكسه الأقوال والأفعال إيجابا أو سلبا تبعا لحلاوة الإيمان في النفس. أو انعدام هذه الحلاوة، أو ضعفها كما جاء في الحديث...

خامسا : مرتبة الإيمان كأصل ومرتبة الشريعة كفروع له :

الإسلام عقيدة وشريعة، والعقيدة المتمثلة في «الإيمان» بمفهومه الشامل، وبشعبه المذكورة هو الأصل الأول، أو المبدأ الأول القلبي الاعتقادي التصديقي الخالص. والشريعة بما فيها من أقوال وأفعال وعبادات ومعاملات وسلوك وآداب وأخلاق هو الأصل الفرعي الثاني التابع للأصل الإيماني الاعتقادي الأول والأساسي، أي أن صحة أو فساد الأقوال والأفعال في فروع الشريعة مرهون ومتوقف على صحة أو فساد الأصل الأول الإيماني، أي أن تطبيق تعاليم الإسلام ظاهريا يعكس نوعية الإيمان بحيث يكون الوازع الإيماني القوي الصحيح حافزا ودافعا للإتيان بأعمال الشريعة على أتمها. وإذا فسد الأصل الأول الإيماني أو ضعف أو تزعزع، فإن ذلك ينعكس على الأفعال والأقوال في أداء شعائر الشريعة...

وهنا يكمن الخطأ لدى المسلمين وخاصة لدى العامة الذين يمثلون السواد الأعظم من أمتنا... العربية والإسلامية، حيث نجد انعدام التقوى والخشية والخوف من الله بسبب ضعف وازع الإيمان، فإذا هم يؤدون الشرائع والشعائر والطقوس أداء شكليا كما مر بنا من قبل، وهم والحالة هذه يبتعدون كل الابتعاد عن تلك العلاقة الرابطة الروحية المادية القائمة دوما بين العقيدة والشريعة، وخاصة في ميدان المعاملات، وبالتالي ينتشر فينا كل معالم الزور والبهتان والكذب والخيانة والرشوة والحقد والبغض والكراهية والذاتية والأنانية والمحسوبية والفحشاء والمنكر والانشقاق والتمزق والتطاحن والتقاتل رغم أننا نؤدي ظاهريا تلك الشعائر. وكل هذا ناتج عن الجهل بحقيقة الإيمان ومفهومه الشامل وشعبه التي أشار إليها الرسول ﷺ والتي هي الدين كله...

ومعنى كل هذا أن مرتبة الإيمان هي المرتبة العليا، مادام أنه شامل لكل أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال الجوارح التي تعتبر كفروع تشريعية تابعة للإيمان... أي أن قواعد الإيمان انطلاقا من القاعدة الأم وهي الاعتقاد بالله تستتبع قواعد الإسلام وقواعد الإحسان كما نعلم في حديث جبريل. والإنسان لا يدافع عن رأيه أو فكرته أو مبدئه أو حقه إلا إذا كان يؤمن جازما بمشروعيته وصوابه، والمسلمون لا يمكن أن ينجحوا في مصيرهم إلا إذا فهموا إيمانهم التوحيدي بالله الفهم الشامل، واعتقدوه اعتقادا قلبيا يعكس صلاحية أفعالهم ومصداقية أعمالهم وأقوالهم وإلا فهم مسلمون مصلحيون شكليون كما نعلم في قصة «الاعراب» ـ الحجرات 14 ـ 15 وقصة «الحرفيين» الحج آية 11...

سادسا : هل الإيمان يزيد وينقص ؟ وكيف ؟ :

هذه المسألة ناقشها السلف والخلف قديما، وانقسموا فيها إلى قسمين :

ـ القسم الأول يرى أصحابه من علماء الكلام خاصة، أن الإيمان كل لا يتجزأ ولا يتبعض، وهو إما أن يكون ككل حسب مفهومه الشامل اعتقادا بالقلب، وقولا باللسان، وعملا بالجوارح، وإلا فلا يكون، أي أنه ليس هناك نوعان من الإيمان : إيمان ناقص وإيمان زائد، بل إيمان كامل طبقا لتبعاته المذكورة وكفى، ويستدلون على هذا برأيهم القائل إن الزيادة أو النقصان في الاعتقاد أمر ناتج على الشك والوسوسة، والإيمان الشكي مرفوض (أفي الله شك...) ؟! وهناك من السلف والخلف من يرى عكس هذا الرأي، وأغلبهم من أهل السنة والجماعة وأهل المذاهب، حيث يرون أن الإيمان يزيد وينقص، ومنهم الإمام البخاري في صحيحه حيث أورد في باب الإيمان آيات كثيرة من القرآن تدل على أن الإيمان قابل للزيادة والنقصان، كما أورد ذلك العديد من المفسرين لهذه الآيات في تفاسيرهم واستدلوا بها على أن الإيمان يزيد وينقص، وكذلك علماء الحديث من شراح البخاري ومسلم ومنهم «ابن حجر» و«النووي» و«القسطلاني» والقنوجي وغيرهم استشهادا بالآيات منها : ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى...**﴾ (محمد 17) ﴿**إنما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت**

قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا...﴾ (الانفال 42 ـ 43) **﴿وما زادهم إلا إيمانا وتسليما﴾** أما كيف يزيد وينقص ؟ أو متى يزيد وينقص ؟ فقالوا إنه يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي كما قالوا أيضا إن الشيء القابل للزيادة يكون منطقيا قابلا للنقصان، وهؤلاء يمثلون القسم الثاني، والشيء الواضح في هذه المسألة أن الذين قالوا باب الإيمان لا ينبغي أن تعتريه الزيادة، ولا النقصان خوفا من الشك، فإنهم أرادوا بذلك أن يكون إيمان الناس جميعا على أساس واحد وقوي ومتين اعتقادا وقولا وفعلا، وهذا أمر قد يكون مستحيلا، لأن الناس متفاوتون في علومهم ومواهبهم وتقواهم بالإضافة إلى أن الإيمان محله القلب، والقلب يصدأ كما يصدأ الحديد كما جاء في الحديث، وصدأ القلوب وموتها إغفالها عن ذكر الله، واحياؤها يكون بملازمة ذكر الله وإحضاره في القلوب بالخشوع وملازمة الطاعات. والناس في هذا فريقان على كل حال...

ومن هنا فإن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بملازمة التقوى وفعل الطاعات، وينقص بالغفلة والانشغال والإلهاء بأمور الحياة الدنيوية إلا من هداه الله وأعطى لكل ذي حق حقه، في أمور الدنيا والآخرة، ولازم طريق الله في اعتقاداته وأقواله وأفعاله وسلوكه ومعاملاته وهذا ما تدل عليه الآيات والنصوص المشار إليها والتي تدل أن الإيمان قد يزيد بالتقوى، وقد ينقص بالغفلة والإلهاء...

سابعا : شمولية الإيمان لأمور الحياة :

استنتاجا لكل ما سبق نجد أن المفهوم الصحيح للإيمان، يقتضي أن يكون الإيمان شاملا لكل تعاليم الإسلام النظرية منها والتطبيقية، وهو في نفس الوقت والحالة هذه شامل لأمور الحياة حيث ينعكس أثره الإيماني الصحيح لدى المؤمن الحق على كل أعماله وأقواله وأفعاله ومعاملاته، ويمكن إجمال شمولية الإيمان للحياة فيما يلي :

1 ـ الإيمان والعقل :

ينوه الإسلام بالعقل، ويحثنا على إعمال الفكر والتأمل والتدبر لاستجلاء آثاره تعالى، والوقوف على كل الدلائل الدالة عليه، والتمعن في كل المظاهر الكونية الجيولوجية منها والبيولوجية التي تشير إلى أن هذا العالم لا يمكن أن يكون قد وجد صدفة أو طبيعيا أو حتميا وهو على ما هو عليه من الدقة والضبط والإتقان. والنصوص القرآنية التي تحثنا على إعمال الفكر والنظر قصد الاقتناع عقليا بوجود الله وترسيخ الإيمان حتى يحصل التوحيد وتجتمع كلمة الإنسانية على معبود واحد هي نصوص كثيرة ومعروفة سبق أن أشرنا إليها في بحوثنا المذكورة في هذا الموضوع **﴿قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير﴾** العنكبوت آية 20. أما الوقوف على ذاته تعالى وكنهه وحقيقته مباشرة فأمر مستحيل على العقل البشري، حيث يعتبر هذا نوعا من المغامرات العقلية التي لا طائل وراءها. وقد ذكرنا هذا بتفصيل في صدر هذا البحث...

وكذلك ينوه الإسلام بالعقل حين يقرر أن الإيمان الناتج عن العقل وإعمال الفكر ـ وهو ما يعبر عنه بإيمان المجتهد الذي لا يقتصر على الإيمان النقلي بل يدعمه بالإيمان العقلي ـ هو أفضل من إيمان المقلد، لأن التقليد الأعمى حجاب للفكر، وتجميد لقوى العقل...

2 ـ الإيمان والعمل :

ويكفي أن نشير في هذا الصدد المتعلق بعلاقة الإيمان بالعمل أنه قد ورد في القرآن أزيد من سبعين آية اقترن فيها الإيمان بالعمل مباشرة **﴿آمنوا وعملوا﴾** مع العلم أن المراد بالعمل المقرون بالإيمان هو «العمل الصالح» **﴿آمنوا وعملوا الصالحات﴾**، والآيات عديدة في هذا المجال، لا يتسع المقام لذكرها هنا رغبة في الاختصار، كما أن العمل الصالح الذي يستتبعه الإيمان يشمل العمل الدنيوي والأخروي ماديا وروحيا **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون﴾** (التوبة 105). ويقول الرسول ﷺ : «ليس خيركم من ترك

دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه، وإنما خيركم من عمل لهذه وتلك...

والنصوص كثيرة في هذا، وهو رد على الزعم القائل بأن الإسلام لا علاقة له بالعمل، وهو فقط دين الآخرة، ودين التواكل، والاحتجاج بالقدر...

3 ـ علاقة الإيمان بالعلم :

إن مفهوم الإيمان حسب ما ذكرنا لا يتنافى مع طلب العلم. والنصوص في هذا الباب كثيرة في القرآن والسنة، والذي نريد أن نصل إليه هنا بالضبط، هو أنه كلما تقدم الإنسان في الاكتشافات العلمية جيولوجيا وبيولوجيا، كلما اكتشف العديد من الحقائق والظواهر الكونية التي أخبر بها القرآن منذ خمسة عشر قرنا، وهذا حافز أساسي في إيمان العديد من كبار العلماء والعباقرة والمفكرين كما أن هذا النوع من التقدم العلمي الخاص بالظواهر الجيولوجية والبيولوجية يعتبر عاملا من عوامل ترسيخ الإيمان وتصحيحه وتقويته وزيادته عن طريق العلم. وقد بسطنا الحديث على علاقة الإيمان بالعلم في بحثنا المكثف الذي نال جائزة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مؤخرا، تحت عنوان «من معجزات القرآن العلمية : مسألة خلق الكون ونهايته في نظر العلم والدين وإشكاليات التوفيق بينهما في هذا المجال» وهو مخطوط ضمن مخطوطات مكتبة الأوقاف بالرباط ونتمنى أن يخرج إلى الوجود ضمن مطبوعات الوزارة...

وقد أشرنا فيه إلى «وحدة الكون» قبل أن يصبح كما هو عليه الآن، وكيف انفصلت واتفقت أجرامه وتباعدت عن بعضها البعض، وكيف بدأت الحياة في الأرض إلى أن وجد الإنسان في آخر المطاف، مع توضيح مسألة التطور والنشوء والارتقاء وإشكاليات ذلك بين العلم والدين، ثم كيف أشار القرآن والعلم الجيولوجي إلى مسألة نهاية الكون وقيام الساعة، وإشكاليات ذلك بينهما، وكل هذا انطلاقا من النصوص القرآنية بهدف ترسيخ الإيمان عن طريق العلم. ويا ما أحوجنا إلى هذا في هذا العصر، عصر العلم والتحديات الإيديولوجية.

4 ـ الإيمان قوة وعزة وكرامة :

عندما يتغلغل الإيمان في النفوس، وتقتنع به العقول، وتتمكن به القلوب، وتحس بحلاوته، ويسري في الدماء والعروق، ويستحوذ على المشاعر والوجدان، فينعكس أثره على مرآة الأقوال والأفعال والمعاملات والسلوك كصفحة ناصعة بيضاء يجلوها نفي الذات والأنانية، وتسودها تقوى الله والخوف منه وإيثار الصالح العام على الصالح الخاص... عندها يتحول الإيمان إلى قوة يستحيل على أية قوة مادية في الأرض أن تقف في وجهه، أو يصده عن هدفه، أو توقفه عن الوصول إلى مطمحه، أما عندما يتحول الإيمان إلى مجرد شعارات شكلية سطحية، مظهرها غير مخبرها، ومرآها غير باطنها فارغة المحتوى والجوهر، حيث لم تنبعث من العقول، ولم تنبع من القلوب اعتقادا وتصديقا وإخلاصا ـ فإن أية قوة أو عزة تستطيع بسهولة أن تهيمن على هذه العقول والقلوب المؤمنة سطحيا وشكليا... ولنا في التاريخ خير دليل على هذا، حيث يحدثنا تاريخنا الإسلامي كيف أن المؤمنين الأوائل استطاعوا أن يحطموا قوة الكفر والضلال والشرك والجبروت في صدر الإسلام، حتى أصبحوا في وقت وجيز قوة لاتقهر، وعزة لاتنهار، وكرامة لا تهان ولا تذل، ثم كيف اضمحلت تلك القوة والعزة والكرامة عندما انطفأت جذوة الإيمان الصحيح من قلوبهم، يوم اتبع كل منهم هواه، وتحكمت فيهم النفوس الأمارة بالسوء...

أجل.. تلك هي حقيقة الإيمان.. إنه يعطي قدر ما يعطي، ويسلب قدر ما يسلب...

فالعزة مع الإيمان **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾**، والذل مع ضعف الإيمان ووجود التفرقة، **﴿فلا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾**، **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...﴾** إن الإيمان الصحيح هو الإيمان الذي يجعل المؤمن الحق لا يخشى إلا الله، ولا يخاف سواه، ولا يسكت أبدا عن الحق وتغيير المنكر، وهذا ما علمه الرسول لأصحابه حتى كانوا لا يخشون في الله لومة لائم.. فإذا هم أعزة، وغيرهم أذلة، ولما تخلوا عن قوة الإيمان انعكست الآية!!! **﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾** فنحن الآن، لنا قوتنا المادية البشرية منها

والاقتصادية والطبيعية والسياسية والإيديولوجية الفكرية المعاصرة، ولكن القوة المادية وحدها دون قوة العقيدة الروحية والمعنوية لا تمكننا من استعادة عزتنا، واسترجاع كرامتنا، وتجديد وحدتنا، وجمع شملنا، لأن روح العقيدة المتمثل في الإيمان بمفهومه الشامل هو الأساس الأول الذي ينقصنا وما دمنا لم نستعد هذا الأساس الروحي الإيماني قصد التحكم في هوانا ونفوسنا، فإننا نبقى دائما هكذا بين أخذ ورد نتطاحن ونتحارب ونتقاتل ونتجادل ونتخاصم فيما بيننا وغيرنا هو المستفيد... فلنحاول إذن تجديد أحوالنا بتجديد إيماننا قلبا وقالبا، قولا وفعلا وإخلاصا وتصديقا، وبعدها نستطيع بتوفيق من الله جمع وحدتنا، وبالتالي مواجهة خصومنا أعداء الوحدة العربية وأعداء التوحيد وأعداء الإنسانية في كل مكان...

نعم... إن صلاح أمرنا لا يتأتى إلا بهذا. وصدق رسول الله إذ يقول : «لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أوله...».

5 - الإيمان علاج لأمراض العصر :

إن ما قلناه آنفا يتعلق بصفة خاصة بأحوال المسلمين عامة، أما ما سنذكر به في هذه النقطة الأخيرة فيتعلق بالإنسانية كافة، لأن الخطر الناجم عن انعدام الإيمان خطر يداهم الجميع كما سنلاحظ... ذلك أن الإنسان بقدر ما يزداد تقدما وتطورا في الميدان العلمي والتكنولوجي والحضاري والمادي عموما، بقدر ما يزداد قلقه، وتكثر همومه ومشاكله وأمراضه النفسية والاجتماعية بسبب انعدام السكينة النفسية، والطمأنينة القلبية نتيجة ضعف الوازع الروحي أو انعدامه كليا والمتمثل في «الإيمان»... الإيمان بمفهومه العميق الصحيح الشامل لكل أمور الحياة كما أوضحنا في شعبه ومعانيه العامة...

إن إنسان العصر مريض، ومرضه ناتج عن فقدانه لشيء يكاد هو نفسه يجهله، فإذا مثله كمثل من يبحث عن شيء ولا يدري ما هو ذلك الشيء، ولكنه فقط متأكد من أنه ينقصه شيء هام نغص عليه حياته، حيث رأى أن «المادة» التي كان يعتبرها خطئا هي الغاية»، لم تستطع أن تحقق له السعادة بمفهومها النسبي أو الكامل رغم وجودها، وبالتالي أصبح إنسان العصر فاقدا للذة الحياة وطعمها وروحها فإذا هو يعيش في قلق وانفعال وعصبية وتوتر باحثا عن السر... سر «اكسير الحياة» الذي يعطي لها معنى ومغزى ولذة وحلاوة وطعما، ولا يكاد يراه وهو أمامه وحوله، وبالتالي نجده مريضا باليأس ورتابة الحياة لدرجة أن إنسان العصر هذا لا يتورع عن تناول أي شيء من المخدرات أو المهدئات أو المثيرات أو المنومات حتى يتهرب من واقعه المر ولو مؤقتا، إلا أن هذا لا يراه حلا نهائيا لدائه العضال، فيقدم أحيانا على الهوس والإجرام والانتحار ليتخلص من أمراض العصر والحضارة المتمثلة في فقدان السعادة الباطنية النفسية الداخلية، وقد تفطن العلم الحديث لتفاحش وتفاقم هذا الداء، وحاول أن يجد له علاجا، فظهر علم النفس الاجتماعي السوسيولوجي، وعلم الجريمة والعقاب من الوجهة التحليلية والعلاجية والنفسية لا من الوجهة العقابية القانونية المعروفة فكانت هناك محاولات أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها مجرد آراء ونظريات واختراعات لأنواع متعددة من العقاقير الخاصة بالأعصاب، والتي لا يمكن اعتبارها علاجا لأمراض إنسان العصر النفسية والعصبية، مادام العلم عاجزا عن استئصال الداء كليا أو جزئيا... داء انعدام اللذة بالسعادة، وانعدام طعم الحياة...

ويستنتج من هذا أن «المادة» وحدها لا يمكن أن تحقق للإنسان السعادة التي يحلم بها، مادام أن السعادة في نظره هي المادة وهي الغاية؛ وبالتالي يبقى مريضا نفسيا واجتماعيا لافتقاده الطمأنينة والسكينة وراحة البال والاستقرار الباطني، تلك السكينة التي سوف لا يجدها ولا يحس بها ولا يتذوق طعمها وحلاوتها إلا بوجود «الإيمان» في قلبه...

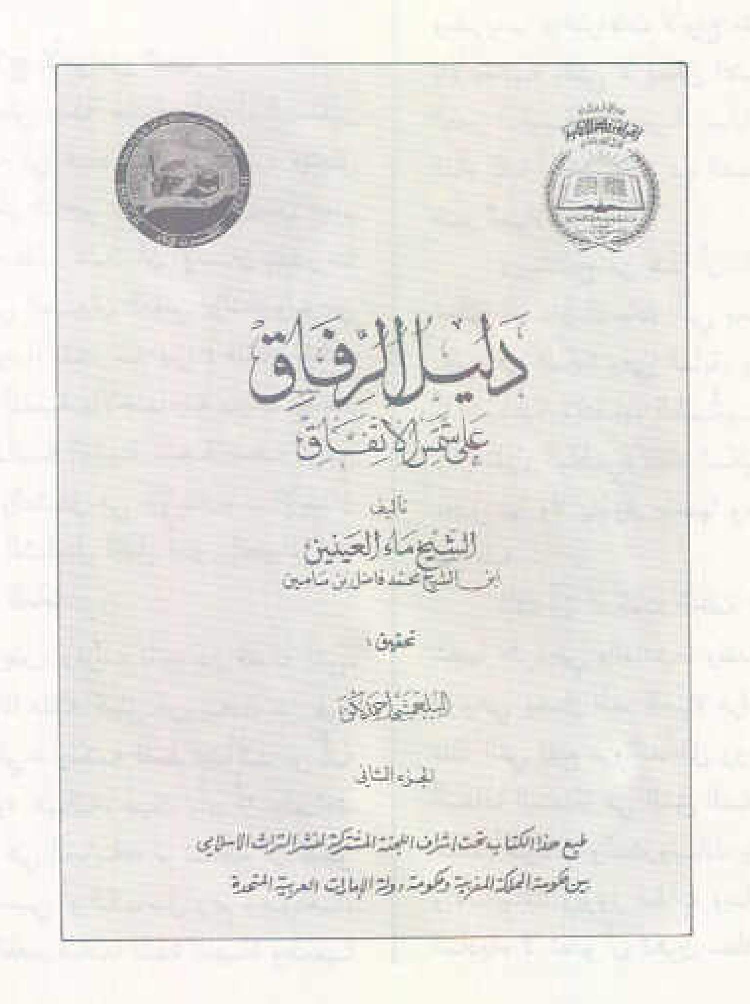
ذلك أن السعادة الحقة لا تتم ولا تتواجد إلا بوجود شقيها «الروحي والمادي»، وفقدان أحد الشقين وخاصة الشق الروحي يجعل طعم الحياة مرا، لأن السعادة الحقيقية هي تلك التي تنبع من الداخل روحيا ونفسيا وطمأنينة، أما السعادة المتمثلة في الشق المادي والتي تأتي من الخارج كالمأكولات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات والأنانيات وبروز الذات وماشابه ذلك من المكاسب المادية، لا تعدو أن تكون سعادة شكلية سطحية زائفة مادام

ينقصها الجانب الروحي المعنوي المعبر عنه عموما بالإيمان...

وفقدان الجانب الروحي هذا، أو ضعفه أو الاستهتار به بسبب التهافت المادي تحت شعار التقدمية والعلمانية ـ هو الحلقة المفقودة التي يبحث عنها الإنسان لإعادة طعم الحياة، واسترجاع الإحساس والطمأنينة والسكينة وراحة البال واستقرار النفس باطنيا، وبالتالي استرجاع الشعور بالسعادة الحقيقية بشقيها الروحي والمادي...

وحديثنا هذا الرامي إلى ضرورة وجود الجانب الروحي المتمثل في الإيمان لإعطاء الحياة معناها ـ هو حديث لا ينبغي أن يفهم في إطار الفكر الرجعي، أو العقل المتزمت كما قد يتبادر إلى أذهان البعض، ذلك أن مفهوم الجانب الروحي الذي أشرنا إليه، والذي نرى أن وجوده يتقلص تدريجيا تحت هيمنة الجانب المادي ـ هو مفهوم لا ينبغي أن يحصر في بعض المدلولات الروحية الضيقة الخانقة والمنغلقة التي تظهر في معالم التزمت والدروشة والمسكنة والرهبنة وما شابه ذلك من المفاهيم القصيرة النظر الداعية إلى التواكل والاستسلام وتعطيل الأخذ بالأسباب أو الاحتجاج بالقدر... بل إن الجانب الروحي الذي نتحدث عنه معناه «الإيمان» الإيمان بمفهومه الشامل والعميق كما أوضحناه أعلاه. الإيمان الشرعي النقلي والعقلي الذي يساير الفطرة والغريزة والتقدم والعلم والتفتح ومسايرة الواقع الحضاري المعاش، وبهذا المفهوم الحقيقي لكلمة الإيمان يستطيع إنسان العصر أن يتخلص من مرضه، فيحس بطعم الحياة، ولذتها فتخف همومه، وتقل مشاكله وبالتالي يعيش في سلام مع نفسه ومع غيره.

أحمد بودهان



حضارة تموت

للأستاذ أحمد تسوكي

يعتقد بعض نقاد الحضارة الغربية الحديثة، وهم صفوة من المفكرين، لا يشك المرء في نزاهتهم الأخلاقية والعقلية، أن المأزق الخطير لحضارة الغرب، لا يمكن فهمه على أنه ناتج عطب طارئ في آلية التفكير البشري، قابل للإصلاح والتقويم، وبالتالي فإن هذا المأزق، والقول لا يزال لهؤلاء النقاد، لا يعتبر، كما هو وارد في أذهان البعض، بداية أولى لعصر مجيد يبشر بالهيمنة الكاملة للإنسان على الكون، كما يقول أنصار الحضارة الغربية المادية.

أما نقاد هذه الحضارة، فيذهبون في نقدهم المرير لها إلى حد القول بأن واقعها الحالي يضاف إليه الإمكانيات الواسعة لتقدمها على أوسع نطاق، ما وهو إلا نهاية لحضارة لن يكون مقدرا لها أن تعيش عصرا أفضل من هذا الذي تعيشه الآن، والذي تحقق لها فيه من الانجازات العلمية والمادية، ما لم تحلم به وتطمع فيه الحضارات الأخرى، ويمكن الإشارة فقط للتدليل على نجاح حضارة الغرب الحالية في ميدانها، أن الإنسان أصبحت لديه قدرة لتدليل على نجاح حضارة الغرب الحالية في ميدانها، أن الإنسان أصبحت لديه قدرة أكبر على إخضاع الأشياء لمصلحته ولفائدة أفكاره ومطامحه الآلية إخضاعا ماديا، يخدم فحسب الحس الحيواني في الإنسان.

ويؤمن هؤلاء النقاد، بأن قدرة الحضارة الحالية على الحوار، قدرة محدودة، إن لم تكن في الواقع قدرة على حوار أخرس، لا فائدة منه، فحوار الحضارة التكنولوجية، قد وصل إلى مرحلة من اليأس، لا يمكن معه الإحساس بأي بصيص من الأمل الحقيقي في مقدرة هذه الحضارة على إنقاذ الإنسان من أزماته أولا، وعلى إنقاذ نفسها من المآل الخائب الذي يتهددها ثانيا.

صحيح أن التكنولوجيا، حملت إلى الإنسان قيما جديدة في الحياة اليومية، ولكنها بالمقابل، لم تتمكن من إيجاد أو تطوير إيمان إنساني حقيقي بهذه الحياة، وبإمكانيات العيش والتعايش فيها، كما كان شأن الحضارات الأخرى. وكما هو ثابت في تاريخ الحضارات، فإن العبرة ليست في الوسائل ووفرتها، ولكنها في الأهداف التي يجب على هذه الوسائل أن تنجزها لفائدة ما هو فقط منتم إلى أصولية الإنسان وجوهريته المستمرة، أي إلى العقل الراجح، والضمير المتيقظ، والروح الخلاقة، والوجدان الرقيق والوعي الأخلاقي، والفضيلة الإنسانية التي يكون منبعها الحكمة.

وبصرف النظر عن الهالات التي أضفتها الانجازات التكنولوجية على مظاهر الحياة، وعلى وسائلها وأدواتها وآلاتها، وهي هالات خالية من المعنى ومفرغة من روح الأصالة الإنسانية، فإن الأثر الروحي لكل تقدم حققته التكنولوجية، هو أثر ضئيل جدا، بل وفي جل المستويات الإنسانية، ينعدم هذا الأثر ولا يرى له وجود البتة.

وقد يكون من المقبول، بأن التكنولوجية يمكن لها مستقبلا أن تقضي نهائيا على إيمان الإنسان بالقيم والفضائل التي توارثتها الأجيال عبر الحضارات البشرية، وفي الوقت

الراهن فإن التكنولوجيا، كما هو ملموس ومشاهد، تقوم بتقليل دور الإيمان أو بتحويل طاقاته إلى وجهة أخرى، كما تقوم في مجتمعات متقدمة تكنولوجيا، بخلق قيم جديدة، تبدو اجتماعية أكثر منها إنسانية، أي نفعية أكثر مما هي وجدانية.

ومن المشكوك فيه، حسب ما هو ملاحظ أن تتمكن التكنولوجيا بسرعة، من الحاق تغيير عميق في الأسلوب الذي ينظر ويعالج به الإنسان الأهمية التي للقيم الثابتة وأن التغير الذي قد يطرأ على هذا المستوى، سيمس طريقة التصور الإنساني دون أن ينال من هذا التصور ذاته، وفي هذا، أمل في أن يبقى الإيمان البشري بالقيم أقوى من كل العوامل الآلية والغيرات التي يحدثها التقدم المادي البحت.

إن قيما راسخة، ولا أقول تقليدية، مثل الدين، والحب، والصداقة، والعمل والتضحية، والتربية والحس والذوق الجمالي، والعادة، والسعي إلى المعرفة، إن قيما مثل هذه لن تسقط بسهولة تحت معاول الهدم التكنولوجي، غير أن طريقة النظر إليها، وكذلك طريقة تقديرها وإيلاء الاعتبار الذاتي لها سوف تتغيران بعض التغير، وهو ما يسود فعلا خلال الفترات الانتقالية لجميع الحضارات، حيث تتبدل النظرة الإنسانية إلى القيم وأهميتها في الحياة، دون أن تفقد هذه القيم نفسها دورها الحيوي للإنسان.

وحيال الحضارة الغربية المعاصرة، فإن أحدا لا يخطئ الإيمان الهش والضحل للإنسان بالقيم في مجتمع تكنولوجي، وسواء كانت هذه القيم روحية أو اجتماعية أو ثقافية أو عقلية، فإن الإيمان بها هو إيمان نفعي، ذو أساس مادي، انتفاعي، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

وفي مجتمعات تكنولوجية عديدة، لا تشتهر اليوم سوى قصص الجنس والمغامرة والتحدي والبطولة والشجاعة والمقاومة الشخصية من أجل هدف مرتبط بالحياة الذاتية فقط، بينما تنعدم في هذه المجتمعات، قصص الحب والنبل والفضيلة والطهارة النفسية، وقصص الدفاع عن مثل عليا مثل الوطن والحقيقة والمعرفة والعدالة والحرية...

وهذا يؤكد ما قلناه من أن حضارة التكنولوجيا لن تثبت قيما جديدة ولن تستطيع أن تأتي بقيم أخرى، ولكنها ستغير لدى الإنسان فهمه للقيم التي كان أجداده يتمسكون بها كما هي، أو معدلة بشكل مكيف مع حاجياتهم ومطالبهم التي يفرضها التطور.

إن العديد من كتاب العصر ونقاد حضارته الذين أنحوا بالأئمة اللاذعة وبالتهكم المرير على الطابع الأجوف والعبثي واللا إنساني لحضارة الغرب، قد اكتشفوا أن التطور التكنولوجي لن يفضي إلى مآل حسن لهذه الحضارة وللغرب التي أوجدها واندفع فيها إلى أوجها، وهم يرون، أنه لكي يسلم المجتمع البشري كله من كارثة «حضارية» محققة سببها التكنولوجيا وتطوراتها، إما أن تعود الثورة التكنولوجية إلى الوراء، وهذا غير ممكن، وإما أن يتزود الغرب قبل فوات الأوان بقدرة روحية يستمدها من الدين القوي الذي يملك التوجيه الفعال لحياة الإنسان.

وفيما يعتبر البعض من هؤلاء، أن القيم التكنولوجية السائدة قد أصبحت بالية وغير ذات شأن في إخصاب فكر الإنسان وتجديد طاقاته الروحية، يعتبر البعض الآخر هذا الأمر مجرد تحول في الإيمان بالقيم، يمكن أن يوجد الأمل في حياة إنسانية خالية من الشقاء والتصادم والقلق والبؤس الروحي الذي تشيعه اليوم حضارة التكنولوجيا، دون أن تعوض الإنسان، وقد سلبته أرع وأجمل وأنبل قيمه، عن هذه الخسارات الجسيمة.

إن نقد الحضارة الغربية، على وجه شنيع يفضح تهافتها وأفلاسها، لم يترافق في الحقيقة مع الانقلاب التكنولوجي الذي يشهد عصرنا إفراطا شديدا فيه، ولكنه ولد وظهر قبله بسنوات كثيرة، تبلور فيها النقد اللاذع لحضارة الغرب على يد الكتاب والفلاسفة والمفكرين والعلماء، كما تبلورت خلالها السخرية العميقة منها على يد الشعراء والفنانين وكتاب المسرح وسواهم.

فمنذ نيتشه الألماني، وكيركيغارد الدانماركي، مرورا بفرويد وسارتر وداروين وماركس وهيرمان هيس، وبرنارد شو، وكارل ياسبرز، وهمنغواي، وكولن ويلسون، وصمويل بيكيت، وأوزوالد شبنغلر، ونقولا برديائيف، وبرتراندروسل، وأريك فروم، وأوبنهايمر، وأرنولد توينبي، والكسيس كاريل، وتوماس مان، وجوليان والدوس هكسلي، وأورتيغا أي غاسيه، وانتهاء برجاء غارودي (لم ألتزم في ذكر الأسماء بالترتيب التاريخي...) على يد هؤلاء تتهدم فلسفة الحضارة

الغربية وتتهاوى، ورغم تعلقها بالعلم، الذي بدأ لها كمخلص جديد لمأساتها فإن العلم ضاعف من شقائها وبؤسها، وزاد من فرط معاناتها، وذلك ما أكدته افتتاحية الدايلي ميل الإنجليزية في عددها لشهر يونيه سنة 1954 بقولها : إذا استمر الإنسان في الانحناء لمعبود العلم، فلن يلبث طويلا حتى يذهب ضحيته).

وفي يوليه 1954، كان كاتب إنجليزي مشهور، هو تشارلز مورغان، يصرخ بأعلى صوته قائلا :

«الحق أن الشر ليس في كوننا علماء عميقي العلم، وإنما هو في أننا، منذ أجيال، نستخدم علمنا لنحصل على مزيد من السلطة والقوة، لا على مزيد من الحكمة والتعقل. إن المجرم هو في الحقيقة، كبرياؤنا وغرورنا».

وحينما كان الفيلسوف الفرنسي زعيم الوجودية، ج. ب سارتر يقول :

«يولد الإنسان دون سبب، ويعيش دون هدف، ويموت صدفة» فقد كان يتحدث عن مادة لا عن إنسان، لقد مات الإنسان عنده وأصبح مجرد مادة تولد وتعيش ثم تموت، مادة ليس لها إحساس بالوجود والكرامة والإيمان والحقيقة...

وإذا تركنا السقطة الوجودية، ورجعنا ثانيا إلى العلم، نجد أحد أقطابه وهو د. هارولد يوري، مكتشف الهيدروجين الثقيل، وأحد الممهدين لظهور القنبلة الذرية، والحائز على جائزة نوبل، نجده يفزع ظاهر : «أكتب لأخيفكم، أنا نفسي خائف، كل العلماء الذين أعرفهم خائفون».

وهكذا على لسان الأقطاب الذين يمثلون حضارة الغرب أحسن تمثيل، تأتي الإدانة لهذه الحضارة ويأتي على لسانهم اتهامها بالعقم والأفلاس، وأن حضارة لا تخلق في الإنسان سوى الإيمان بقيم وأخلاق اليأس والقلق والخوف والكراهية وترقب النهاية، لهي حضارة خليقة بأن تستحق الرثاء والإحساس تجاهها بالمجانية.

إن القانون في كل تحول تمر به الحضارة، هو في إبقاء هذه الحضارة في ذاتها، على قدرة كافية من التجدد، تورثها للحضارة التي ستعقبها، أي أننا نجد في انتقال الحضارات وحوارها، دون اعتبار لعامل المكان، أن كل حضارة تترك لما بعدها خير ما فيها من قيم ومثل وتقاليد، تقوم هذه الأخيرة بتطويرها عن طريق التمثل الصحيح لها، فإذا بحثنا عن هذا القاون فيحضارة التكنولوجيا فلن نجد عندها سوى القليل جدا من القيم والتقاليد التي ستنتقل منها إلى الحضارة التي بعدها، وهذا القليل جدا، يمكن عزوه في الواقع، إلى حضارات أخرى غابرة.

ومن هنا، قد يمكن القول بأن خير ما أعطته وأنجبته حضارة الغرب في مرحلتيها الصناعية والتكنولوجية، يمكن في ذلك الرعيل من المفكرين والفلاسفة والحكماء الذين كان يأتي الواحد منهم تلو الآخر ليوجه لهذه الحضارة أقسى الضربات وأعنفها في نقدها والسخرية من معناها الأجوف الذي جعل الإنسان المؤمن بها يعيش حالما في سعادة واهمة.

كذلك يمكن القول، بأن في سلسلة الحضارات البشرية التي تعاقبت على الأرض، لم يسبق لأية حضارة منها أن ووجهت بالانتقادات المرة، والسخريات اللاذعة منها وبالكلمات القاسية والعنيفة والشديدة الوقع التي تبشر الحضارة بالنهاية والزوال، مثل ما حدث لحضارة الغرب، منذ نشأتها حتى اليوم، بل إن الإنتقاد ليزداد والسخرية منها تكثر.

وهاهو الغرب نفسه، يتضجر من حضارته، بل ويعلن تنكره لقيمها ولكل ما أوجدته الانجازات والتطورات التكنولوجية من أفكار وسلوكيات أبعدت الإنسان عن روحانيته وأفقدته إنسانيته، وجعلته ريشة في مهب الريح، يشعر بالوحدة والفراغ، ويعيش في العزلة والقلق، ويعاني من الكآبة وفقدان الإيمان بقيم أصيلة وحقيقية وذات نفس وبعد جوهري في الحياة، وفي التطور وفي التقدم على ظهر هذا الكوكب الذي جعل الله سبحانه الإنسان فيه خلائف ليعمر الأرض بالخير والسلام والعمل البناء.



الفلسفة الأخلاقية عند العقاد جوهر العقيدة الدينية، والدين قد يصبح فلسفة، إذا حاول العقل الإنساني، أن يبرر ويعلل مبادئه من الوجهة النظرية العقلية، فليست الفلسفة إلا التعليل العقلي للموجود. فإذا علل الموجود من مبادئ الدين، فقد دخلت هذه المبادئ في نطاق العمل الفلسفي والدين إذا أصبح فلسفة أرضى رجال العقل والفلسفة... ومع أنه يمكن أن يصبح فلسفة، فإنه لا يتحول إلى فلسفة كتلك التي أنشأها الإنسان بصنعته العقلية بادئ ذي بدء... بل تبقى لفلسفة الدين خصائص الدين أو طابعه العام... (1).

وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى : **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾** (2) فالأخلاق والسلوك الحسن، جوهر العقيدة وروحها، ويشير القرآن إلى أن النبي نفسه يمثل المثل الأعلى، والنموذج الأرفع في الأخلاق، إذ كان النبي عليه السلام قد عرف بالأمانة، والصدق، والرأفة، والسماحة، والعفة، والصبر، والحزم، والحلم، والعفو، والإحسان، والمحاسبة. وهذه كلها جماع الصفات المحمدية (3) وهي أيضا مثال الكمال الذي يطلبه لنفسه من يزع نفسه، ويختار لها أحسن الخيرة (4).

فالإسلام وحدة متماسكة مترابطة لا تتجزأ، هو عقيدة وعبادة ومعاملات وحقوق وأخلاق.والإنسان، روح وجسد، يعمل لدينه ودنياه معا، والتناسق ظاهرة عجيبة في الإسلام في مجموعه كله، عقائده وتشريعاته وأخلاقه (5) يقول العقاد : يلمس هذا التناسق من تأمل فيه، وألقى عليه في مجموعه نظرة عامة بين عقائده وعباداته، وبين ما يشرعه من المعاملات والحقوق، ويحمده من الأخلاق والآداب... هناك وحدة تامة أو بنية واحدة، يجمعها ما يجمع البنية الحية من تجاوب الوظائف وتناسق الجوارح والأعضاء (6).

ويروع الباحث في الإسلام ذلك التناسق بين عقائده وأحكامه، أو بين عقائده وأخلاقه. ولعل هذا التناسق - كما يقول فيلسوفنا العقاد - أظهر ما يكون بين الأخلاق المتعددة التي حمدها الدين من المسلم، وهي متفرقات

1) الدكتور محمد البهي (الدين والحضارة الإنسانية) ص 81 كتاب الهلال 1383 هـ.
2) سورة القلم، الآية رقم 4.
3) الدكتور عبد الفتاح الديدي «الفلسفة الاجتماعية عند العقاد» ص ١١٧ ط الانجلو.
4) العقاد «المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد» المجلد 7 ص 28 ط دار الكتاب اللبناني.
5) الأستاذ حمد بن نايف الشمري «العقاد وتراثه الإسلامي» ص 286، ط التقدم.
6) العقاد «المجموعة الكاملة» المجلد 5 ص 256 ط دار الكتاب اللبناني.

تجمعها وحدة لا تستوعبها وحدتها الإسلامية، فهي في جملة وصفها : «أخلاق إسلامية وكفى» (7).

ويناقش العقاد في كتابه «الفلسفة القرآنية» تحت عنوان «الأخلاق في القرآن» آراء القائلين بتعليل نشأة الأخلاق رأيا رأيا... يقول العقاد : «قيل في تعليل نشأة الأخلاق : إنها مصلحة اجتماعية تتمثل في عادات الأفراد لتيسير العلاقات بينهم، وهم متعاونون في جماعة واحدة... فلو انطلق كل فرد في إرضاء نزعاته، وتحقيق منافعه دون غيره، لتعذر قيام الجماعة، وانتهى الأمر بفوات المصلحة الفردية نفسها، لتعرض كل فرد لعدوان الآخرين وعجزه عن تدبير منافعه كلها، وهي تتوقف على أعمال كثيرة موزعة بين الأفراد الكثيرين على اختلاف الصناعات... ومن هنا وجب على كل فرد أن ينزل عن بعض نفعه، ويعدل عن بعض هواه، لكي يضمن بهذا النزول المختار أكبر قسط مستطاع من الحرية والأمان وليس من اللازم أن يتم هذا النزول المختار بالتفاهم والتشاور، أو عن علم سابق بالنتيجة التي يصل إليها المجتمع بعد هذا النزول الإجماعي الذي يشترك فيه جميع الأفراد، ولكنه يتم اضطرارا بعد المحاولة والتجربة وتصحيح الأخطاء بالعبرة والعقاب.

وأيا كان مذهب القائلين في تعليل الأخلاق، فمما لا مشاحة عليه أن الأخلاق مصلحة اجتماعية، وأن الجماعات تختلف بينها في العادات وأصول العرف على حسب اختلافها في أحوال الاجتماع (8).

وفلسفة العقاد لا تقف عند هذا الحد من البيان والتقرير، بل تأخذ بك إلى قمة التفكير، فتقول «لكنك خليق أن تسأل» إذا تعادل خلقان في النفع الاجتماعي ألا يوجد هناك مقياس نرجع إليه في تفضيل أحدهما على الآخر ؟

أليس لحاسة الجمال أو لنزوع الإنسان إلى الكمال شأن في تفضيل بعض الأخلاق على بعض، أو في تمييز بعضها بالاستحسان والإيثار وبعضها بالمقت والاستنكار ؟

إن الوجوه كلها نافعة، بما فيها من الحواس التي تؤدي وظائف الحياة ولكننا نرى وجها واحدا من بينها يعلو بروعة الحسن على ألوف الوجوه ويفدي بألوف الوجوه، ولعله من جانب المنفعة التي تستفيدها وظائف الجسم أقل من تلك الوجوه في بعض المزايا، وأحوج منها إلى العلاج والتصحيح.

فهل يدخل اعتبار الجمال إلى جانب المنفعة في وصف الجسد الإنساني ولا يحسب له اعتبار في خصائص النفس أو خصائص المزاج ؟

وهل نعتبر كل إعجاب بخلق من الأخلاق ميزانا حسابيا للمنفعة والخسارة وتقديرا تجاريا لصفقة من الصفقات ؟

وهل يروعنا كل خلق بمقدار ما ينفعنا ؟ سواء نظرنا إلى المنفعة المعلومة المحسوبة، أو نظرنا إلى المنفعة التي تتحقق على طول الزمن في أطوار الاجتماع ؟ لابد أن يخطر على البال أن «لحاسة الجمال» شأنا هنا كشأنها في الإعجاب بمحاسن ـ الأجسام، بل كشأنها في الإعجاب بمحاسن الجماد أيا كان القول في أصل الشعور بالجمال (9).

والشيء الجميل هو الذي يريح نفس الإنسان، ويجعلُ النظر إليه محببا ويبعث على التأمل والإدراك، وإدراك الجمال لموضوع «ما» معناه : التأمل بعمق فيه، وإدراك ما فيه من اتساق وانسجام ويبصر الإنسان فيه معنى من المعاني التي ارتبطت بينه وبين نفسه. وفي هذا إدراك لحقيقة الجمال (10).

وإذا كان فيلسوفنا العقاد قد ناقش القول في تعليل نشأة الأخلاق ـ «بأنها مصلحة اجتماعية» ووصل بفلسفته إلى أن لحاسة الجمال أو لنزوع الإنسان إلى الكمال شأن في تفضيل بعض الأخلاق على بعض، في حالة ما إذا تعادل خلقان في النفع الاجتماعي... فإنه بعد أن قرر هذا المقياس ووضعه علامة مضيئة في الطريق، انتقل إلى مناقشة من يقول في تعليل نشأة الأخلاق : إنها ترجع إلى مصدرين في كل جماعة بشرية لا إلى مصدر واحد. وإنها

7) العقاد، المصدر السابق ص 258.

8) العقاد (الفلسفة القرآنية) ص 30 ط دار الكتاب اللبناني.

9) العقاد، المصدر السابق ص 31.

10) الأستاذ علي القاضي «جوهر الإسلام» ص 64 ط تونس 1396 هـ.

ترجع إلى مصلحتين لا إلى مصلحة واحدة وقد تكون إحداهما على نقيض الأخرى، فيما تمليه، وفيما تستمليه» قيل إنها ترجع في ناحية منها إلى مصلحة السادة، وترجع في ناحية أخرى إلى مصلحة العبيد، وقد يقولون أخلاق الأقوياء والضعفاء بدلا من أخلاق السادة والعبيد.

والمرجع أن التفرقة بين أخلاق الكرام الأحرار، وبين أخلاق اللئام الهجناء ملحوظ فيها هذا المعنى في اللغة العربية بين العرب الأقدمين فكانوا يفهمون من وصف الأخلاق بالكريمة أنها أخلاق السادة الأحرار ومن وصفها باللئيمة أنها أخلاق قوم ليست لهم أعراق، وليس لهم خلاق.

وأحدث القائلين بهذه التفرقة بين المفكرين من الأوروبيين «فردريك نيتشه» المعروف بمذهبه المشهور عن «إرادة القوة» التي يعارض بها الاكتفاء بمجرد إرادة الحياة، وهي قوام أخلاق الضعفاء ممن لا مطمع لهم فيما وراء عيش الكفاف أو عيش الأمان (11) ولكن ما هي الأخلاق القوية ؟ هل هي أن يفعل القوي ما يشاء، لأنه قادر على أن يفعله، ولأن الضعيف عاجز عن صده، والوقوف في سبيله» (12).

والقائلون بأنها أخلاق قوة، يقولون : إن الأخلاق كلها ترجع إلى القوة فلا يرحم إلا القوي، ولا يملك العطاء إلا القوي، ولا يعفو إلا القوي، وهكذا (13).

وهل كل ما يفعله الأقوياء خلق حميد محبوب ؟

ويضيف فيلسوفنا قائلا : وإذا قلنا إن أخلاق القوة، هي أخلاق القوي أمام الضعفاء، فما هي أخلاق القوي أمام القوي مثله ؟ وما هو الضابط الذي يجعل للقوي عملا يليق به، وعملا آخر لا يليق ؟

قديما فسر «هوبز الفيلسوف الإنجليزي» كل خلق حميد بأنه قوة أو دليل على قوة «فالصبر قوة لأن الضعيف يجزع، ولا يقوى على الصبر والاحتمال... والكرم قوة لأن الكريم يثق من قدرته على البذل ويعطي من هو محتاج إلى عطائه، وهو ضعيف، والشجاعة قوة لأنها ترفض الجبن والاستخذاء، والعدل قوة، لأنه غلبة الإنسان العادل على نوازع طمعه ودوافع هواه» والعفة قوة، لأنها تقاوم الشهوة والإغراء، والحلم قوة، لأنه مزيج من الصبر والثقة، وقد ينطوي على شيء من الترفع والاستخفاف بالمسيء... والرحمة قوة، لأنها إنقاذ لمن يستحق الرحمة من المرضى أو العجزة أو الصغار الموكولين إلى رعاية الكبار... وقس على ذلك كل خلق حميد تفسره على هذا النحو من التفسير (14).

فالناس على زعم هؤلاء المفسرين يحمدون الرحمة، لأنهم يحمدون القوة، ويرون في الرحمة دليلا على قوة الرحيم، لأنه يتفضل بها على الضعيف ويترفع بها عن معاملته كما يعامل الأنداد والنظراء...

والناس يحمدون العفو لأن الذي يعفو عن المسيء إليه يعتد بقوته ويأمنه إن وفى له بالشكر أو غدر به على السواء.

وهم يحمدون الكرم لأنه عطاء، ولا يملك ما يفضل من حاجته ويجود به على المفتقر إليه غير الأقوياء.

وهم يحمدون الصبر، لأن القوي جليد يتماسك لصدمة المصاب ولا يتضعضع تحت وقره الثقيل، فهو يصبر على بلائه لأنه قوي يحتمل منه ما لا يحتمله الضعيف، ولا يكون القوي جزوعا وإن عظم عليه المصاب...

وهم يحمدون الدهاء، لأنه قوة في العقل يتمكن بها صاحب العقل القوي من تسخير الأقوياء بالأجسام... ويحمدون الذكاء، والحذق، والمعرفة والبراعة في صناعة من الصناعات، لأنها علامة من علامات القوة على نحو من الأنحاء.

وهذه الفضائل أو المزايا تفيد أصحابها قوة، كما تنم فيهم عن القوة التي تصدر عنها، فهي محمودة لما تدل عليه، ولما تؤدي إليه... أما العظمة، والمجد، والشجاعة، فلا حاجة بها إلى تفسير عند من يرجعون بالأخلاق جميعا إلى القوة على هذا الأسلوب، لأنها ظاهرة بقوتها معترف بسبب

---

11) العقاد «المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد» المجلد 7 ص 32، ط دار الكتاب اللبناني.

12) العقاد «الفلسفة القرآنية» ص 32 ط دار الكتاب اللبناني.

13) الأستاذ حمد بن نايف الشمري «العقاد وتراثه الإسلامي» ص 287 دار التقدم.

14) العقاد «الفلسفة القرآنية» ص 33 ط دار الكتاب اللبناني.

الإعجاب بها بين الأقوياء أو الضعفاء (15).

والقوي تحمد منه أعمال، ولا تحمد منه أعمال، وأيا كان الظن بصواب هذا الفحوى أو هذا التفسير، فليس في وسع أحد أن يقول : إن القوي يفعل ما يشاء، ويندفع مع قوته كما يشاء، وإن كل ما يفعله، وكل ما يندفع إليه حميد جميل (16).

فما هو الضابط إذن للأخلاق القوية ؟... أهو الاستطاعة ؟ أكل ما يستطيعه القوي حميد، وكل ما لا يستطيعه ذميم ؟ أن معنى هذا إبطال مذهب القوة من أساسه، والرجوع إلى العجز وقلة الاستطاعة في خاتمة المطاف...

ولماذا يشاء القوي أمرا، ولا يشاء أمرا آخر ؟ ألأنه يشاء ما يليق ؟ أو يشاء ما يقدر عليه، أو يشاء بلا ضابط من القدرة واللياقة ؟... كل ذلك لا تفسره كلمة «القوة» وحدها، ولا تغني فيه عن تفسير يقترن بالقوة ويميز لنا ماهو جميل من أعمالها، وما هو شائن قبيح (17).

وبعد أن يناقش العقاد مذهب القوة، بالعقل الحكيم، والمنطق السليم يفتش عن مذهب المنفعة في الأخلاق، ليضعه أمام الوعي والفلسفة الصحيحة ولهذا نراه يقول : ونعود إلى مذهب المنفعة في الأخلاق فنسأل : هل نرتضي أخلاق الجزع أو أخلاق الغدر، أو أخلاق المشاكسة، ولو لم يكن لها علاقة بمصالح الاجتماع ؟

أليس في رؤية الرجل الجزوع قبح تنفر منه النفس، ولو كانت فيه سلامة صاحبه، ولو لم يكن للخلق في ذاته علاقة بالفضائل الاجتماعية ؟

أليس لنا مقياس آخر، غير مقياس المنفعة الاجتماعية أو مقياس التفرقة بين الأقوياء والضعفاء (18) ؟

وبعد أن يترك الباحث يتلمس هذا المقياس بكل أنواع الدلالات يعلن وجود هذا المقياس : «بلى... هناك مقياس لابد من الرجوع إليه في جميع هذه الأحوال، وهو : «صحة النفس وصحة الجسد على السواء» فالنفس الصحيحة تصدر عنها أخلاق صحيحة، والجسد الصحيح يصدر عنه عمل صحيح... أيا كان أثر الأخلاق والأعمال في حياة الجماعة، أو حياة الأفراد.

إن القوي الذي يفعل ما يشاء ليس بصحيح، لأن النفس الصحيحة لا تنطلق كما تنطلق الآلة التي تملؤها قوة البخار، أو قوة الكهرباء فتصدم وتهشم، - وتخبط خبط عشواء حيث تحملها القوة العمياء... لا صحة بغير ضابط أيا كان حكم الاجتماع ومطلب الاجتماع... وكل ضابط معناه : «القدرة على الامتناع، ورد النفس عن بعض ما تشاء «وليس معناه القدرة على العمل فحسب، ولا المضي في كل ما تشاء » (19) ويبدو علينا أن نترك قليلا هذا الضابط الأخلاقي والذي معناه : «القدرة على الامتناع، ورد النفس عن بعض ما تشاء» حتى نعود إليه مرة أخرى بعد أن نعرض بعض المذاهب الأخلاقية وموقف الإسلام منها فهل :

الأخلاق هي أخلاق قوة ؟

هل هي أخلاق محبة ؟

هل هي أخلاق قصد واعتدال ؟

هل هي أخلاق اجتماعية ؟

هل هي أخلاق إنسانية ؟

هي كذلك أحيانا، ولكنها ليست كذلك في جميع الأحيان، لأن أخلاق القوة قد تفهم على وجوه متعددة، أو متناقضة، يحمد الإسلام بعضها ولا يحمد بعضها، أو يذمها جميعا إذا فهمت على مذهب فلاسفة القوة في العصر الأخير (20).

وأخلاق القوة في العصر الأخير مقترنة باسم «فردريك نيتشه» رسول «السوبرمان» الذي كاد إيمانه بالسوبرمان أن ينقلب إلى عداوة للإنسان فالسوبرمان لا يرحم ولا يغفر ولا يعرف للضعيف نصيبا من «الإنسان الأعلى» غير نصيب الزراية والإذلال، أو الإبادة والاستئصال، محافظة على - سلامة النوع من عدوى الضعف، وعواقب الإبقاء على الضعفاء، وهم في عرفه أولى بالاجتناب من مرضى الجذام».

---

15) العقاد «المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد «المجلد 5 ص 260، ط دار الكتاب اللبناني.

16) العقاد «الفلسفة القرآنية» ص 33 ط دار الكتاب اللبناني.

17) العقاد «المصدر السابق» ص 33.

18) العقاد «الفلسفة القرآنية» ص 34 ط دار الكتاب اللبناني بيروت.

19) العقاد «المصدر السابق».

20) العقاد «المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد المجلد 5 ص 259 ط دار الكتاب اللبناني.

والأخلاق عنده قسمان : قسم للسادة لا يقبله العبيد، وقسم للعبيد لا يقبله السادة، فليس بين الفريقين جامعة إنسانية تلتقي بهم في صفة من الصفات بل هم أعداء يتسلط منهم القادر على العاجز، ولا يحسن بالمتسلط أن يقبل من العاجز غير الخنوع والهبوط في الذلة من هاوية إلى هاوية، لا نهاية لها غير الانقراض والفناء...

وأخلاق القوة عرفت قبل «نيتشه» بتفسير، لا تفسير فيه عند الحاجة إلى تفسير لأنه يجعل القوة مرادفة للإحسان. ولا ندري منه لماذا يكون هذا الإحسان وتفسير الفيلسوف «هوبز» للقوة من هذا القبيل» (21).

وقبل الرجوع بالأخلاق جميعا إلى القوة على مذهب «هوبز» أو على مذهب نيتشه، كانت المدرسة اليونانية تعتبر الأخلاق الفاضلة وسطا بين طرفين، أو تحث طالب الفضيلة على الاعتدال في جميع الأمور، والاتجاه إلى الحسن من كل خلق، على قدر حظه من الاعتدال...

فالشجاعة وسط بين القهور والجبن، والكرم وسط بين الإسراف والبخل والصبر وسط بين الجموح والجزع، والحلم وسط بين الترقي والبلادة والرحمة وسط بين القسوة والخور... وكل فضيلة على هذا القياس فهي مسألة توسط في المسافة بين غايتين (22).

وفي زماننا هذا يغلب على مدارس الأخلاق أنها تؤول بالفضائل كلها إلى باعث واحد، وهو باعث المصلحة الاجتماعية، أو باعث الغرائز النوعية التي يتصل بها بقاء نوع الإنسان... ومن هذه المدارس ما يحصر المصلحة في الطبقة الغالبة على المجتمع. فلا مصلحة للمجتمع كله في الأخلاق الفاضلة التي يحمدها المجتمع في عهد من العهود... ولكن المصلحة فيها للطبقة المتحكمة فيها بثروتها وسطوتها... فما تراه حسنا فهو الحسن بالنسبة إليها لاستبقاء منافعها... وهي إذن تسوم الطبقات الأخرى أن تستحسنه على المحاكاة والتقليد، وإن لم يكن لها خير فيه (23)...

والإسلام يحمد كثيرا من الأخلاق المحمودة في هذه المذاهب... ولكننا لا نستطيع أن نجمع الأخلاق الإسلامية كافة في نطاق مذهب منها ولا سيما مذهب القوة في فلسفة نيتشه، ومذهب الطبقة الاجتماعية في فلسفة الماديين ولا يخلو كل مذهب من هذه المذاهب من النقص، وعدم الدقة والشمول. وقد لا يخلو من العيوب والاعتراض عليه، فقد يجعلون من الأخلاق ما ليس منها (24).

ومذهب القوة في رأي نيتشه يناقض جميع الأديان الإلهية. ولعله - كما يذكر العقاد - يوافق دينا يعتقد أتباعه أنه دين إله يختارونه ويختارهم، فيستبقيهم، ويمحق غيرهم من العالمين... ولكنه لا يوافق الأديان التي تدعو إلى إله واحد للأقوياء والضعفاء... وقد يكون الأخذ بمذهب القوة في رأي «نيتشه» هدما لهذه الأديان من قواعدها واقتلاعا لها من جذورها إذ لا قيمة للدين مالم ينشئ أمام القوة الطاغية قوة تكبحها وتهذبها، وهي قوة الضمير، ولا رسالة للدين بين البشر إن لم تكن رسالته أن يربى فيهم وازعا للقوة البدنية، وقوة المطامع والشهوات، وقد تعلم الناس دهرا طويلا أن حماية المريض غير حماية المرض، وأن العناية بالمرضى تؤول على الدوام إلى عناية بالصحة، يستفيد منها الأصحاء، كما يستفيد منها المصابون. وليس بالعسير عليهم أن يتعلموا كذلك أن حماية الضعيف غير حماية الضعف، وأن - العناية بالضعفاء تؤول إلى عناية شاملة يستفيد منها الأقوياء والضعفاء (25)...

وتفسير «هوبز» للقوة لا يقرب مذهب القوة كثيرا إلى حقيقة الأخلاق الإسلامية لأن الإسلام لا يحمد من الأخلاق أنها حيلة ملتوية أو مستقيمة إلى طلب القوة. بل يحمد منها في شأن من شئون الإنسان أنها وسيلة إلى طلب الكمال، ويحبب إلى الإنسان أحيانا أن يؤثر الهزيمة مع الكمال على الظفر مع القوة إذا كان الظفر وسيلة من وسائل القوة الباغية التي لا تتورع عن اللجاج بكل

21) العقاد «المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد المجلد 5 ص 259، 260 ط دار الكتاب اللبناني بيروت.

22) العقاد «المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد» م 5 ص 261، ط دار الكتاب اللبناني.

23) العقاد «المرجع السابق».

24) الأستاذ حمد بن نايف الشمري «العقاد وتراثه الإسلامي» ص 288 ط دار التقدم.

25) العقاد «المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاده المجلد 5 ص 261، ط دار الكتاب اللبناني.

سلاح (26)...

ومذهب الفلسفة اليونانية ماهو إلا مقياس لا يصدق على الأخلاق لأن الأخلاق متباينة، وليست درجات، فلا يمكن أن تقول إن الكرم نقص في رذيلة البخل، أو نقص في رذيلة الإسراف، ولا يمكن أن تقول إن زيادة الكرم إسراف وإنما هو كرم كبير، ولا تقول إن السرف إذا أنقص أصبح كرما فالأخلاق متباينة فلا يكون الكرم أبدا درجة من درجات السرف ولا البخل درجة من درجات الكرم وهكذا (27)...

يقول فيلسوفنا العقاد : «ومذهب الفلسفة اليونانية ينتهي بنا إلى مقياس للأخلاق شبيه بمقاييس الهندسة والحساب، بعيدا عن تقدير العوامل النفسية والقيم الروحية في الأخلاق العليا على التخصيص، وقد تصدق هذه الفلسفة إذا كان المطلوب من الإنسان أن يختار بين رذيلتين محققتين، فإنه في هذه الحالة يحسن الاختيار بالتوسط بين طرفين متقابلين كلاهما مذموم ومتروك، إلا أننا لا نقول من أجل ذلك إن الكرم نقص في رذيلة البخل، أو نقص في رذيلة السرف، ولا نقول من أجل ذلك إن الكرم إذا زاد أصبح سرفا، وأن السرف إذا نقص أصبح كرما بل تكون الزيادة في الكرم كرما كبيرا، والنقص في السرف سرفا قليلا ولا يكون الكرم أبدا درجة من درجات السرف، ولا البخل أبدا درجة من درجات الكرم، بل هي أخلاق متباينة في الباعث، متباينة في القيمة، يتقارب الطرفان فيها أحدهما من الآخر، ولا يتقارب الطرف من الوسط، كما يظهر من قياس الهندسة، أو قياس الحساب» (28). ويمضي العقاد في تفنيد مذهب الفلسفة اليونانية في الأخلاق الفاضلة والتي تعتبرها الفلسفة اليونانية «وسطا بين طرفين» ويناقشها العقاد المناقشة الموضوعية التي تشير إلى عبقريته الفذة، وسعة علمه، وقدرته على الاستيعاب، وفلسفته العميقة وهذا شأنه في كل قضية يمسك بها، فلا

26) العقاد «المصدر السابق» ص 262 ط دار الكتاب اللبناني بيروت.

27) الأستاذ حمد بن نايف الشمري «العقاد وتراثه الإسلامي» ص 288 ط دار التقدم بمصر.

28) العقاد «المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد» جـ 5 ص 262، ط دار الكتاب اللبناني.

يتركها إلا بعد أن يشبعها بحثا ودرسا، ويقعد لها القواعد، ويؤصل لها الأصول، وذلك بعد أن يكشف عن جذورها، وتربتها والمؤثرات فيها... ولهذا يمضي في الكشف عن مواطن الضعف في الفلسفة اليونانية، فيقول : «وقد رأينا في مباحث العقل النفسية التي كشفها العلم الحديث أن الشذوذ يقرب بين المسرفين والبخلاء في أعراض متشابهة وأن العلة الكامنة في التركيب قد تظهر في الأسرة الواحدة بخلاف أحد الأخوين وسرفا في الأخ الآخر، أو تظهر في أحدهما هوسا بالاقدام والاقتحام، ـ وتظهر في أخيه هوسا بالحذر والإحجام، فلا إفراط هنا ولا تفريط في «كلية» واحدة تقاس بمقياس الهندسة والحساب، ولكنها خلائق متباينة تختلف بالباعث لها، وتختلف بقيمتها في معايير الأخلاق. ولو صح مذهب الفلسفة اليونانية أو مذهب أرسطو على الأصح لما جاز للإنسان أن يطلب المزيد من فضيلة الكرم ـ مثلا ـ لأنه ينتقل على هذا الرأي إلى رذيلة العلىسرف والتبذير، إلا أن زيادة الكرم لا تكون إلا زيادة في فضيلة مشكورة ولابد من التفرقة بين زيادة الكرم وزيادة العطاء، فإنهما في الواقع أمران مختلفان... وقد قيل لا خير في السرف، ولا سرف في الخير... وفي القول الثاني توضيح لازم للقول الأول، لأن زيادة الخير إلى أقصى حدوده واجبة لا تخرج به عن كونه خيرا محمودا، يزداد حمده مع ازدياده ولا يحسب من السرف على وجه من الوجوه» (29).

وإنما يلتبس الأمر على أصحاب مدرسة التوسط في جميع الأمور، لأنهم ينظرون في تقدير الكرم إلى المال المبذول، وإلى مصلحة الباذل في حساب المال ولا التباس في الأمر إذا نظروا إلى الباعث، والموجب والمصلحة في عمومها ولو ناقضت مصلحة الباذل في بعض الأحيان (30)...

وتصعب المقارنة بين التطرف والتوسط، حين تكون المسألة درجات ولا تكون هناك مقادير تعد بالأرقام، فإذا جاز أن يقال : إن الكريم هو الذي ينفق ألف دينار، والمسرف هو الذي ينفق ألفين، والبخيل هو الذي يبذل

29) العقاد «المصدر السابق ص 263.

30) المصدر السابق ص 263.

مائة، أو لا ينفق شيئا، فمن هو الشجاع ؟ ومن هو المتهور ومن هو الجبان ؟...

ليست هناك مقادير تعد بالأرقام فإذا عرفنا أن الجبان هو الذي يحجم عن الخطر، فمن هو الشجاع ؟ ومن هوالمتهور؟فلا يجوز أن تقول إن الشجاع هو قليل الإقدام، وأن المتهور كثير الإقدام... إن المسألة هنا هي معرفة الواجب، فالشجاع الذي يقدم على الخطر حيث يجب الإقدام عليه، لكن الجبان والمتهور لا يعرفان الواجب... فالأخلاق هنا تقاس بالواجب وليست مقادير (31)... «وتصبح المسألة هنا مسألة قدرة على فهم الواجب والعمل به، وليست مسألة إعداد أو إبعاد... فالجبان والمتهور كلاهما عاجز عن فهم الواجب والعمل به، والشجاع هو القادر على الفهم والعمل، ولا يستقيم في التعبير إذن أن نقول إن المتهور أكثر شجاعة من الشجاع، وأن الجبان أقل شجاعة منه، لأنهما معا خلو من الشجاعة الواجبة بغير إفراط أو تفريط» (32).

ولن يشذ الإنسان عن الاعتدال في الطبع إذا هو آثر أن يذهب في كل فضيلة إلى نهايتها القصوى، فماذا يعاب في جمال الوجوه ـ مثلا ـ إذا انتهى إلى غاية لا غاية بعدها في معهود الأبصار ؟

وماذا يعاب في جمال الأخلاق إذا انتهى مثل تلك الغاية في معهود الأبصار ؟

وماذا يعاب في جمال الأخلاق إذا انتهى مثل تلك الغاية في معهود البصائر ؟

إن كلمة من كلمات اللغة العربية العامرة بمدلولاتها النفسية والفكرية لتهدينا إلى قسطاس الحمد في كل حسنة مأثورة. فكلمة «ناهيك» حين تقول ناهيك من رجل، أو ناهيك من عمل، أو ناهيك من خلق هي قسطاس الثناء فيما تنشده النفوس الإنسانية من كل فضل منشود، فهو الفضل الذي ينتهي بنا إلى النهاية فلا نتطلع بعده إلى مزيد».

غير أن مذهب الاعتدال ـ مع هذا ـ أقرب المذاهب

31) الأستاذ الشمري «العقاد وتراثه الإسلامي» ص 289 ط التقدم بمصر.

32) العقاد «المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد» جـ 5 ص 264، ط دار الكتاب اللبناني.

إلى فهم الأخلاق المحمودة في الإسلام، على اعتبار أن خلق الاعتدال فضيلة مستقلة تدل على طبع سليم، وعقل رشيد، يقدران لكل عمل قدره، ولا يمنعهما الاعتدال أن يذهبا به إلى غاية الكمال، إذا كان له هذا القدر بين أقدار الأخلاق (33). ومذهب المصلحة الاجتماعية لا يناقض مكارم الأخلاق الإسلامية كل المناقضة، ولا يوافقها كل الموافقة، إذ مجمل الرأي في الإسلام أن المجتمع يقاس بالدين، وليس الدين يقاس بالمجتمع... فقد يسفل المجتمع فتتفق فيه الآراء والأهواء على مصلحة يأباها الدين ويحسبها مضرة أو مفسدة يؤنب المجتمع من أجلها كما يؤنب الأفراد (34).

ومن عيوب مذهب الأخلاق الاجتماعية، والأخلاق الإنسانية، أن هذه المدرسة تحصر المصلحة في الطبقة الغالبة على المجتمع... فما تراه حسنا فهو الحسن بالنسبة إليها لاستبقاء منافعها... كما أن المجتمع قد ينحدر بأخلاقه وتقاليده حتى تنقلب إلى رذائل، فلا يصح إذن أن يكون المجتمع مرجعا للأخلاق (35).

والباحث لا يستطيع أن يجمع الأخلاق الإسلامية في نطاق مذهب واحد من المذاهب، وإن كان الإسلام يحمد كثيرا من الأخلاق المحمودة في هذه المذاهب، ولكنه يترفع من تلك النقائض ويتنزه عن تلك العيوب خصوصا مذهب «نيتشه» الذي يحارب الضعفاء، ويجعلهم كمرضى الجذام الذي يجب الابتعاد عنه. والإسلام يحمد القوة الخالية من الجبروت والطغيان والقسوة والتعالي على الناس، والكبر، فهي قوة في محلها ومواضعها في الحرب والانفاق وفيها ـ اللين والعطف والرحمة بالضعفاء.

وقد توصف الأخلاق الإسلامية بأنها أخلاق محبة، لأن أصول العلاقات في الإسلام قائمة على المحبة والأخوة بين الناس، كأنهم أسرة واحدة، ولكن الإسلام ينكر من المسلم أن يحب الخبيث كما يحب الطيب ويعرف العداوة في الحق كما يعرف الصداقة فيه (36).

33) العقاد المصدر السابق ص 265.

34) العقاد المصدر السابق ص 265.

35) الشمري العقاد وتراثه الإسلامي ص 289.

36) العقاد، «المجموعة الكاملة» جـ 5 ص 259. ط دار الكتاب اللبناني.

والإسلام يزكي التوسط فيما يقبل التوسط بالمقادير أو بالدرجات كالإنفاق الذي ينتهي الإسراف فيه إلى اللوم والحسرة. قال تعالى: **﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾** (37). والإسلام هو الذي يفرض الأخلاق على المجتمع، فقد يسفل المجتمع بأخلاق حتى يأباها الدين ويرفضها، وقد تكون أخلاق المجتمع فاضلة فيتقبلها الدين.

وقد وصل العقاد - بعد هذا الجهد الرائع - إلى قمة التفكير الفلسفي حينما قال: «وربما كانت مصلحة النوع الإنساني أصدق المقاييس للخلق المحمود في الإسلام، ولكن النوع الإنساني يترقى في العلم بمصالحه حقبة بعد حقبة. ومن حوافزه إلى الترقي أن تكون أمامه مثل عليا للأخلاق أرفع من مألوف الأخلاق التي يسترسل معها بغير جهد، وبغير رياضة وبغير تربية مفروضة عليه، يعتقد أنه يتلقاها ممن هو أكبر من الإنسان وأحق منه بالطاعة والإصغاء إلى هدايته وتعليمه...

لابد من الفضائل الإلهية في تعليم الإنسان مكارم الأخلاق... وما اكتسب الإنسان أفضل أخلاقه إلا من الإيمان بمصدر سماوي يعلو به عن طبيعته الأرضية... وهذا هو المقياس الأوفى لمكارم الأخلاق في الإسلام... ليس مقياسها الأوفى أنها أخلاق قوة، ولا أنها أوساط بين أطراف ولا أنها ترجمان لمنفعة المجتمع، أو منفعة للنوع الإنساني بأجمعه، في وقت من الأوقات، وإنما مقياسها أنها أخلاق كاملة «وأن الكمال اقتراب من الله» (38).

وجملة ما نريد أن نؤكد عليه: أن هناك علامات مضيئة في الفلسفة العقادية في موضوع الأخلاق... هذه العلامات تشير إلى أن «لحاسة الجمال، أو النزوع إلى الكمال» شأن في تفضيل بعض الأخلاق على بعض أو في تمييز بعضها بالاستحسان والإيثار، وبعضها بالمقت والاستنكار فملاك الأخلاق الصالحة نفس صالحة قادرة على التلقي والأداء (39) ونرى العقاد وهو يعرض مذهب المنفعة ويناقشه يضع مقياسا لابد من الرجوع إليه في جميع الأحوال الخلقية وهو «صحة النفس، وصحة الجسد على السواء» ومعنى هذا: القدرة على الامتناع، ورد النفس عن بعض ما تشاء... وهذا قبل كل شيء - كما يقول فيلسوفنا العقاد - هو مصدر الجمال في الأخلاق... مصدره أن القوة النفسية أرفع من القوة الآلية... مصدره أن يتصرف الإنسان كما يليق بالكرامة الإنسانية ولا يتصرف كما تحمله القوة الحيوانية أو القوة التي يستسلم لها استسلام الآلات مصدره أن يكون الإنسان سيد نفسه، وأن يعلم أنه يريد فيعمل أو يمتنع عن العمل وليس قصاراه أنه يساق إلى مايراد (40)...

إن المجتمع قد يملي على الإنسان ما يليق وما لا يليق، ولكنه لا يغنيه عن هذا الضابط الذي تناط به جميع الأخلاق، كما تناط به حاسة الجمال لأنه دليل على صحة التكوين، وخلو النفس من الخلل والتشويه (41)... ونحن ندرك القيمة الجمالية لموضوع معين بما تثيره أجزاؤه المتناسقة المنسجمة... فالإنسان يشعر بجمال الأخلاق لأنها تبعث على إثارة مكنونات نفسه ويجد المرء فيها تزويدا لما تتجاوب به جوانح قلبه وصدى ملحا من أصدائه النفسية.

والاستمتاع الجمالي يغذي الوجدان والرغبات المكبوتة داخل النفس ولذلك فإنه يعمل على تجديد طاقات المرء وتنويع مظاهرها، واتزان نواحيها، وأول درجة في الجمال النفسي صفاء النفس واستمتاعها بالتأمل الهادي إذ كثير ما تغطى ماديات الحياة على معنوياتها... وكثيرا ما تغطى على نداء القلب، ونداء الضمير... فإذا صفت النفس، صارت قابلة للاستمتاع بالجمال. لأن الصفاء والجمال يمثلان الحركة الحية في الحياة، وفي ارتفاع قيمة النفس، وفي تنظيم نواحي الحياة وغاياتها الروحية.

وترى الفلسفة الحديثة أن الجمال يكمن في الحركة، حركة القلب في عاطفة الحب، وحركة العاطفة في البذل، وحركة الضمير في يقظته، وحركة الذهن في أفكاره وأدائه

37) سورة الإسراء.

38) العقاد، «المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد» جـ 5 ص 265 ط دار الكتاب اللبناني.

39) هتلر في الميزان ص 308 المجلد 14 من مؤلفات العقاد، ط دار الكتاب اللبناني.

40) العقاد، «الفلسفة القرآنية» ص 34 ط دار الكتاب اللبناني، بيروت.

41) المصدر السابق.

لرسالته، وفي التأمل بعد الدرس، وفي الوفاء بعد الوعد (42)...

وبهذا الضابط «ضابط الجمال» الذي لا غنى عنه في كل خلق من الأخلاق يتحدى الإنسان فرائض المجتمع كله، إذا فرضت عليه ما ينفر منه طبعه، أو يجرح فيه حاسة الجمال، وسليقة الشوق إلى الكمال، فيعلو على المجتمع في كثير من الأحيان، ولا يكون قصاراه أن ينقاد لما يمليه عليه. بل يخلق الآداب الاجتماعية الجديدة، ولا يكون في أعماله ومقاييسه مخلوقا للمجتمع في جميع الأحوال (43).

ومصدر الجمال في الأخلاق ـ عند العقاد ـ هو أن يشعر الإنسان بالتبعة وأن يدين نفسه بها لأنه يأبى أن يشين نفسه، ويعتبر الشين غاية ما يخشاه من عقاب...

وإذا كان مصدر الجمال في الأخلاق هو أن يشعر الإنسان بالتبعة فإن مصدر الأخلاق الجميلة ـ في فلسفة العقاد الأخلاقية ـ هو«عزم الأمور»كما سماه القرآن الكريم، وهو مصدر كل خلق جميل حثت عليه شريعة القرآن الكريم (44).

وعزم الأمور مأخوذ من عزم على الأمر : عقد قلبه على إمضائه (45)... أو من عزم بمعنى جد الأمر ولزم (46).

وقد وردت عبارة : عزم الأمور بهذه الصيغة ثلاث مرات في القرآن الكريم قال تعالى : **﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾** (47).

وقال تعالى : **﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك لمن عزم الامور﴾** (48).

وقال تعالى : **﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور﴾** (49).

فالشخصية الإنسانية في الجمال الأخلاقي، ترتقي حسب الاستعداد للتبعة ومحاسبة النفس على حدود الأخلاق.

وليس للتفاوت في جمال الخلق مقياس أصدق من هذا المقياس أعم منه في جميع الحالات، وفي جميع المقابلات بين الخصال المحمودة أو بين أصحاب تلك الخصال (50).

وقد أشار العقاد في كتابه «هتلر في الميزان» إلى هذا المقياس فقال : ومقاييس التقدم كثيرة، يقع فيها الاختلاف والاختلال، فإذا قسنا التقدم بالسعادة، فقد تتاح السعادة للحقير، ويحرمها العظيم... وإذا قسناه بالغنى فقد يغنى الجاهل، ويفتقر العالم... وإذا قسناه بالعلم فقد تعلم الأمم المضحلة الشائخة، وتجهل الأمم الوثيقة الفتية... إلا مقياسا واحدا، لا يقع فيه الاختلاف والاختلال وهو مقياس «المسئولية» (51) واحتمال التبعة... فإنك لا تضاهي بين رجلين أو أمتين إلا وجدت أن الأفضل منهما هو صاحب النصيب الأوفى من المسئولية، وصاحب القدرة الراجحة على النهوض بتبعاته والاضطلاع بحقوقه وواجباته «ولا اختلاف في هذا المقياس كلما قست به الفارق بين كل مفضول وكل فاضل، على اختلاف أوجه التفضيل... فاحتمال التبعات هو مناط التقدم المستطاع (52).

والقرآن الكريم يقرر التبعية الفردية، وينوط بها كل تكليف من تكاليف الدين وكل فضيلة من فضائل الأخلاق (53).

---

42) الأستاذ علي القاضي، التربية الجمالية في الإسلام جوهر الإسلام ع 2، 3 ص 84 السنة 8 تونس.

43) العقاد «الفلسفة القرآنية» ص 35 ط دار الكتاب اللبناني بيروت.

44) العقاد المصدر السابق ص 35 ط دار الكتاب اللبناني بيروت.

45) الفيروزابادي (بصائر ذوي التمييز) جـ 4 ص 64 ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

46) مجمع اللغة العربية (معجم ألفاظ القرآن الكريم) جـ 2 ص 540 ط لجنة التراث بالهيئة العامة للكتاب.

47) سورة آل عمران، الآية رقم 186.

48) سورة لقمان، الآية رقم 17.

49) سورة الشورى الآية رقم 43.

50) العقاد «الفلسفة القرآنية» ص 35 ط دار الكتاب اللبناني، بيروت.

51) البنية الصرفية لكلمة «مسئول» تكشف عن سمة منطقية هامة : «مسئول» على وزن «مفعول» مثل «مجعول» ومن الجلي أن هذه الصيغة قريبة في معناها من معنى الفعل المبني للمجهول، وكما أن المجهول لغاية هو ما جعل لأجلها، كذلك فإن «المسئول فرد جعل مسئولا» «الباحث ع 16 ص 52، بيروت وفرنسا».

52) العقاد «هتلر في الميزان» ص 405 ضمن المجلد رقم 14 من الأعمال الكاملة لمؤلفات العقاد ط دار الكتاب اللبناني، والعبارة أخذت بتصرف.

53) العقاد «الفلسفة القرآنية» ص 36 من المجلد رقم 7 «الأعمال الكاملة لمؤلفات العقاد.

قال تعالى : ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ (54).

وقال تعالى : ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ (55).

وقال تعالى : ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ (56).

وقال تعالى : ﴿قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾ (57).

وما من خصلة حث عليها القرآن الكريم إلا كان تقدير جمالها بمقدار نصيبها من الوازع النفساني، أو بمقدار ما يطلبه الإنسان من نفسه، ولا يضطره أحد إلى طلبه فالحق الذي تعطيه، ولا يضطرك أحد إليه هو أجمل الحقوق وأكرمها على الله، وأخلقها بالفضيلة الإنسانية (58).

وغني عن التفصيل أن الفضائل المثلى التي يحض عليها القرآن الكريم هي الفضائل التي ترتفع إلى ضبط النفس، وملك زمامها، وعزم الأمور، واتخاذ الوازع منها حين لا وازع من غيرها، فالصبر، والصدق، والعدل، والإحسان والمحاسنة، والأمل، والحلم، والعفو، هي مثال الكمال الذي يطلبه لنفسه من ينزع نفسه، ويختار لها أحسن الخيرة، ويأبى لها أن يهبط بها مكانا دون ـ مكان الجميل الكامل من الخصال ومن الفعال (59).

وقد يكون ـ كما يقول العقاد ـ الكمال كالجمال مقياسا غير متفق عليه قابلا للتفاوض ـ بل للتناقض ـ كما تتفاوت مقاييس العرف، وتتناقض في كثير من المعقولات والمحسوسات... لكننا نقول قولا مفيدا حين نقول : إن الإنسان يحب أجمل الشمائل، أو أجمل الخصال... ونقول قولا مفيدا حين نضع الكمال في موضع الجمال... إلا أن الإسلام يقرن المثل الأعلى في كل فضيلة بالصفات الإلهية : «ولله المثل الأعلى» وكل صفة من صفات الله الحسنى محفوظة في القرآن الكريم يترسمها المسلم ليبلغ فيها غاية المستطاع في طاقة المخلوق (60)...

ويؤكد العقاد ذلك بقوله : «وجماع هذه الأخلاق ـ الإسلامية ـ كلها هو تلك الصفات التي اتصف بها الخالق نفسه في أسمائه الحسنى وكلها مما يحمد الإنسان أن يروض نفسه عليه، وأن يطلب منه أوفى نصيب يتاح للمخلوق المحدود، فيما عدا الصفات التي خص بها الخالق دون سواه.

وأن المسلم ليؤمن بمصدر هذه الأخلاق المثلى، ويؤمن بأنها جميعا مفروضة عليه بأمر من الله...

ولكن المسلم وغير المسلم يستطيعان أن يقولا معا إنها صفات لا ترجع إلى مصدر غير المصدر الإلهي، الذي تصدر منه جميع الأشياء، لأن مناطها الأعلى لم يتعلق بمنفعة المجتمع، ولا باستطاعة القوة، ولا بالقانون والسلطان ولكنه تعلق بما في الإنسان من حب للجمال، وشوق إلى الكمال. وكلاهما نفحة من الخالق يهتدي بها الأحياء عامة في معارج الرفعة والارتقاء (61)...

والأخلاق التي يهتدي إليها المسلم بهدى الأسماء الحسنى كثيرة وفيها يجد ما يتحراه الإنسان في مراتب الكمال المطلوبة لكمالها مع عموم نفعها في حياة الفرد والجماعة، ومنها : العزة، والقدرة، والمتانة، والكرم والإحسان، والرحمة، والود، والصبر، والعفو، والعدل، والصدق، والحكمة، والرشد، والحفاظ، والحلم، واللطف، والولاء، والسلام، والجمال... وكلها منشود لأنه كمال لا يقاس إلا بقياس الكمال، وأنه ليوافق مقاييس القوة والتوسط والمصلحة الاجتماعية في أجمل مطالبها وأصحها على هدى الفكر وهدى الضمير، ثم لا تستوعبه مدرسة خاصة من هذه المدارس المتفرقة كما تستوعبه مدرسة الإسلام، أو مدرسة الكمال بهداية الأسماء الحسنى (62).

وخير للمجتمع الإنساني أن تقاس الأخلاق فيه بهذا

54) سورة الانعام، الآية رقم 164.

55) سورة المدثر، الآية رقم 38.

56) سورة البقرة، الآية رقم 286.

57) سورة يونس، الآية رقم 108.

58) العقاد (الفلسفة القرآنية) ص 36 ط دار الكتاب اللبناني جـ 7...

59) العقاد، المصدر السابق ص 38.

60) العقاد، «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» ص 266 من المجلد رقم 5 مؤلفات العقاد، ط دار الكتاب اللبناني بيروت.

61) العقاد «الفلسفة القرآنية» ص 40 ط دار الكتاب اللبناني.

62) العقاد «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» من المجلد رقم 5 ص 272 ط دار الكتاب اللبناني.

القسطاس ولا تقاس بمنفعة تفسد بفساد المجتمع نفسه، وتنحرف مع انحراف نظرته إلى منافعه ومضاره... فإن المجتمع قد يصاب بآفات الذل والعجز والهزل والبخل والسوء والقسوة والبغضاء وسائر الآفات الموبقة من نقائض الخلائق الإلهية فيصلحها الترياق من الدين أو يصلحها أن تقلع عنها، ولا يصلحها أن تتمادى فيها...

إن أدب الإسلام يخرج للمجتمع الإنسان الكامل، فيخرج له الإنسان الاجتماعي الكامل في أقوى صورة وفي أجملها (63)...

والإسلام في مجموعه بنية حية متسقة، تصدر في العقائد والأخلاق من ينبوع واحد، فمن عرف عقيدة المسلم عرف أن الخلق الذي يحمده الإسلام هو الخلق الذي يرتضيه إنسان يؤمن بأن الله رب العالمين، وأن النبوة تعليم لا تنجيم، وأن الإنسان مخلوق مكلف على صورة الله، وأن الشيطان يقوى الضعيف ولا يستولي عليه، إلا إذا ولاه زمامه بيديه، وأن العالم بما رحب أسرة واحدة من خلق الله، أكرمها عند الله اتقاها (64)...

والدين الإسلامي بعقائده وآدابه أو بجملته وتفصيله، يستحب القوة للمسلم ويأمره باعداد عدتها من قدرة الروح والبدن، ولكنه يستحبها قوة تعطف على الضعيف، وتحن إلى المسكين واليتيم، ويمقتها قوة تصان بالجبروت والخيلاء، ولا ينال الضعفاء منها غير الهوان والإذلال، ولا يستحب الإسلام القوة للقوى إلا ليدفع بها عدوان الأقوياء على المستضعفين العاجزين عن دفع العدوان... ولم يوصف الله بالكبرياء في مقام الوعيد للكبرياء بالنكال والإذلال. إلا ليذكر المتكبر الجبار، إن الله أقدر منه على التكبر والجبروت (65)...

والإسلام يزكي مذهب التوسط فيما يقبل التوسط بالمقادير أو بالدرجات كالإنفاق الذي ينتهي الإسراف فيه إلى اللوم والحسرة قال تعالى : ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا**﴾ (66).

وقال تعالى : ﴿**والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**﴾ (67).

وقال تعالى : ﴿**كلوا من ثمره إذا أثمر وأتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾ (68).

ولكن القسطاط في فضائل الإسلام لا يرجع إلى المقدار والتوسط فيه بل يرجع إلى الواجب وما يقتضيه لكل أمر من الأمور... فإذا وجب بذل المال كله وبذل الحياة معه في سبيل الحق فلا هوادة ولا توسط هنا بين طرفين وإنما هو واجب واحد يحمد من المرء أن يذهب فيه إلى أقصاه... ويقول فيلسوف الفلاسفة عباس محمود العقاد : ولا يصدق هذا على شئون القوة والكرم وحسب، بل يصدق في شئون الرحمة حيث تجب لمن هو أهل لها... فالإسلام على كراهته الذل لاتباعه يستحب منهم الذل في الرحمة بالوالدين الشيخين قال تعالى : ﴿**واخفض لهما جناح الذل من الرحمة**﴾ (69). لأن الذل هنا زيادة في الرحمة يأتي من كرامة في النفس، ولا يأتي من هوان فيها (70)...

وخلاصة القول في الاعتدال في الخلق الإسلامي : أن المسلم يؤمر بالعمل لدنياه كما يعمل لدينه، ويؤمر بصلاح الجسد كما يؤمر بصلاح الروح. فلا يكون في هذه الدنيا روحا محضا، ولا يكون فيها جسدا محضا ومن أبى عليه دينه أن يكون في هذه الدنيا جسدا، محضا فمن العنت أن يقال إنه يعمل ليكون ـ ا محضا في عالم الرضوان، عالم الروح والصفاء(71).

ويؤكد العقاد هذا الجانب بقوله : «إن الأديان جميعا تنظر إلى النعيم الإلهي كأنه المثل الأعلى للحياة الدنيوية، وليس في المثل الأعلى في الحياة ـ في عقيدة المسلم ما

---

63) المصدر السابق ص 272.
64) المصدر السابق ص 273.
65) المصدر السابق ص 267.
66) سورة الاسراء.
67) سورة الفرقان.
68) سورة الأعراف.
69) سورة الإسراء.
70) العقاد «المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد» جـ 5 ص 268، ط دار الكتاب اللبناني.
71) المصدر السابق.

يجعله ـ على زعم المضللين من أعداء الإسلام (72) جسدا محضا في أخلاقه وآدابه، أو يجور على الجانب الأخلاقي فيه... ومن أبى عليه دينه أن يكون في الأرض جسدا محضا فمن السخف أن يقال إنه يرتضي لنفسه أن يكون جسدا محضا في جوار الله الذي بلغ به الإسلام غاية ما يتصوره العقل والضمير من التنزيه...

وهذا قسطاس لا يخطئ في تقويم كل خلق حسن يستحبه الدين في المسلم... فإنه مأمور ألا ينسى نصيبه من الحياة الجسدية، ولكنه مأمور في الوقت نفسه أن ينظر إلى صفات الله الحسنى كما تجلت في أسمائه التي وردت في القرآن الكريم، فهي قبلته التي يهتدى بها في كل مكارم الأخلاق، لا يكلف أن يدرك منها شأو الكمال الإلهي، ولكنه يكلف منها بما في وسعه، كأنها قطب السماء الذي يهتدي به ملاح البحر وهو يعلم أنه في فلكه الرفيع بعيد المنال» (73).

ولعل ما جاء عن فلسفة العقاد في الأخلاق الإسلامية، يرينا أن مما يعنى به الإسلام، بل يجعله نقطة الانطلاق في كل تصرف إنساني تكوين إرادة خلقية عند الفرد. وهي الإرادة التي تحمل الفرد من نفسه على أن يكون سلوكه خلقيا، يسير في الخط الذي رسمته التعاليم والوصايا الإسلامية وهي : العزم القوي، والتصميم الحازم الذي لا يقبل التردد ويصدر عنه الفعل صدورا سهلا، ويصحبه كثير من الارتياح النفسي الداخلي على نحو ما يصدر هذا الفعل عن العادة القوية التي اكتسبها الإنسان وتمكنت منه وصارت أحد طبائعه.

وعناية الإسلام بتكوين الإرادة الخلقية عند الفرد يسهم فيها أكثر من فرض من فروض العبادات. وربما تكون الغاية من العبادات جميعها تكوين هذه الإرادة (74).

فالتكليف بالصلاة، والحرص على أدائها في أوقاتها المحددة والتكليف بالزكاة ووجوب إخراجها، والتكليف بالصوم والحث على تحمله في الأيام المعدودة سواء أكان نهارها طويلا أم قصيرا، وسواء أكان حارا أم باردا والتكليف بالحج ـ لقادر طبعا ـ وتأكيد آدائه منه في صورته المعروفة كل ذلك يضيق من منافذ الهوى والشهوة ويساعد على التحكم في النفس، ويجعل أمر توجيهها مرتبطا باختيار الإنسان، واختيار الإنسان هو التعبير عن الإرادة الحرة، أي تلك الإرادة التي تحررت من سيطرة الشهوة، وسلطان الهوى... وإذن تكاليف العبادات في الإسلام هي وسائل تكوين الإرادة الحرة... وعن هذه الإرادة التي هي فوق ـ الهوى والشهوة يصدر السلوك الخلقي للإنسان، ولذا كانت إرادته خلقية (75)...

يتول فيلسوفنا العقاد في كتابه «هتلر في الميزان» والأخلاق لا تفهم بمعزل عن المشيئة والاختيار... فإننا لا نعرف آلة ذات خلق، وإنما تبدأ الأخلاق حين يبدأ الإدراك والتكليف (76).

ولولا أن تكليف العبادات مرتبط أداؤه بالله جل شأنه، لما كان له الأثر في تكوين تلك الإرادة... لولا أن هناك إيمانا بالله، ولولا أن المؤمن به حريص على رضائه لما أثمرت فروض العبادات في توجيه الإنسان إذ أن الإيمان بالله إيمان بموجود دائم، صفاته في الكمال غير محدودة. ولذا فارتباط العبادة به يتيح فرصة زمنية طويلة الأجل في حياة الفرد المؤمن تتكون فيها هذه الإرادة، ولها من القوة ما يمكنها من أداء وظيفتها التوجيهية في حياته» (77).

وصاحب هذه الإرادة الخلقية ـ بعد ذلك ـ يسلك في حياته مسلك الخلق المستقيم، ويعامل غيره معاملة من

---

72) أشار العقاد إلى ذلك بقوله : «وقد ضلل بعض المغرضين من دعاة الأديان عقولا كبيرة في شتى الأقطار، حين زعموا أن الخطاب بالمحسوسات في أمر الجنة والنار مقصور على العقيدة الإسلامية، وأن المؤمنين بالدين ـ لا يؤمنون بالنعيم المحسوس إلا إذا كانوا من المؤمنين بالقرآن، العقاد، «حقائق الإسلام» ص 268 ط الكتاب اللبناني).

73) العقاد «المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد» المجلد رقم 5 ص 271 ط الكتاب اللبناني.

74) الدكتور محمد البهي «الدين والحضارة الإنسانية» ص 206، ط كتاب الهلال.

75) المصدر السابق ص 207.

76) العقاد «هتلر في الميزان» ص 407 من المجلد رقم 14 من الأعمال الكاملة لمؤلفات العقاد طبع دار الكتاب اللبناني.

77) الدكتور محمد البهي «الدين والحضارة الإنسانية» ص 207، ط كتاب الهلال بمصر.

استطاع السيطرة على أنانيته لا يرضى أن يظلم نفسه فيحملها عبء العبث، وعبء الشهوة والهوى، ولا يرضى أن يعتدي على غيره في حق له في الحياة... بل ربما لا يقدر أن يظلم نفسه ويعتدي على غيره... لأنه بتكوين الإرادة الخلقية لديه أصبح شبه مقدور في تصرفاته (78).

هناك قوة في الفرد تناط بها تلك الأخلاق، وتتفاوت بها أدوات البناء في المجتمع، كما تتفاوت بها أدوات البناء في كل تركيب... تلك القوة هي ضابط الإرادة أمام الشهوات والرغبات، ولا يلزم أن تكون تلك الشهوات والرغبات من قبيل العلاقات والمعاملات ليبدو فيها ضابط الإرادة بقوته التي تناط بها الأخلاق (79).

ومن الواضح أن النسق الأخلاقي الذي كان العقاد قد وضعه إنما كان يهدف أصلا إلى تأسيس فلسفة أخلاقية أصيلة فوق الأفعال الفردية، غير أن الأخلاق تدخلت في كافة التصرفات الإنسانية ونفذت إلى العلاقات العامة بين الناس في المجتمع، وبهذه الصورة يؤكد العقاد وحدته الفكرية إزاء الإنسان والوقائع المختلفة... ولا يلبث العقاد أن يعقد رابطة قوية بين منهجه الأخلاقي في تقصي الوقائع والدلالات، ومنهجه الإنساني في الانتقال من المعطى الجزئي والواقعة البسيطة إلى الإنسانية الجامعة، ويتخلل هذين المنهجين منهج ثالث لدى العقاد ولا يفارقهما وهو منهجه المنطقي الذي يقدس حرية الفرد، ولا يعزله عن الآخرين (80)...

والعقاد في موضوع الأخلاق فيلسوف عتيد، أوحت إليه عبقريته بالإحاطة «كما وكيفا» ولا عجب أن نراه في كتاب «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» يجعل الفصل الرابع منه تحت عنوان «الأخلاق والآداب» (81) وفي كتاب «الفلسفة القرآنية» نجد من أبرز العناوين : «الأخلاق في القرآن» (82) وفي كتاب «الديمقراطية في الإسلام» نلحظ موضوعا عنوانه «الأخلاق ـ الديمقراطية» (83) وفي كتاب «الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام» نقف على عنوان موضوعه «الأخلاق» (84)، وفي كتاب «مراجعات في الآداب والفنون» يوجد أكثر من موضوع في الأخلاق، منها، «علم الأخلاق إلى نيقوماخوس» (85) و«خواطر في الأخلاق» (86)، وتتخلل مؤلفات العقاد ويومياته، عشرات الموضوعات التي ترتبط بالأخلاق، ولا عجب في ذلك فالعقاد فيلسوف الفلاسفة وأول فيلسوف يؤسس الفلسفة الأخلاقية في الإسلام على الأصول الأصلية والقواعد الرصينة. وإذا كان لا عجب في ذلك «فالعجيب والغريب أن محاضرا بكلية اللغة العربية بالرياض يكتب بحثا علميا بعنوان : «الكم والكيف والاتجاه في الدراسات القديمة والحديثة للأخلاق الإسلامية» وينشر البحث في مجلة كلية اللغة العربية، المجلد السابع، الصادر سنة 1397 هـ».

يذكر فيه أنه : «ليس للأستاذ العقاد شيء يذكر في موضوع الأخلاق، فهو قد وضع فصلا قصيرا جدا في كتابه : «الفلسفة القرآنية» ذكر فيه نبذا سريعة عن الفيلسوف الألماني «نيتشه» والفيلسوف الإنجليزي «هوبز» وأخلاق الإسلام، ثم وضع العقاد الفصل نفسه في كتاب آخر هو «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» (87).

وهذا القول من المحاضر بكلية اللغة العربية يدفع إلى التأكيد بأن سيادة المحاضر لم يقرأ شيئا مما كتبه العقاد في الأخلاق، وإنما نظر في فهرس كتاب «الفلسفة القرآنية» وكتاب «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» وأخذ من كل منهما ما موضوعه «الأخلاق» وأكبر دليل على أن المحاضر لم يدقق النظر فيما قال أنه بعد أن ذكر أن في كتاب الفلسفة القرآنية فصلا عن الأخلاق في الإسلام قصير جدا. قال ما نصه : «ثم وضع العقاد الفصل نفسه في كتاب آخر

---

78) الدكتور محمد البهي «الدين والحضارة الإنسانية» ص 207 ط كتاب الهلال بمصر.

79) العقاد «الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام» ص 187 من المجلد رقم 14 من الأعمال الكاملة لمؤلفات العقاد ط دار الكتاب اللبناني.

80) الدكتور عبد الفتاح الديدي «الفلسفة الاجتماعية عند العقاد» ص 143، ط الانجلو والعبارة أخذتها بتصريف دقيق وضروي».

81) من ص 225 إلى ص 275 ط دار الكتاب اللبناني المجلد رقم 3.

82) من ص 30 إلى 41 ط دار الكتاب اللبناني المجلد رقم 7.

83) من ص 503 إلى ص 507 ط دار الكتاب اللبناني المجلد رقم 5.

84) من ص 175 إلى ص 192 ط دار الكتاب اللبناني المجلد رقم 13.

85) من ص 91 ـ ص 101.

86) من ص 11 ـ ص 199.

87) مجلة كلية اللغة العربية، المجلد السابع ص 626 ط كلية اللغة العربية بالرياض السعودية.

هو : «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» (88)...

والباحث يرى أن العقاد وضع كتاب الفلسفة القرآنية سنة 1947 (89) وما جاء فيه عن الأخلاق، يعالج قضايا تعليل نشأة الأخلاق، ويناقش المذاهب الأخلاقية، ويبين مصدر الأخلاق الجميلة، ويضع المقاييس الصحيحة. أما كتاب «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» فقد ظهر سنة 1957م (90) وما فيه عن الأخلاق، مناقشة للمذاهب الحديثة، والمدارس اليونانية، والأديان وموقف الإسلام منها، والأخلاق في الإسلام... فما جاء في كتاب «حقائق الإسلام» ليس تكرارا لما هو في كتاب «الفلسفة القرآنية» وليس هو من وضع الفصل نفسه في كتاب آخر كما يزعم المحاضر...

وقد يندهش الباحث تعجبا، ويبلغ به الاستغراب حد الانزعاج حرصا على البحث العلمي، وخوفا عليه من الوصول إلى هذا المستوى، حينما يرى المحاضر نفسه، وفي ذات الموضوع يقول : «وفضلا عن قلة اهتمام الأستاذ العقاد بالأخلاق كعلم، فإننا نصادف له رأيا يشبه أن يكون رفضا للأخلاق الدينية الشرقية من حيث المبدأ لأنها في رأيه سيطرة خارجة عن الإنسان تملي عليه ما يفعل وما يترك، وتجيز له أو تحرم عليه ولا شأن له هو في جميع ذلك غير الطاعة والإذعان» (91).

والباحث دون عناء يلاحظ أن ما ذكره المحاضر من أن العقاد يرى في الأخلاق : «أنها سيطرة خارجة عن الإنسان الخ» ليس هو رأي العقاد بل هو رأي سواد كثير من الشرقيين عرضه العقاد، ثم عقب عليه بما يفيد أن هذا الرأي عقيدة منكوسة. وللحقيقة نضع أمام البحث العبارة التي جاءت عن العقاد كاملة، يقول العقاد : «ذلك أن سواد الأمة المصريين وكثيرا من الشرقيين يفهمون من الأخلاق أنها فضائل سلبية تبعد الإنسان عما يشينه، وتنهاه أن يقتل، وأن يسرق، وأن يعتدي على غيره، وأن يبخل أو يجبن أو ينقاد لشهواته ويشتغل بصغائره.

ويفهمون من جهة أخرى أن القانون الأخلاقي سواء كان آمرا بالفضائل أم ناهيا عن الرذائل هو سيطرة خارجة عن الإنسان تملي عليه ما يفعل وما يترك وتجيز له أو تحرم عليه، ولا شأن له هو في جميع ذلك غير الطاعة والإذعان (92).

إذن العقاد يعرض رأي قوم يفهمون، فجاء من لم يفهم رأي القوم من رأي العقاد، فنسب الرأي المعروض إلى العقاد، وترك رأي العقاد في ما فهمه هذا السواد من الناس، ورأي العقاد جاء واضحا إذ يقول بعد العبارة السابقة مباشرة «ولا نعرف شيئا أوبل على الأخلاق، ولا أشد إيذاء للهمم، من تمكن هذه العقيدة المنكوسة في الضمائر، واعتبار الإنسان عبدا للقانون يساق إلى الخير، أو قوة سلبية لا تحسن من الأعمال إلا أن تجتنب القبيح وتبتعد عن الضرر» (93).

إذن العقاد لا يقر هؤلاء القوم في ما ذهبوا إليه، بل يعتبر رأيهم أوبل على الأخلاق، وأشد ايذاء للهمم... فجاء صاحبنا المحاضر واقتطع رأي هؤلاء القائلين ونسبه إلى العقاد دون تمحيص، وتدقيق، وربما ساعده فهمه على أنه طالما أن كتاب (مراجعات) للعقاد، فيكون ما أخذه منه هو رأي العقاد...

ويعنينا أن نهتم بالحقائق التي يسمو بها البحث العلمي، وتمد الفكر بكل أصيل، وقد كان العقاد ـ بلا شك ـ من كبار الفلاسفة الذين أثروا الفكر، وجددوا للعقل حيويته، وقد أتى العقاد بفلسفة في الأخلاق الإسلامية ـ كما رأينا ـ دلت على اقتدار العقلية الإسلامية وتميزها حين تتفجر طاقاتها... وبذلك على تفرد العقاد فيما جاء به : أن ما كتبه الفلاسفة المسلمون ـ والذين يفترض أن الأخلاق تقع ضمن اختصاصهم ـ موزع الاتجاه، أو هو بعبارة أخرى يتجه إلى الفلسفة اليونانية ويتكرس لمذاهبها... وهذا أول فيلسوف إسلامي (94) أبو يوسف يعقوب بن إسحاق

88) المصدر السابق.

89) يراجع ملف خاص عن العقاد، مجلة الطليعة، عدد 3 السنة 8 مارس 1966 ـ القاهرة.

90) المصدر السابق.

91) المصدر السابق.

92) العقاد «مراجعات في الأدب والفنون» ص 94 دار الكتاب العربي بيروت.

93) العقاد المصدر السابق.

94) سماه بعض القدماء فيلسوف العرب وأطلق عليه البعض الآخر فيلسوف الإسلام ومن جانبنا نؤكد أنه فيلسوف الإسلام كما ذكر ابن نباته المصري في سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون «الكندي هو يعقوب بن الصباح المسمى في وقته فيلسوف الإسلام».

الكندي (95)، يقال إنه كتب رسالة في تسهيل سبل الفضائل، وأخرى في الأخلاق، وثالثة في التنبيه على الفضيلة ورابعة في خبر فضيلة سقراط (96). وقد تعرضت هذه الرسائل لعوامل، لم تجعلها تصل إلى أيدي العلماء المحدثين... ولو وصلت لما أفادت كثيرا في موضوع الأخلاق الإسلامية، لأن الكندي متأثر بالفلسفة اليونانية وقد أخذ نظرية النفس عن أرسطو وأفلاطون وسائر الفلاسفة (97)... ومن الثابت لدى الباحثين : أن نظرية النفس عند أفلاطون هي أساس نظرية الكندي في الفضائل فإذا ما قال بها الكندي، كان معنى هذا أنه تأثر بالفضائل الأربع التي جاء بها أفلاطون وهي : العدالة، والحكمة، والشجاعة، والعفة. وأكثر من هذا فإن النظرة اليسيرة ترى أن الكندي متأثر بأرسطو ذلك أنه يقول بنظرية الفضيلة وسط بين طرفين» (98).

ومضى تلاميذ الكندي في نفس الاتجاه إلى الأخلاق اليونانية وكتبوا ما كتبوا فيها (99)...

أما أبو نصر الفارابي (100) فله كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة وكتاب تحصيل السعادة (101) ومنهج الفارابي في هذين الكتابين يوناني في جوهره وكثير من أصوله... والمدينة الفاضلة أثر مباشر لجمهورية أفلاطون، وكذلك تحصيل السعادة.

يقول دي بور : إن الفارابي يوافق أفلاطون تارة، وأرسطو تارة أخرى وقد يتجاوز آراءهما أحيانا نازعا منزع تصوف وزهد (102) وأحد الباحثين يرى أن معظم جهود الفارابي كانت متجهة إلى تجويد بحوث الفلسفة اليونانية (103).

والشيخ الرئيس ابن سينا (104) من كبار العباقرة، والفلاسفة الحكماء له كتاب في علم الأخلاق، وكتاب البر والإثم، ورسالة في تهذيب النفس (105) والاتجاه السائد في هذه الكتب والرسائل هو النظرة اليونانية، والذين درسوا فلسفة ابن سينا لا يذكرون شيئا عن مذهبه الأخلاقي» (106).

وأشهر من ألف في الأخلاق من القدماء أحمد بن مسكويه (107)، وأشهر مؤلفات ابن مسكويه كتاب «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق (108) يقول المستشرق (كارادي فو) عن ابن مسكويه في هذا الكتاب : إنه لم يفلح من حيث التفاصيل في التوفيق بين مختلف النظريات اليونانية الأخلاقية التي أدخلها في مذهبه، ولا في التوفيق بينها وبين أحكام الشريعة الإسلامية» (109).

وكثير من العلماء يرى أن ابن مسكويه ينقل عن الفلسفة اليونانية بطريقة صريحة لا لف فيها ولا مداورة، فهو من مجددي فلسفة اليونان مع الحرص بقدر ما يمكن على موافقة الشريعة الإسلامية (110).

ويؤكد العلماء : بُعْد ابن مسكويه عن الدين في فلسفته الأخلاقية (111) وما جاء عنه في الأخلاق لا يختلف في قليل ولا كثير عما ذهب إليه أرسطو لا في أصل الفكرة ولا في منهجها وتطورها، والناظر في كتاب «تهذيب الأخلاق» أو كتاب السعادة أو الفوز الأكبر يرى

---

95) ولد في أواخر القرن الثاني الهجري وتوفى في النصف الأول من القرن الثالث الهجري.
96) ابن النديم الفهرست ص 363 ط دار المعرفة بيروت، لبنان.
97) الكندي رسائل الكندي الفلسفية ص 272 ط بيروت.
98) الدكتور عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفي في الإسلام ص 327، ط الانجلو المصرية.
99) القفطي أخبار الحكماء ص 56 ط بيروت.
100) ولد سنة 259 هـ وتوفي سنة 339 هـ.
101) الدكتور عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفي في الإسلام، ص 343، ط الانجلو المصرية.
102) المستشرق دي بور (تاريخ الفلسفة في الإسلام) ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ص 320.

103) الدكتور علي عبد الواحد وافى «المدينة الفاضلة للفارابي» ص 10.
104) ولد في شهر صفر سنة 370 هـ في بلدة افشنه من منطقة بخاري.
105) الدكتور مصطفى غالب «ابن سيناء» ص 28 ـ 30 ط دار مكتبة الهلال بيروت.
106) المستشرق كارادي فو «ابن سيناء» ت عادل زعيتر، دار بيروت الطباعة والنشر.
107) ولد سنة 320 هـ وتوفي سنة 421 هـ.
108) حقق الكتاب وشرح غريبه ابن الخطيب. وقامت بطبعه المطبعة المصرية ومكتبتها.
109) المستشرق دي بور تاريخ الفلسفة في الإسلام ص 155 ترجمة الدكتور أبو ريدة.
110) الدكتور زكي مبارك الأخلاق عند الغزالي ص 80 ط كتاب الشعب سنة 1390 هـ.
111) الدكتور عبد العزيز عزت «ابن مسكويه فلسفته الأخلاقية ومصادرها ص 349، ط. الحلبي.

هذه المحاكاة واضحة كل الوضوح (112).

ويكاد يتفق معظم الباحثين على أن الكندي والفارابي وابن سينا وأحمد بن مسكويه أقاموا مذاهبهم في الأخلاق على أساس من الفلسفة التي ثقفوها عن اليونان معلنين ذلك غير مستخفين (113).

فإذا جئنا إلى صاحب مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة : الفيلسوف ـ أبو حامد الغزالي. وجدنا أن أهم مؤلفاته في الأخلاق كتاب «ميزان العمل» وإن كانت مؤلفاته الأخرى وفي مقدمتها «الإحياء» لا تخلو من الأفكار والمذاهب الأخلاقية...

والغزالي حقيقة قد اهتم بالفضائل وكرس لها فصولا كاملة في كتابه «ميزان العمل» وكتابه «إحياء علوم الدين»... وأخطر ما يواجه الباحث في الأخلاق الإسلامية عند الغزالي» هو اعتماد الغزالي لنظرية النفس لدى أفلاطون وتقسيماته لقواها» (114).

فالإنسان عند أفلاطون من جوهرين : أحدهما منسوب إلى عالم المثال وهو النفس، والآخر منسوب إلى عالم الحس، وهو البدن... وإذا كانت النفس من عالم المثال وجب أن تكون إلهية وأزلية وأبدية ومعنى أزليتها وجودها قبل البدن. ومعنى أبديتها بقاؤها بعد الموت وخلودها، وقد اقتبس أفلاطون فكرة ـ وجود النفس قبل البدن من تعاليم «فيثاغورس» وأغلب الظن أنه أمن بها إيمانا حقيقيا، وذلك أن النفس الإنسانية في نظره شبيهة بنفس العالم. فنفس العالم أول ما خلق الصانع وهي إلهية مثله. وهي مبدأ حركة العالم المنظمة، وهي علة الحياة بوجه عام أما النفس الإنسانية الشبيهة بنفس العالم من كل وجه فهي مبدأ حركة الجسم، وفيها مبدأ خالد ينظم حركاتها، وهذا المبدأ الخالد هو العقل.

والنفس الإنسانية عند أفلاطون ثلاث قوى وهي :

1 ـ القوة الشهوانية وهي مجموع الشهوات الجسدية والحسية، ومهمتها رئاسة الوظائف الغذائية والجنسية وفضيلتها : العفة.

2 ـ والقوة الغضبية، وهي مجموع الغرائز النبيلة الكريمة، ومهمتها حفظ كرامة الفرد، وفضيلتها : الشجاعة.

3 ـ والقوة العاقلة، وهي قوة النظر والتأمل، ومهمتها إدارك الحقيقة والسيطرة على القوة الغضبية والقوة الشهوانية، وفضيلتها : الحكمة (115).

فإذا أخذت تفتش فيما كتبه الغزالي عن الأخلاق والفضائل وجدت أنه متأثر إلى حد كبير بنظرية أفلاطون في النفس والفضائل... والجديد في كلام الغزالي هو التوفيق بين أفلاطون ونظريته في النفس وبين فضائل القرآن... يقول الغزالي : (116) «ومهما أصلحت القوى الثلاث ـ الشهوية والغضبية والعقلية ـ وضبطت على الوجه الذي ينبغي، وإلى الحد الذي ينبغي، وجعلت القوتان ـ الشهوية والغضبية ـ منقادتين للثالثة التي هي الفكرية العقلية، فقد حصلت العدالة وبمثل هذا العدل قامت السموات والأرض وهي جماع مكارم الشريعة وطهارة النفس، وحسن الخلق المحمود، بقوله عليه السلام : «أكمل المؤمنين إيمانا، أحسنهم أخلاقا، وألطفهم بأهله»... وقوله عليه السلام : «أحبكم إلي أحاسنكم أخلاقا، الموطئون اكنافا، الذين يألفون ويؤلفون» وثناء الشرع عن الخلق الحسن خارج عن الحصر، ومعناه : إصلاح هذه القوى الثلاث، وقد جمعه الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون**﴾. فدل بالإيمان بالله ورسوله مع نفي الارتياب على العلم اليقيني والحكمة الحقيقية التي لا يتصور حصولها إلا بإصلاح قوة الفكر... ودل بالمجاهدة بالأموال على العفة والجود اللذين هما تابعان بالضرورة لإصلاح الشهوة... ودل بالمجاهدة على النفس على الشجاعة والحلم

---

112) الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار : «العقيدة والأخلاق في حياة الفرد والمجتمع» ط 4 ص 249 طبع الانجلو المصرية.

113) الدكتور محمد يوسف مرسي «تاريخ الأخلاق» ط 3 ص 164، القاهرة.

114) ينظر في هذا الغزالي في كتاب (ميزان العمل) موضوع «بيان جنس العلم والعمل» ص 230 ـ 235 ط. دار المعارف بمصر الطبعة الأولى تحقيق الدكتور سليمان دنيا...

115) الدكتور جميل صليبيا، تاريخ الفلسفة العربية، ص 44، 45 ط دار الكتاب اللبناني بيروت.

116) الغزالي «ميزان العمل» ص 234، 235 تحقيق الدكتور سليمان دنيا ط دار المعارف بمصر سنة 1964م الطبعة الأولى.

اللذين هما تابعان لإصلاح الحمية، وإسلامها للدين والعقل (117).

وإذا كان الغزالي قد تأثر بأفلاطون ونظريته في النفس والفضائل فقد تأثر أيضا بالوسط الأرسطي. وهو المبدأ الذي يقوم على أن الفضيلة وسط بين رذيلتين وهذا المبدأ يسمى في فلسفة الأخلاق بنظرية الأوساط وملخص هذه النظرية : أن كل فضيلة من الفضائل هي وسط بين طرفين كلاهما رذيلة. فالشجاعة مثلا وسط بين الجبن والتهور، والكرم وسط بين الشح والإسراف، والعفة وسط بين الفجور والجمود، وهكذا (118)...

وقد بلغ اهتمام الغزالي بالوسط الأرسطي أن أول آيات القرآن الكريم لكي يحملها على التوافق معه، فقوله تعالى : ﴿فاستقم كما أمرت﴾ معناه عند الغزالي : «يعني الاستمرار على الصراط المستقيم وطلب الوسط بين هذه الأطراف شديد وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف (119)...

وعلى الرغم من إدراك الغزالي للفضائل الإسلامية وكثرة تعددها وتجاوز عددها للتقسيم الأفلاطوني الضيق، فإنه تمسك بذلك التقسيم وقال تحت عنوان «أمهات الفضائل» في كتاب «ميزان العمل» : الفضائل وإن كانت كثيرة فتجمعها أربعة : تشتمل شعبها وأنواعها وهي : الحكمة والشجاعة، والعفة والعدالة فالحكمة فضيلة القوة العقلية، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية، والعفة فضيلة القوة الشهوانية، والعدالة، عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب فيها تتم جميع الأمور، ولذلك قيل : بالعدل قامت السموات والأرض (120).

ومن المؤكد أن الغزالي أدرك أن كثيرا من العلماء لا يرضيهم أن يصل تأثره بالفلسفة اليونانية إلى هذا الحد. فراح يعترف بنقل الأفكار ويسوغ ذلك قائلا : ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا في أسرار علوم الدين طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم، وزعمت أن تلك الكلمات من كلام الأوائل (121)، مع أن بعضها من مولدات الخاطر، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر «وبعضها يوجد في الكتب الشرعية وأكثرها موجود معناها في كتب الصوفية، وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم، فإذا كان ذلك الكلام معقولا في نفسه، مؤيدا بالبرهان ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلم ينبغي أن يهجر وينكر (122).

وأنت ترى من كلام الغزالي هذا أنه يحاول أن ينفي التأثر باليونان وفي الوقت نفسه يضع تبريرا لهذا التأثر... ويقال إن الغزالي حاول أن يطبع ما أخذه عن اليونان بطابع إسلامي صوفي (123).

وهذا كله يدلنا على أن الفلاسفة المسلمين كان تأثرهم بالفلسفة اليونانية وغيرها في الأخلاق يحجب عنهم الرؤية الصحيحة لاكتشاف (الفلسفة الأخلاقية في الإسلام) إلى أن جاء الفيلسوف الكبير عباس محمود العقاد فأدرك تصور الفلاسفة المسلمين، واستطاع بعقليته الفذة، وعبقريته الفريدة وإيمانه الراسخ أن يؤسس فلسفة أخلاقية إسلامية، لم تشأ أن تنقل الإنسان من طبيعته، ولم تحاول أن تقوم جانبا وحده دون جانب آخر... ومحاولتها في التوجيه أن تحقق للإنسان ذاتيته الإنسانية.

والشخصية الإنسانية ترتقي حسب الاستعداد للتبعة ومحاسبة النفس ومصدر الجمال في الأخلاق أن يشعر الإنسان بالتبعة وهذا الشعور مقياس يقوم على صحة النفس وصحة الجسد، ولا صحة بدون ضابط والضابط معناه القدرة على الامتناع ورد النفس عن بعض ما تشاء... وهذا هو عزم الأمور الذي يرتقي بالإنسان إلى الجمال والكمال، والكمال اقتراب من الله.

القاهرة : أحمد عبد الرحيم السايح

---

117) الغزالي «ميزان العمل» ص 234، 235 تحقيق الدكتور سليمان دنيا ط دار المعارف بمصر سنة 1964م الطبعة الأولى.

118) الدكتور محمود محمد مزروعة «دراسات في علم الأخلاق» ص 65، ط مكتب الرياض للطباعة بمصر.

119) الغزالي «ميزان العمل» ص 168 ط دار المعارف تحقيق الدكتور سليمان دنيا الطبعة الأولى 1964م.

120) الغزالي «المصدر السابق ص 264».

121) المراد بكلام الأوائل : الفلاسفة.

122) الغزالي (ميزان العمل) ص 144 ط دار المعارف بمصر الطبعة الأولى.

123) الدكتور محمد يوسف موسى (تاريخ الأخلاق) ص 201.

كتب جديدة أصدرتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية



أصدرت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مؤخرا كتاب «في موكب السيرة النبوية» أو في «بيوتات الرسول ﷺ»، تأليف محمد المختار ولد أباه الشنقيطي.

وهو كتاب يعد من الكتب الإسلامية القيمة التي تضيف إلى المكتبة الإسلامية دراسات وبحوثا مستفيضة عن حياة النبي ﷺ، تناول كاتبه فيه بالدراسة والتحليل سيرة الرسول الأكرم الغنية بالدروس والعظات، الحافلة بشواهد العظمة والخلود للدين الإسلامي الحنيف.

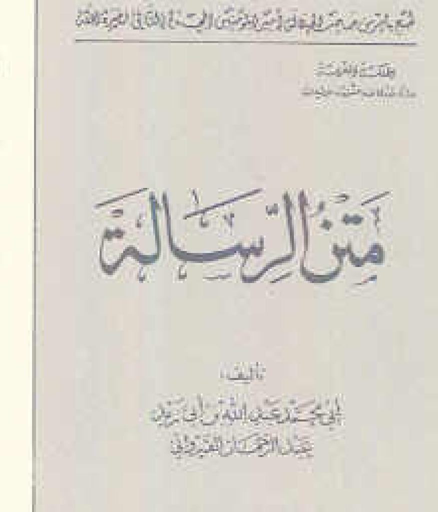
وقد تتبع المؤلف في هذه الدراسة القيمة حياة الرسول منذ نشأته الأولى إلى أن اصطفاه الله ليكون حاملا لرسالة الهداية والنور في كفاحه المرير من أجل نشر الدعوة وتبليغ الأمانة، وما لاقاه من أعداء الدين من كيد وسخرية واستهزاء وإعراض عن الحق، إلى أن جاءت الهجرة النبوية التي فرقت بين الحق والباطل وبرهنت على أن الإسلام هو دين الله الذي ارتضاه للبشرية جمعاء.

وقد حرص الكاتب على أن يشير في كل مناسبة إلى خلق النبي ﷺ، وشمائله وما وهبه الله من قوة وصبر وإيمان ووفاء مما جعل منه نبي الرحمة ورسول الوفاء.

كما تعرض الكتاب إلى أمهات المؤمنين والظروف التاريخية التي أحاطت بدخولهن في بيوت الرسول ﷺ وعن عشرته لهن وما كان لهن من مواقف خالدة وما امتزن به من فضائل وشمائل وجهاد في سبيل الله.

ثم تناول الحديث عن نخبة من المهاجرين والأنصار الذين أزروا النبي الكريم وناصروه، وما كان لهم إلى جانبه من بطولات وجهاده بأنفسهم وأموالهم. وما خصهم الله به من خصائص الفضل والتقوى.

ويقع الكتاب في 245 صفحة وهو من الحجم المتوسط وقد طبع تحت إشراف الصندوق المشترك لإحياء التراث الإسلامي العربي بين وزارتي الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، ودولة الإمارات العربية المتحدة.



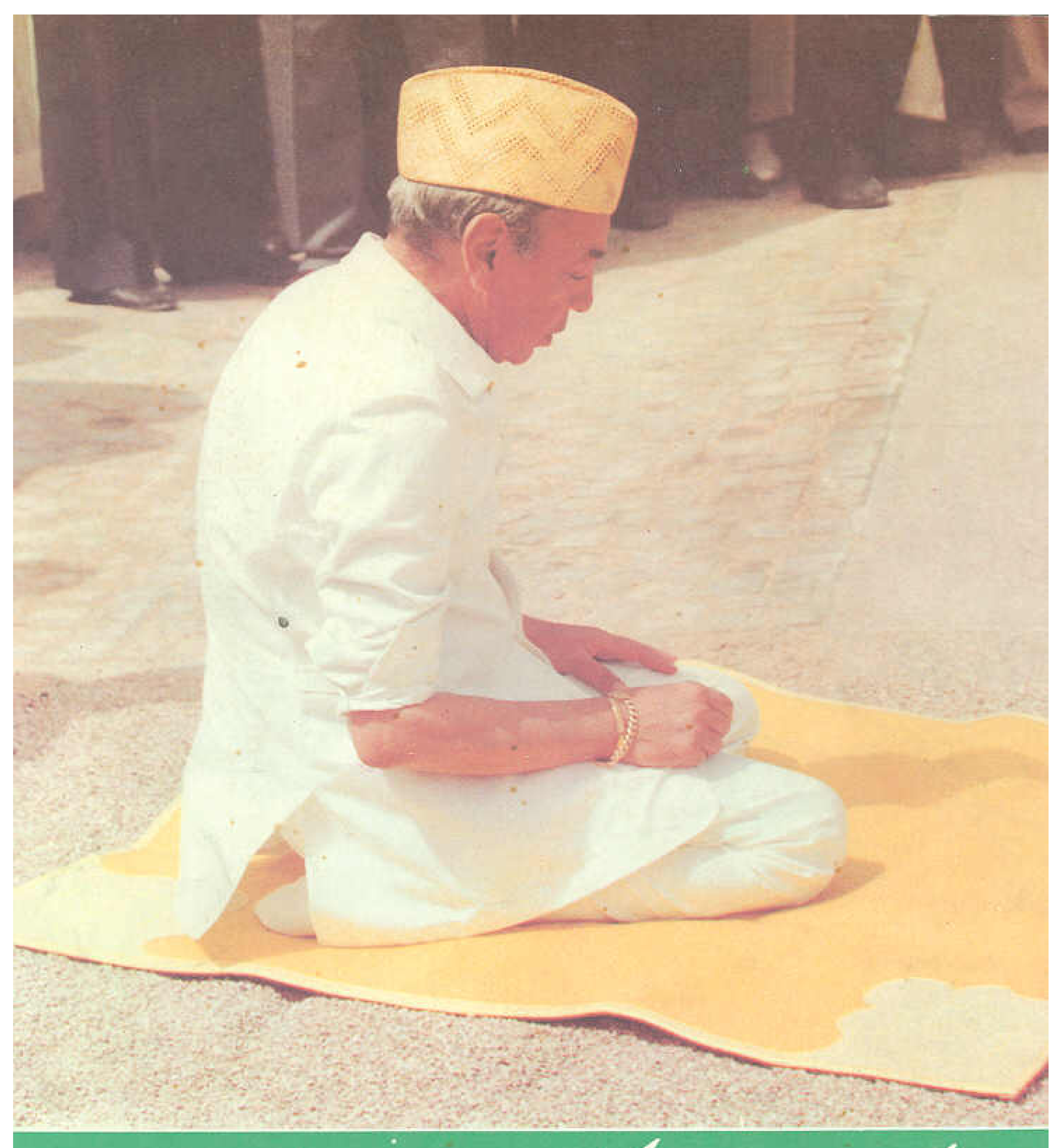
تعزيزا لفقه المذهب المالكي وتدعيما للوحدة المذهبية ببلادنا، التي ما فتئ صاحب الجلالة أمير المؤمنين نصره الله يحض عليها ويدعو إلى التمسك بها والحفاظ عليها.

يسعد وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أن تزف إلى جمهور الدارسين والوعاظ والأئمة والمرشدين وغيرهم من المهتمين، نبأ إصدارها لطبعة جديدة من كتاب «الرسالة» لابن أبي زيد القيرواني، الذي يعد من الكتب الفقهية الأصيلة على مذهب الإمام مالك رحمه الله، وذلك بعد مراجعته وتصحيحه وشكله من طرف صفوة من العلماء المتخصصين، إضافة إلى ما يمتاز به من سلاسة في الأسلوب وسهولة في الإدراك.

وقد كان باعث الوزارة المذكورة على طبع كتاب «الرسالة» طبعة جديدة وأنيقة هو وضع كتاب فقهي بين يدي الطلبة والأئمة والمرشدين، يكون جامعا لمبادئ العقيدة الصحيحة وأهم الأحكام الفقهية في مختلف العبادات والمعاملات.

ويعتبر الكتاب لبنة من اللبنات الأساسية في صرح المذهب المالكي الذي اختاره المغاربة مذهبا لهم واعتنوا به عناية فائقة.

وطبعه في حلة جديدة يعتبر معلمة بارزة من معالم الطريق التي ترسمها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لنشر كتب المذهب المالكي تنفيذا للتعليمات السامية لمولانا أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله ونصره.



أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني المؤيد بالله وهو يؤدي صلاة الشكر لله عند الخط الاستعماري الوهمي للحدود بين المملكة المغربية وأقاليمها الجنوبية بعد تحرير واسترجاع هذه الأقاليم